أسرار وراء الحجاب

ترجمة وإعداد / محمد

أبو رحمة

الطبعة الأولى

1409هـ ـ 1989م

لقد عمل الطبيب سيمور غراي لسنوات عدة في المستشفى المركزي الحديث بالرياض. وانطبعت في خياله عادات وتقاليد مجتمع غرب عنا. لكنه كان مراقباً دقيقاً لكل ما رآه. بها كشف لنا الستار عن أشياء كثيرة كانت مخبأة وراء الحجاب في هذه المنطقة الغامضة من العالم، أعياد ملوكية، الحياة اليومية للبدو، العرس والموت، سبق الجمال والإعدامات في الساحة العمران الصاخب والمغامرة في الصحراء، كل هذه الأشياء هي بعض مواضيع هذا الكتاب. مراراً وتكراراً يسلّط الكاتب الأضواء على دور المرأة في العالم العربي ويتسائل: كيف يمكن لنساءٍ نشأن في الولايات المتحدة الأميركية أن يُقدن بملء إرادتهن ليعشن في وحدة الحريم ويبدلن لباس الجينز بالحجاب؟ لقد كتبت كلاريسا ويتنبرغ في الوشنطن بوست، "لقد ألف سيمور غراي كتاباً جذاباً مليئاً بالأماكن المثيرة وعنياً بالأماكن المثيرة وعنياً بالشخصيات الفذّة".

مقَدّمَة

إنها رحلة ممتعة :

طبيب أمريكي يسافر إلى السعودية ليعمل في مستشفى الملك فيصل ثم يعود لينقل إلى المجتمع الغربي صورة حية عن مشاهداته وانطباعاته عن هذا البلد، وكذلك يحاول تصوير العادات والتقاليد السائدة في هذا المجتمع العربي.

وفي هذه المذكرات يطوف بك دكتور "سيمور جراي" أرجاء السعودية: من الرياض إلى حدود اليمن من الواحات الخضراء إلى صحراء الربع الخالي، ثم يجول بك بين القصور الفخمة والخيام البسيطة ليقابلك بالملوك والأمراء والبدو....

وسطور هذه المذكرات موجهة أساساً إلى أبناء الغرب في أميركا وأوروبا. ولكنك ستجد هناك الكثير "بين السطور" كان لزاماً علينا أن نستخلصه وندفعه إلى المقدمة لأنه يمسنا نحن في المقام الأول كعرب وشرقيين ومسلمين. هذا (ما بين السطور) دفعني دفعاً لإضافة الجزء الثاني من هذا الكتاب ناشداً من وراء ذلك الخروج بالمعرفة والتجربة، آملاً أن نتعلم ونستفيد..

محمد أبو رحمة

القاهرة في يوليو 1988

الفصل الأوّل

رحلة إلى الماضي

من مطار هيثرو بلندن وفي صباح أحد أيام أكتوبر المنعشة عام 1975 صعدت إلى الطائرة النفاثة التابعة للخطوط الجوية السعودية والمتجهة إلى الرياض، عاصمة المملكة العربية السعودية.

على باب الطائرة بادرتني المضيفة اللبنانية الجذابة بالتحية، ثم قادتني إلى مقعد مريح دوار في الدرجة الأولى..

حين هممت بالجلوس لفت نظري اللافتة الصغيرة المعلقة على حقيبتي الجلدية ذات اللون البني والتي كان مكتوباً عليها: "مستشفى الملك فيصل الخاص ــ الرياض ــ السعودية".. أعادتني هذه العبارة بنحو أو بآخر إلى وعيي: "إنني في طريقي الآن إلى السعودية"..

دار الإسلام، بلاد البدو والجمال والصحراء الشاسعة..

امتلكني شعور غريب، فأحسست أنني "أليس" لما أرادت أن تتبع الأرنب من خلال الحجر لتنفذ إلى بلاد العجائب.

ففي جيبي يوجد عقد لمدة سنتين ولسوف أعمل في أحدث مستشفى. مجهز بأفضل أدوات الطب في العالم..

وبالرغم من أنني كنت قد قمت في السنوات الأخيرة بعلاج الكثير من الشخصيات الهامة لم يحدث أنني توقعت أن الأرض سوف تبلعني من الرهبة.. ولكن أن يكن الملك أو ولي العهد من بين المرضى الذين أعالجهم كانت فكرة مغرية.

"كم واحد يا ترى في العالم كله واتته الفرصة ليصير طبيب أغنى ملك على مر العصور"...

لكن ما كن يجذبني أكثر هو إمكانية إقامة علاقة وطيدة مع أناس كثيرين من جميع الطبقات غنية كانت أم فقيرة.. لما علم زملائي بعزمي على الإقامة في السعودية لمدة عامين أو أكثر أصيبوا بدهشة بالغة ولم يفهموا سبب توقفي عن تجاربي وابحاثي الطبية من أجل السفر إلى بلاد الصحراء الغربية البعيدة عنَّا بآلاف الكيلومترات..

أما دهشة أصدقائي فلم تقل عن ذلك وأخذوا يتساءلون عن سر تنازلي عن الحياة الوديعة الناجحة في بوسطن مقابل حياة بدائية في أرض مجهولة على الطرف الآخر من العالم..

وأما زوجتي، فكان رد فعلها أن سألتني عن حال الطقس في السعودية حتى تستطيع اختيار أنواع الملابس المناسبة..

كان اهتمامي بالطب العالمي قد ظهر من سنين بعيدة عندما أقنعت إحدى مؤسسات الدواء بالقيام بتمويل برنامج لإعداد الأطباء الشبان في البلاد النامية، والدارسين في جامعة هارفارد. وبالفعل عمل الأطباء الأجانب معنا لأعوام عديدة ثم عادوا بعد ذلك إلى أوطانهم.

ثم أنني بعد ذلك أنشأت علاقات عديدة مع الناس في البلاد الأخرى أثناء رحلاتي إلى وسط وجنوب أمريكا كمحاضر من قبل وزارة الخارجية، ثم كلفتني وزارة الخارجية برئاسة بعثة خاصة للإشراف على تدريس الطب في أفريقيا وآسيا وكذلك أمريكا اللاتينية.. فأصبح هذا دافعاً إضافياً يجعلني أشارك في رعاية الناس في المناطق المختلفة حيث يسود الإفتقار إلى الأطباء بصورة حادة. ولهذا السبب وجدت نفسي أوافق بسرور على السفير إلى السعودية

******

لما ارتفعت الطائرة وجدت نفسي أرجع إلى الوراء لأنظر من النافذة وأشعر بأنني قد اتخذت القرار السليم..لأن الحاجة إلى شخصي في السعودية كطبيب أكثر إلحاحاً منها في بوسطن..

غمرني إحساس بالرضا لما أدركت أنني في خلال سنتين فقط سوف استطيع أن أساعد مرضى أكثر من الذين عالجتهم في بلدي طيلة حياتي..

كنت حقيقة كالمسحور بهذه المملكة الإقطاعية التي بقيت معزولة عن العالم لأكثر من ألف سنة. وقد تقدمت السعودية لتحتل المكانة الأولى في اهتمام العالم بعد حظر تصدير البترول وارتفاع سعره إلى أربعة أضعافه، مما أدى إلى تبعية الاقتصاد الأوروبي للبترول بالتالي لهذا البلد..

وكذلك كان الأمر بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية، مما دفعها إلى التفكير في دعم السعوديين في أي مجال.. وفي مقابل هذا كانت السعودية تنظر إلى الولايات المتحدة بعين الرضا..

فلقد فضلت السعودية ــ على سبيل المثال ــ تكليف إحدى الشركات الأمريكية بإدارة المستشفى الجديد الذي أعمل فيه أنا..

أما ما كان يثير اهتمامي فكان الأسلوب الفريد الذي أتبعه السعوديون في الحياة والذي استمدوه من تعاليم المذهب الوهابي، الذي يدعو إلى حياة دينية متزمتة جداً، كما كانت على عهد "الرسول"، وقد حكمت فرق الوهابيين هذا البلد لأكثر من مائتي عام.

ولهذا السبب ظلت السعودية إحدى أكثر المجتمعات الإسلامية تشدداً.

ومهما يبدو الأمر غريباً فإن الجريمة قد اختفت من المجتمع السعودي.

هذه الجريمة وهذا العنف اللذان تفشيا بيننا وقوضاً أركان الامن في مجتمعنا الغربي، كما أن غواية شعبنا وسماحة قضائنا الزائد عن الحد قد أثارا قلقي على نحو عظيم.
فصار لدينا في الولايات المتحدة أعلى معدل جريمة في العالم، وقد أخذت البنية الاجتماعية .. لبدنا في التحلل..
لهذا الأمر، وكأن الحرية الشخصية عندنا قد صارت جواز سفر لخرق القانون، وأصبح للحرية الفردية الأولوية قبل حرية المجتمع ككل..
وقد صدمنا أيضاً للفساد الذي تفشى داخل الحكومة ذاتها. وها هي فضيحة "وترجيت"ما زالت عالقة في الأذهان.
وها انذا اترك خلفي المأساة الكاملة والتمزق الداخلي الذي أحاطني في كل مكان في وطني وأقبل على بلد آخر.. هو منتهى الرجعية والتحفظ ــ حسب المقاييس الأمريكية ــ أما بنيته الاجتماعية فتبدو متماسكة، على الأقل من على بعد ثلاثة عشر ألف كيلومتر، فهي تملك ما أفتقده في مجتمعنا..
كنت قد شرعت في البحث عن جزيرة سلام، خالية من الجريمة والفساد والمشاكل الاقتصادية الطاحنة حيث يشعر المرء بالاطمئنان ويؤدي عمله في سلام آمناً على مستقبله.
لم أكن متأكداً من أنني سوف أعثر على ضالتي المنشودة في السعودية ولكنني كنت على يقين من أنها ستكون مغامرة مثيرة وفريدة من نوعها. فقد كانت السعودية تمثل حتى وقت قريب ــ قارة اطلنطا الغارقة بالنسبة للإنسان الغربي. وهكذا لم يذكرها "جوليان مكسلي" في كتابه"الشرق الأوسط وتاريخه"والذي نشر في عام 1954. في عام 1932،أي منذ خمسين عاماً ظهرت المملكة العربية السعودية بشكلها المعروف إلى الوجود، أنشأها رجل ــ جدير بالذكر ــ يدعى عبد العزيز آل سعود بمبادرة فردية، وهو نفس الرجل الذي يعرف لدى الغرب بإبن سعود. وهو أحد أحفاد محمد بن سعود، الذي احتل الرياض عام1764 ــ وأسس أول دولة سعودية.
نشأ ابن سعود كأمير لا حول له ولا قوة، وكان أبوه قد فقد العرش لصالح القبيلة المنافسة "رشيد"..
وفي عام 1902 ولما بلغ الثانية والعشرين من عمره قاد حملة انتحارية على الرياض واستطاع بها أن يسترد عاصمة آل سعود القديمة..
كانت هذه الحملة أول العمليات العسكرية الناجحة، ففي خلال خمسة وعشرين عاماً استطاع ابن سعود أن يبسط نفوذه على شبه الجزيرة العربية، مستخدماً في ذلك القتال مرة والزواج مرة أخرى والتكتيك السياسي مرة ثالثة، فإذا اضطر أن يحارب أعداءه قاتلهم، وإذا أتيحت الفرصة

أن يصالحهم تحالف معهم.. وغالباً ما كان ذلك يتم من خلال زواجه من بناتهم من أجل تعضيد التحالف.

على هذا الموال نجح ابن سعود في توسيع رقعة ملكه من خلال ضمه لأملاك معظم زعماء القبائل الآخرين في الجزيرة العربية.

وفي عام 1926 هزم ابن سعود آخر أعدائه واستطاع بعد تأمين فتوحاته أن يوحد كل المقاطعات المختلفة في عام 1932 ليعلن قيام المملكة العربية السعودية[1]. ولتصير السعودية الدولة الوحيدة التي يطلق عليها إسم عشيرة أو عائلة..

ولقد تزوج ابن سعود أثناء فتوحاته أكثر من ثلاثمائة إمرة. وكانت معظم الزيجات تتم لغرض سياسي من أجل التحالف مع زعماء القبائل المهمين وكان من نتائج هذه الزيجات العديدة أربعة وأربعون أبناً وعدداً غير معلوم من البنات.. ويغلب الظن أن عدد أفراد العائلة السعودية على اختلاف فروعها فيربوا على الأربعة آلاف رجل..

على أن القيمة الكبرى لهذا الحجم غير العادي للعائلة المالكة تتجلى في ان الحكومة والقوات المسلحة تتكونان في الغالب من أفراد العائلة المالكة، والذين لا يكون ولاؤهم للتاج السعودي محل شك.

كانت السعودية بلداً متخلفاً فقيراً عندما تم الإعتراف بها كدولة مستقلة عام 1932 لدرجة أن الكهرباء لم تدخلها الا في عام 1960 ولم يحرم الرق فيها الا في عام 1962.

كما لم يكن لها من مواد ذات قيمة اللهم الا الدخل الذي كانت الدولة تحصله من حجاج مكة.

وفي عام 1938 اكتشفت الشركة العربية الأمريكية للبترول (أرامكو) أكبر حقول البترول في التاريخ لتنضم السعودية فجأة إلى أكبر الدول ذات التأثير العالمي..

وفي خلال عقود قليلة من السنين استحالت حفنة من قبائل البدو الفقيرة والمنتشرة في جميع أرجاء شبه الجزيرة إلى دولة غنية منقطعة النظير. فثلث احتياطي البترول العالمي يكمن تحت رمال صحراء السعودية.

وعندما بدأت السعودية في تحصيل موارد معقولة من البترول مات ابن سعود عام 1953م لتفقد البلاد زعيمها المحنك في وقت كانت تحتاج فيه إلى قيادة صلبة رشيدة.

وفي عهد الملك المسرف سعود، خليفة وابن الراحل ابن سعود، انعطفت السعودية منعطفاً خطيراً وأخذت تصرف مواردها الكبيرة بأسرع مما تجمعها. وفي نهاية المطاف يتم عزل سعود في عام

---

[1] تم إعلان قيام المملكة العربية السعودية في 21 جمادي الأولى عام 1351 هـ الموافق 22 سبتمبر 1932م.(المترجم).

1964م ليحتل مكانه أخوه الملك فيصل والذي يثبت أنه حاكم قوي، يبذل قصارى جهده في خدمة في بلده، الا أنه في عام 1975م يقوم معتوه من أفراد الأسرة المالكة بقتل الملك..
ويجتمع حكماء العائلة ليختاروا ولي العهد ــ في ذلك الوقت "خالد" ملكاً وحاكماً للبلاد ويعينون نفس الوقت الأمير فهد ولياً للعهد.. والذي تولى الحكم فيما بعد عام 1982م...
لقد بلغ ثراء هذا البلد الصغير والذي يبلغ مساحته ربع حجم الولايات المتحدة شأواً عظيماً..
فقد صارت السعودية تحتل المرتبة الأولى بين دول العالم المصدرة والمنتجة للبترول أما احتياطيها من النفط فيقدر بثلاثمائة مليار طن..
وتحصل السعودية من انتاج البترول على مائة مليار دولار سنوياً اي بنسبة خمسة عشر ألف دولار تقريباً لكل مواطن.أما الدخل القومي للسعودية فيشكل أكبر معدل دخل ف العالم بالنسبة لعدد سكانها البالغ ستة ملايين وهو بذلك يمثل دخل الولايات المتحدة تقريباً..
يضاف إلى ذلك الأنشطة الإقتصادية في الخارج وتبلغ مائة مليار دولار..أما احتياطي السعودية من العملة الصعبة فيزيد عن احتاطي بريطانيا والولايات المتحدة معاً.
ومع ذلك فالظلام ما زال يغلف أعظم بلاد النفط في العالم، وتمثل أمام عيني حقيقة: إن ما خلف الحجاب شيء غير معقول، بل ومرعب احياناً بكل المقاييس.

****

أيطلب سيدي ماء "عصير فواكه، أو أي مشروب آخر خال من الكحول"؟.
أفقت من أفكاري لأجد المضيفة اللبنانية واقفة بجواري .. فقلت لها: ماء من فضلك.. فأحاطت المضيفة الزجاجة بمنشفة بيضاء كبيرة لو كانت زجاجة شمبانيا، ثم ملأت كوبي بحركة رشيقة.
كان ذلك أول عهدي بماء "سوهات ووتر" أحد أنواع المياه المعدنية المصنعة في لبنان والمنتشرة في أنحاء الشرق الأوسط "مياه صحة". وقد كان الماء مثلجاً وذا طعم طيب. تعجبت حينذاك من طقوس تقديم هذا الماء الا أن عجبي زال عند معرفة أن ثمن الزجاجة لهذا الماء في السعودي أغلى من ثمن زجاجة الشمبانيا في لندن.
بعد أن ذهبت المضيفة إلى حال سبيلها فتحت حقيبتي الجلدية وأخرجت منها زجاجة سكوتش صغيرة كنت اشتريتها من المنطقة الحرة بمطار هيثرو لأن السعودية تتبع تعاليم الأسلام الصارمة في هذا الشأن وتحرم تقديم الخمور إلى الركاب، وقد حمل كل أجنبي في الطائرة مشروبه الخاص معه ليشربه أثناء الرحلة.. ويغض السعوديون الطرف عن هذا السلوك.
ولأن الحكومة هنا تصادر كلما يتبقى من المشروبات الكحولية عند الوصول إلى الرياض نجد أن الخطوط الجوية السعودية تنقل سكارى ليس لهم مثيل في تاريخ السفر بالطائرات.

أثناء مزجي ماء "سوهات ووتر" بالسكوتش كان جاري الجالس بجواري ينظر الي في اعجاب، ثم قام بفتح حقيبته وأخرج مستلزمات الفودكا والتونيك ليصب لنفسه بسخاء، ويرفع كأسه ويحييني، ثم بادرني بالسؤال.

ــ إلى أين العزم؟

إلى الرياض.

أنا ايضاً مسافر إلى هناك.

قال ذلك ومد يده ليصافحني ثم قدم نفسه لي "بيل طومسون" وذكر لي أنه مقاول كهرباء من كاليفورنيا يعمل في عدد من مشاريع التعمير في الرياض.

كان بيل رجلاً متين البنيان، وقد أخذ الصلع يزحف إلى رأسه، في أواسط الأربعين من عمره، وكان قد عقد عدداً لا بأس به من الصفقات في السعودية. . وكانت هذه هي الزيارة الثالثة له.بادرته قائلاً:

ــ أني أنوي البقاء في السعودية لمدة عامين.

ــ يا إلهي إنه وقت طويل جداً ولا أتحمل البقاء في السعودية أكثر من شهر واحد، وفي خلال الشهر أكون قد انجزت اعمالاً كبيرة. فليس أمامك أي فرصة أخرى غير العمل.إنك تعيش هناك وكأنك في الصحراء.

بدا لي أن مجرد تفكيره في الرياض يجعل حلقه يجف، فتوقف ليأخذ رشفة من مشروب الفودكا بالتونيك، ثم قال لي:

إن أمامك أياماً صعبة، فهناك لا يوجد دور سينما أو مسارح، كما لا يوجد خمر أو نساء. فأنت لن ترى النساء في الشارع أو حتى في المطعم،ولا يوجد من عنده النية في الضحك، وأن ذلك يسبب الاكتئاب احياناً.

سألته:

وكيف حال النساء الأجنبيات،هل تأخذ زوجتك معك أحياناً؟

فأجاب:

لست متزوجاً، ولو كانت لي زوجة لما اصطحبتها معي بكل تأكيد فالقانون السعودي يسري على الأجانب مثلما يسري على بنات البلد فهن يمنعن من قيادة السيارات أو مزاولة العمل الذي يجمعهن بالرجال،وهن لا يستطعن الذهاب بمفردهن إلى أي مكان الا إذا كن يبغين ــ التعرض لمضايقات قاسية. ثم انطلق بيل يتكلم في حماس وسألني:

هل تريد أن تعرف مدى حساسية السعوديين تجاه النساء؟ دعني اذن أقص عليك حكاية وقعت بالفعل.

عندما أرادت الملكة إليزابيث ــ ملكة إنجلترا ــ القيام بزيارة الى السعودية منذ شهور قليلة، وقعت في حيرة عظيمة، إذ أنه بالطبع من المحرم على النساء طبقاً للتقاليد السعودية الاشتراك في طقوس مهمة فما بالك إذا كان ضيف الشرف إمرأة..

وأخيراً عثر السعوديون على حل :

فقد منحوا الملكة شرف أن تكون رجلاً حتى تستطيع زيارة بلادهم.

استطرد بيل قائلاً:

إن الفصل بين الجنسين هنا مدعاة للإستغراب فالنساء يقمن في بيوتهن ولا يجوز لهن مخالطة الرجال، ولا يستطيع الرجال أن يحتكوا بهن، كما أنه من الطبيعي الا ترى صورة امرأة في الجرائد أو المطبوعات، فالرقيب يقوم بطمس صور النساء بالسواد ويصادر السعوديون كلما يعتقدون أنه يخالف القواعد الإسلامية.وفي وقت قريب قام أحد رجال الجمرك مصادرة كتاب عن الفن لأنه كان يحتوي صورة تمثال عار: "فينوس" لميلور.

أفرغ بيل الكوب ثم أشار إلى فتاتين جذابتين كانتا تجلسان على الجهة المقابلة من الممر.. فتاتان رشيقتان لهما بشرة سمراء وشعر غزير أسود وعيون واسعة كانتا تتحدثان وتضحكان، شأنهما شأن كل الفتيات. كانتا أنيقتين، ترتديان ملابس حسب آخر صيحة من باريس وكانتا تضعان الساق على الساق ثم تعيدانها مرة أخرى الى مكانها، مظهرتين أثناء ذلك أفخاذاً مستديرة.

وكان يجالسهما رجل في أواسط العمر، من المحتمل أن يكون أباهما أو عمهما.. وكان يشاركهما الحديث في بعض الأحيان..

همس بيل الي قائلاً: تستطيع أن تتأكد أن الرجل لا يتركهما يغيبان عن عينيه.. فهو قريبهما ويصحبهما في كل مكان..

كما كان العطر النفاذ المغر يعبق الجو بين الفينة والأخرى..

وقد شرح بيل لي ذلك قائلاً: إن النساء السعوديات يستعملن طبقاً للتقاليد كثيراً من العطر. ثم أضاف: احتمال أن يكونوا من العائلة الحاكمة أو من عائلات المقاولين السعوديين في طريق عودتهم من الإجازة في أوروبا.

لقد خلقت الثورة النفطية كمية كبيرة من أصحاب الملايين السعوديين وأول شيء يفعلونه بعد أن يحصلوا على المال أن يسافروا إلى لندن أو باريس ليصرفوه هناك.

سألت بيل: كيف يتم عقد الصفقات مع السعوديين..

فقال: في الأحوال العادية يكون ذلك عذاباً، إنهم ماكرون كالثعالب ولابد أن تكون حذراً ويضاف إلى ذلك أنهم عند عقد الصفقات ينامون أسابيع في العمل قبل أن يعطوا الرد، ان ذلك بالنسبة لهم لعبة هم الذين يحددون قواعدها.

غير أنهم مؤدبون للغاية، ويقدمون لك القهوة وكل شيء ولكنهم يجعلونني في بعض الأحيان افقد صوابي.

علاوة على ذلك فإنهم يتأخرون جداً في تسوية الحسابات، ومن الممكن ان تنتظر سنه أو سنتين حتى يدفعوا.

وقد تحقق هذا كما لو كان نبوءة أحد الرسل، فبعد ستة أشهر كان مستشفى الملك فيصل سيغلق أبوابه لأن السعوديين لم يقوموا بدفع عدة ملايين من الدولارات كانت مستحقة الدفع منذ زمن بعيد لصالح مؤسسة لمستلزمات المستشفيات وبناء على ذلك قامت الشركة بإيقاف توريد مواد طبية مهمة للغاية. قلت:

أعتقد أننا شئنا أم أبينا يجب أن ننسجم مع تقاليد البلاد الأخرى واساليبها في الاقتصاد مهما بدت لنا غريبة. ثم فكرت في الذي تعلمته من سنين قليلة أثناء زياراتي للبلاد النامية. وغرقنا بعد ذلك في الصمت وأخذت أتذكر تجاربي السابقة مع العائلة الحاكمة. ففي الستينات كان كثير من المشاهير يسافرون إلى بوسطن ليستشيروا المتخصصين في المستشفيات الذائعة الصيت وكانت الأميرة عفت زوجة الأمير فيصل، (الذي صار فيما بعد ملكاً للسعودية) إحدى هؤلاء المشاهير.

كانت عفت جذابة، طلقة اللسان، امرأة ذات نفوذ،وعلى ما أعتقد كانت هي المرأة ذات القدح المعلى بين نساء فيصل.

ولقد استطاعت رغم المعارضة الشديدة من قبل زعماء الدين المحافظين، أن تقنع الحكومة السعودية بإنشاء مدرسة ابتدائية للبنات، وتبعتها بمدرسة أعلى. كان تعليم النساء حينذاك رجساً من الشيطان، ولكن عفت ذات الأصل التركي استطاعت أن تفرض إرادتها وتنتزع النصر في النهاية.

واثناء ما كنا نناقش مشاكل الأميرة الصحية كانت لا تتوقف عن تدخين السجائر التركية السوداء الطويلة.. وعندما سألتها عن عدد السجائر التي تدخنها في اليوم أجابت وهي تتحاشى دخول الدخان في عينيها: حوالي ثلاث علب، أدركت أنه هراء أو ارجوها أن تمتنع عن التدخين. وقد وقعت أحداث تجربتي الثانية مع البيت الحاكم بعد ثلاث سنوات: كان ذلك في أغسطس عام

1962 فعندما كنت أباشر المرضى في المستشفى فوجئت برجلين أسودين عملاقين كانا حوالي المترين، يقفان في نهاية الممر.

كان الرجلان يلبسان عمامتين ملونتين وثياباً بيضاء ويحملان في جرابيهما خنجرين كبيرين ينذران بالشر، فتوجهت إلى الحكيمة اسألها: ماذا يحدث هنا.. ومن هؤلاء؟ فأجابت الحكيمة في نبرة خانقة: إن ملك العرب نزيل المستشفى هنا، وهؤلاء هم حرسه الخاص، انهم يحتلون طابقاً كاملاً وهذا يعني أن مرضاك تم ترحيلهم إلى عنبر آخر.

فقلت: إنني لا أرى أي داع لنقل المرضى بدون سبب ولكن الحكيمة هزت أكتافها..

وقالت: لقد انتهى الأمر. ثم نظرت إلى ورقة بيدها وقالت: وعلى كل فإن اسمك موجود على قائمة الأطباء الأخصائيين الذين سيفحصون جلالته، إن طبيبه عنده الآن وسوف يقوم بالترجمة بينك وبين الملك.

سألتها: هل هي حالة مستعجلة؟

لا ولكنه سيكون من الأفضل لو أننا اسرعنا في ذلك.

وعدتها أن أعود بسرعة ثم القيت نظرة قلقة على الحراس والخناجر. اكتشفت بعد ذلك بقليل أنه قد تم إخلاء الدور الثاني بأكمله ليس خوفاً على أمن الملك. ولكن حتى يتسنى للعدد الغفير الذي اصطحبه الملك أن يجد مكاناً ينزل فيه.

وكان "السفرجية" يصلون إلى المستشفى خمس مرات في اليوم وهم يحملون صوان تزخر بالطعام من مطعم قريب يظلون يعدون في المستشفى هنا وهناك.

أما خارج المستشفى فكان هناك سيلاً لا ينقطع من السيارات الكاديلاك ــ ليموزين اللامعة التي كانت تنقل أبناء الملك وأصدقاءه وزواره من العظماء إلى المستشفى ومنه مرة أخرى إلى الفنادق وقد بلغ عدد من اصطحبوا الملك بين خمسة وسبعين ومائة شخص. ولا تسل عن موجة الإثارة التي انفجرت في المستشفى عندما اتت زوجات الملك الأربع لزيارته..

لقد أتى الأربعة معاً وكن متشحات بالسواد من الرأس حتى القدمين وقد كن جميعاً ممتلئات وذوات عطر نفاذ، ومع أنهن لم يزرن الملك الا مرة واحدة الا أن هواء المستشفى بدا وكأنه مشبعاً بعطرهن لعدة أيام.

عندما دعوت أخيراً لفحص الملك سعود أنتفضت من الفزع لأن المرض كان قد جر الملك إلى حافة الموت، فقد كانت كل أمراضه ذات طبيعة مزمنة وكان معظمها غير قابل للشفاء وقد أصبح الملك لا يرى بإحدى عينيه بسبب عدوى قديمة وكان مرض السكر قد بدأ يزحف على

جسده، وقد أصيب بهذا المرض لأنه كان يمتنع عن تعليمات الطبيب بالنسبة للطعام. كما كان مصاباً بالتلف الكبدي.

ولم يبخل كل من فحص الملك سعود بإسداء النصح له وإرشاده إلى كيفية اهتمامه بنفسه..

ولكن الملك لم يمتثل لهذا، وبعد سبع سنوات توفي في المنفى.

****

أما سانوا آل سعود فإنني ما زلت أتذكرها وكأنها واقفة أمامي، تلك الفتاة ذات الثانية والعشرين من عمرها وزوجة أحد معاوني الملك سعود "سانوا" الفتاة المصرية الجميلة، التي كانت في الثامنة عشر من عمرها عندما تزوجت من أحد الأمراء السعوديين وأنجبت بعد الزواج مباشرة طفلاً وكان عمره في ذلك الوقت ــ الذي عرفتها فيه ــ يبلغ ثلاث سنوات وكان زوجها يصحب الملك في رحلاته إلى الخارج، ولكنه أتى بها معه هذه المرة، حتى يتسنى لها معالجة ورم في ذراعها الأيمن.

بعد أن فحصت الأميرة بدقة قلت لها: إنه مجرد كيس دهني، وإن كان يزعجك فإنني أستطيع استئصاله بعد معالجته بالتخدير الموضعي وكل نتائج الإختبارات كانت أيجابية وسموك في حالة صحية ممتازة. فقالت الأميرة: لابد أن أحدث زوجي في هذا الأمر أولاً ــ ليناقش معك بعد ذلك هذا الشأن، في اليوم التالي حضر الأمير الشاب ابن أخ الملك إلى مكتبي، كان الأمير في حوالي الثلاثين من عمره وكان يرتدي ملابس أفرنكية غالية وأنيقة ويتحدث الإنجليزية بطلاقة وقد أبديت له إعجابي بذلك فقال لي: أشكرك، لقد درست في كاليفورنيا.

ثم شرحت له موضوع الورم وقلت: إن هذا النوع من الأورام منتشر وهو ينمو تحت الجلد ولا يمثل أي خطورة على الأميرة سانوا ومن السهل استئصاله ولا يوجد داع للقلق فهو على كل حال ورم حميد.

تردد الأمير ثم تساءل خائفاً: هل سيصيبني أنا أيضاً عن طريق العدوى؟ ــ لقد قال الأمير ذلك غير هازل ــ ثم أضاف: لقد سمعت أن الأورام تنشأ بسبب فيروس ما ويمكن أن تنتقل من شخص لآخر عن طريق العدوى.

أوضحت له وأنا أمد في حبال صبري: أنه ليس معدياً وليس سرطاناً، باختصار غير ضار البتة، أما إذا كان لديك أي شك فمن الأفضل أن نستأصله على الفور، إن العملية بسيطة جداً ويمكن إجراؤها في العيادة الخارجية.

شكرني الأمير ثم انصرف.

في اليوم التالي حضرت الأميرة سانوا إلى مكتبي بصحبة وصيفتها البدينة "فهدة" والتي كانت تصحبها في زيارتها الأولى وما أن دخلت المرأتان حجرتي حتى انفجرتا معاً في البكاء: لقد طلقني ثم شرعت تبكي بلا تماسك. نظرت بقلق إلى فهدة وسألتها: ماذا حدث؟

فردت فهدة وهي تبكي: طلقها زوجها مساء أمس بسبب الورم الذي في ذراعها.

سألتها غير فاهم: كيف يقدر أن يطلقها؟

فقالت وهي تئن: إن الطلاق في السعودية شيء بسيط للغاية وكل ما يحتاجه الرجل هو أن يقول لزوجته طلقتك ثلاثاً لتنتهي العلاقة الزوجية وهذا هو ما فعله الأمير بالأمس. سألت وأنا لا أصدق: هل هذا شيء شرعي؟

فهزت فهدة رأسها وقالت ستضطر الأميرة للعودة إلى مصر وسيبقى ابنها في حضانة الأمير.

انتحبت الأميرة وقالت: لقد انتهى الأمر. إبني إبني. فصحت حانقاً: هذا...، دعيني أتحدث اليه وسوف أعيد المياه إلى مجاريها فردت فهدة: لن ينفعنا أي شيء، أنه يخاف أن ينتقل الورم إليه أو إلى إبنه.. فصحت غاضباً: إنه أمر مضحك للغاية لقد شرحت له كل شيء بالأمس، أنا أريد التحدث معه مرة أخرى فمن الجائز أن أستطيع تغيير رأيه.

نظرت فهدة بإشفاق إلى الأميرة وقالت لي: ليس هناك جدوى من وراء هذا وعامة لك الشكر على عرضك هذا.

بعد أن خرجت المرأتان من عندي أخذت أوراقي وذهبت بسيارتي إلى الفندق، حيث كان الملك وصحبته قد أستأجروا أكثر من طابق.

وهناك اقتادني شخص إلى جناح للأمراء حيث ساد هناك جو كما لو كان جو

المواخير،فالموسيقى الصاخبة تخرج من كل فج، وسفرجية بسترات بيضاء يجرون هنا وهناك حاملين مشروبات ومأكولات والأمراء الشبان يتنادون بالصراخ وضحكات عالية مبحوحة تخرج من الغرف يقاطعها ضحكات نسائية مكررة. رأيت نساء شبه عاريات تخرجن من غرفة إلى أخرى وهن يضحكن ويتبعهن الأمراء السعوديين وبدا الجميع يترنحون من السكر، بدا وكأن هذا الحفل قد بدأ من وقت طويل وفي بهو الإستقبال والذي كان موقعه في الوسط.. وكان مجهزاً ليكون باراً، التمست مقابلة زوج سانوا وجلست أنتظر بينما كان التماسي للتحدث إلى الأمير ينتقل من شخص إلى آخر.

أثناء ذلك كان التجار يروحون ويغدون حاملين صواوين عرض بها مصوغات وملابس، فتيات جذابات شقراوات يعرضن أنفسهن إما داخلات إلى الغرف أو مغادرينها، ثم اقتربت مني فتاة أمريكية حسناء شقراء في بداية العشرين من عمرها، كانت لطيفة جداً وسكرانة جداً، وكانت

تمسك في يدها قاموساً (إنجليزي ــ عربي) ثم قالت لي سوف أذهب مع أميري إلى السعودية، ثم أمسكت عن الكلام مترنحة لكي ترشف شيئاً من كأسها وتضيف: ولهذا السبب فأنا أتعلم العربية وحينما أحصل على التأشيرة سوف أسافر إليه هناك لأصير أميرة نظرت إليها في حزن لأنني متأكد تماماً من أنها لن تحصل على التأشيرة.

اتضح بعد ذلك أن زوج سانوا غير مستعد لمقابلة أحد وليس عنده النية لاستقبالي. كان المنظر في الجناح الملكي يوحي بالفراغ والإنحطاط واستنتجت أن محاولتي لن تطرح ثماراً تماماً كما تنبأت فهدة فعدت إلى المنزل حائراً..

في اليوم التالي اتصلت بي فهدة في مكتبي وسألتني إن كان في إمكاني الذهاب إلى الفندق لكي اودعهما وقالت لي: لقد عرفنا ما قمت به، ونعرف أيضاً كيف نقدر صنيعك هذا إن سانوا تريد رؤيتك قبل ان ترحل فعندها مفاجأة لك.

تقابلت مع فهدة في نفس المساء في بهو الفندق كانت عينها محمرتان يرى فيهما المرء أثر البكاء. قالت فهدة:

نحن نشكرك لأنك أتيت، إن سانوا متأثرة جداً من طلاقها ــ إنها صدمة فظيعة لها أن ياخذوا ابنها منها.

انطلق بنا المصعد ونحن صامتين، فمررنا بمكان حفل الأمس ووصلنا إلى الأجنحة التي يحتفظ فيها بنساء حاشية الملك ثم دخلت حجرة جهزت بإسراف وكان جوها معبأ بالبخور "والبارفان" وماء الورد، وكان يوجد في أحد اركانها "بيك أب" متنقل. وكانت الزهور تزين كثيراً من الموائد الخشبية الرقيقة، أما الضوء فكان خافتاً.

جلست انا وفهدة على مقاعد مسكورة بغطاءات مطرزة وقدمت لي الشاي والبسكويت ثم بادرتني فهدة قائلة: ستأتي سانوا حالاً ثم وضعت اسطوانة في البيك أب فصدح بموسيقى غربية جميلة ذكرتني رنة الشوق فيها بريمسكي كورساكوف.

وفجأة بدت من الحجرة شبه المظلمة امرأة نحيفة يكاد أن يكون قوامها كالفتيان ملفوفة في ثوب شفاف ذي لون فستقي فاتح يغطي جسدها ولا يفصح عن هويتها ثم شرعت ترقص ببطء بحركات مغرية كانت ترقص بلا عناء وبرشاقة معبرة.

وعندما اسرع ايقاع الموسيقى بدت وكأنها تحولت إلى درويش مجذوب كما لو كان إيقاع الموسيقى مسها بالسحر وأثناء ما كانت تدور وتدور بسرعة كانت الدموع تنهال على وجهها ثم أخذ الهدوء يحل تدريجياً مرة أخرى واصبح الرقص بطيئاً نشواناً، ولما انتهت الموسيقى اختفت وكأن الأرض انشق وبلعتها.

ساد الهدوء المكان، إنه السكون الذي تستطيع ان تسمع فيه رنين إبرة إذا رميت بها على الأرض..

تأملت فيما رايته من لحظة فأحسست وكأنه حلم من تلك الأحلام التي تتراءى للمرء في بعض الأحيان، وخطر ببالي ما قاله هافلوك أليس الرقص أرقى وأجمل الفنون وأقدرها على التسلل إلى الأعماق فهو لا يعبر عن تجربة الحياة، بل إنه هو الحياة ذاتها.

بعد عدة دقائق ظهرت سانوا وقد ارتدت ملابسها العادية وبدا عليها الهدوء الا أن الدموع كانت لا تزال تغطي وجهها ثم همست لي: إنك الرجل الوحيد بخلاف زوجي الذي رآني وأنا أرقص فقلت وقد تملكتني الحيرة: عن ذلك شرف لي ولن أنسى رقصك ما حييت، وها قد مرت ثلاث عشرة سنة ولم أنسه قط.

****

عند الغروب استيقظت، كنا نطير حينئذ فوق الصحراء، بحر لا ينتهي من الرمال، أحياناً يتخذ لون الورد وأحياناً يصير لونه أبيضاً أو رمادياً،من على ارتفاع ثمانية آلاف متر كان المنظر يوحي بالوحدة والهجران، أما على متن الطائرة فقد كانت هناك حركة قد دبت بين الركاب في نهاية الممر فقد كان أحد الرجال أعضاء الطائرة ينحني ويصلي المغرب.

وبجواري كان بيل يفتح عينيه ويجتهد لينفض عن نفسه تأثير كؤوس الفودكا والتونيك، نظر من الشباك ثم نظر إلى الساعة وقال: نحن نطير الآن فوق مصر، لابد وأن نصل فقريباً فوق البحر الأحمر وسوف نتجه شرقاً لنعبر مكة إلى الرياض، سألته: كم ساعة بقيت؟.

فأجاب ساعتان ونصف تقريباً، سنصل حوالي الثامنة حسب التوقيت السعودي، أي الساعة الخامسة حسب توقيت غرب أوروبا.

نظرت إلى المضيف وهو يصلي على سجادته بينما شرع زملاؤه في حمل صواني الطعام، فأشار بيل الى الرجل الراكع ثم قال لي: إن السعوديين يلتزمون بتعاليم دينهم ولقد سافرت بطائرات كان نصف ركابها يقيمون الصلاة في الممرات. أما المضيفات فهن إما إنجليزيات أو لبنانيات أو مصريات. لأن نساء السعودية محرم عليهن أي عمل يجعلهن يحتككن بالرجال، وعموماً فإن شركة TWA أبرمت عقداً لمدة خمس سنوات مع شركة الطيران السعودية وهي تتعامل معها منذ وقت طويل..

فقلت له: إن المستشفى الذي سوف أعمل به يدار بنفس الطريقة، فإن إحدى الشركات الصحية الأميريكية تتولى إدارته لمدة خمس سنوات ولكن ذلك سوف يستغرق على الأقل عشر سنوات أو أكثر حتى يتم تأهيل أطباء كفاية يستطيعون استلام المستشفى. ولسوف يضطر السعوديون لتجديد

العقود.. فرفع بيل كاسه وقال كأن ذلك يناسبني، في صحة المملكة السعودية وفي صحة العقود الطويلة المربحة.

وحالما اجتزنا الحدود السعودية وقفت الفتاتان الجميلتان اللتان كانتا تجلسان على الجانب المقبل وكانتا تحملان حقيبتي سفر صغيرتين ولما اصبحتا على الممر رمتانا بابتسامة آسرة تسلب الإرادة ثم اتجهتا إلى مؤخرة الدرجة الأولى، وبعد دقائق قليلة كانتا تعودان وهما ملفوفتين في حجاب أسود يغطيهما من الرأس حتى القدمين، وكان الحجاب الأسود والذي يسمونه "قطوة"، يغطي وجهيهما ويخفي ملامحهما. كان تحول هاتين الفتاتين الجميلتين الأنيقتين إلى شبح أسود بدون ملامح شخصية منظراً مفزعاً. كما لو كانتا فراشتين ملونتين عادتا مرة أخرى إلى الشرنقة، ثم التزمت الفتاتان بالصمت التام والتحفظ. لم أصدق عيني أن الأمر بدا وكأننا اخترقنا جدار الزمان لنستقر في ظلال الماضي.

أما الذي تبقى فقط فكان الحاضر الذي تعلق في الهواء. ثم حذا صاحبهما بعد دقائق معدودة حذوهما فبدل حلته التويد الانجليزية بثوب طويل ابيض، وقميص من القطن، هو الزي القومي للسعودي، وكانت ياقة القفطان محلاة بقيطان، ثم وضع على ثوبه عباءة طويلة يطلق عليها بشت كما كان طوقها مشغولاً بالذهب. قال لي بيل بصوت خفيض:

إن التطريز بالذهب يشير إلى الأصل الملكي أو الوظيفة العالية وهذا الرجل بالتأكيد أحد الأكابر، ثم نظر بإعجاب إلى الرجل الجالس على الطرف الآخر من الممر وهو يرتب غطاء رأسه فوضع طاقية صغيرة مغزولة على رأسه ثم قام بطي قطعة قماش مربعة ذات كاروه أحمر وجعل منها مثلثاً ثم لفها على الطاقية على نحو يجعل طرف المثلث يتجه أماماً وقد وضع على المثلث ذي الكاروه الأحمر والذي يطلق عليه غطرة طوقاً ليثبته يسمى العقال وقال لي بيل إن الغطرة في هذه الناحية تكون عادة من الكاروه الأبيض والأحمر والبرتقالي أما في مكة أو المدينة فإن لونها يكون أبيض، أما العقال على رأسه والذي يبدو كطوقين سوداوين طويلين هو في الحقيقة ملفوف على هيئة رقم (8) وبعد ذلك بقليل هبطت الطائرة ودرجت على ممر فسيح قريب من منطقة الوصول حيث وضع سلم عند مدخل الطائرة رأيت أنا وبيل سيارة مرسيدس ليموزين فارهة سوداء تتحرك بجانب الطائرة مباشرة. فدلف الرجل ذو العباءة المذهبة ومعه الفتاتان والمتشحتان بالسواد إلى السيارة ثم اختفوا في غمضة عين فتمتم بيل: .. البيت الملكي إنهم لا يمرون حتى بصالة الجمرك. ثم اتجهنا إلى صالة الوصول. في داخل مبنى المطار كانت الأمور تجري بعصبية، فالقادمون يدخلون إلى صالة الجمرك والتي كان يفصلها حاجز زجاجي عن بقية المطار، وكان حارس يرتدي الزي الكاكي يقف على الباب الوحيد ليمنع مرور أي

شخص لم تفتش حقائبه. أما في الناحية الأخرى من الحاجز الزجاجي فكان يقف المئات من الأصدقاء والأقارب ليرحبوا بالقادمين مستخدمين في ذلك الهتافات العالية ملوحين بلافتات مكتوبة باللغة العربية والانجليزية كل يزاحم ويدفع الأخر ليقترب بقدر الإمكان من الحاجز الزجاجي بينما كان الصخب يصم الآذان. كانت أنوار المطار خافتة بينما كانت الجدران الخضراء العالية تعكس الضوء على الوجوه الكثيرة المترقبة فتجعلها تبدو كالاشباح، استغرق إنهاء اجراءات التأشيرة وجواز السفر ساعة تقريباً.. وقد صار الجو خانقاً حاراً في صالة الجمرك لعدم وجود أجهزة تكييف وما أن وصلت الأمتعة حتى نشب التضارب المعهود عليها وفي النهاية وجدت متاعي وفتحته أمام موظف الجمرك الذي فحصه بسرعة ثم أخبرني بالعقوبات التي يتعرض لها جالبوا المخدرات والخمر ولحم الخنزير، وعندما عثر على ماء الحلاقة الخاص بي أخذ يفحصه على نحو أدق حتى أكتشف أنه لا يصلح للشرب ثم دقق في شرائط الكاسيت والتي كان مسجلاً عليها موسيقى كلاسيك فقط، ثم أخذ واحداً منها بطريقة تعسفية ووضعه جانباً وكان هنا الشريط يحتوي على موسيقى موسورغسكي "لوحات من المعرض" فاحتججت على ذلك بشدة ولأن الموظف كان لا يعرف الانجليزية فإنه لم يستطع أن يشرح لي مبررات ذلك، ومن الجائز أن هذا الموظف اعتقد أن الشريط يحتوي على دعاية ولكن لِماذا لم يصادر شرائط تشايكوفسكيا أيضاً. ولما طلبت منه شهادة بذلك نظرا إليَّ وكأنه لم يفهم قصدي فقررت أن أتركه عند هذا الحد، بعد أن انتهت إجراءات التفتيش صافحت بيل مودعاً واتفقنا على ميعاد نتقابل في الفندق الذي سينزل فيه.

ثم خرجت من الباب المراقب واندمجت بين جموع البشر الواقفة على الناحية الأخرى من الحاجز الزجاجي.

كانت هذه الجموع عبارة عن رجال فقط، أغلبهم عرب في ثيابهم، كثير منها بال وقذر. كان اليمنيون هزيلي البنية يحملون جبالاً من الحقائب على ظهورهم، بينما كانت القلة الاميريكية والانجليزية تظهر بوضوح بين هذه الجموع. ثم رأيت أربع فتيات صغيرات يجلسن على نحو منظم على اريكة في ركن المكان، وكن يضعن ساقاً على ساق.

أما وجوههن واجسادهن فكانت ملفوفة تماماً بالسواد. وكن ساكتات تماماً.. فذكرني منظرهن بالبيادق السوداء على رقعة الشطرنج.

وقد جلس ابوهن بجوارهن لا يحرك ساكناً.بعد لحظة كان رجل سعودي طويل القامة يتجه صوبي وكان يرتدي ثوباً وغطاء رأس ناصعي البياض.

ثم سألني: دكتور جراي؟ أنا مشور، أحد العاملين بالمستشفى، أرجو ان تنتظر هنا، حتى أعثر على الآخرين ثم أذهب بك إلى الفندق الذي سننزل فيه.
قال ذلك.. ثم ذاب بين الجموع.
لم أدر ماذا كان يقصد بالآخرين، فوضعت حقائبي بجوار الحائط وجلست أنتظر.
كانت حدة الزحام قد خفت، فرأيت رجلا سينام في أحد الأركان واضعاً متاعه في حقيبة تالفة حزمها برباط، وبجواره تكورت امرأة محجبة بالسواد محتضنة طفلاً نائماً.
عاد مشور وبرفقته ثلاثة رجال آخرين.
ثم قمنا بالتعارف فكان أولهم موظفاً إدارياً من كاليفورنيا والثاني مهندس طب بيولوجي من لندن والثالث موظف أمن من واشنطن.
كان ثلاثتهم قد أتوا في نفس الطائرة بالدرجة السياحية، حمل أحد اليمنيين حقائبنا إلى سيارة مشور "الصالون" ثم مضينا في طريقنا.
وفي الطريق أعلن مشور أن هناك أزمة سكن حادة يعاني منها المستشفى ولهذا فإنه سيتم انزالنا جميعاً في فندق فاخر.
أما الفندق الفاخر فكان فندق اليمامة: فندق قديم وآيل للسقوط، مر بظروف أفضل من هذه.. كان البهو يتضمن سجاداً شرقياً بالياً وبعض المقاعد الضخمة المستهلكة الباهتة.
وفي أحد أركان البهو ذي الضوء الخافت كان هناك تليفزيون يبث موسيقى مصرية، بدت وكأنها تتكون من جملة موسيقية واحدة بالإضافة إلى عدم سلامتها، بعد ذلك فهمت معنى كلمة "اليمامة" ولكن الذي لم أفهمه هو علاقة هذا الاسم بالفندق.
شرع مشور في التحدث إلى بواب الفندق باللغة العربية ثم زادت حدة مناقشتهما لتصير شجاراً صاخباً.
وبعد جدال عظيم أحرز مشور النصر، وفي النهاية قام البواب الحانق باقتيادنا إلى غرفنا.
أما غرفتي فكانت حارة، قذرة، وذات رائحة كريهة، أضئت مصباحين صغيرين موجودين على جانبي السرير، فكشف ضوئهما الخافت عن جدران عالية خضراء بها شقوق عميقة.
وقد كان هناك نافذة تطل على ميدان به عدة أشجار مما أثار إعجابي.
أما الحمام فكان فسيحاً، إلاَّ أن الصنابير كانت غير محكمة وكانت تفوح منه رائحة البول الناتج عن تلف في المواسير، فقلت ممنياً النفس:
على كل إنه شيء موقت فقط، فقد كنت أشعر على نحو ما بالتردد.

نزلت بالمصعد المتأرجح ثلاثة طوابق إلى البهو لأنضم إلى معارفي الجدد وكانت الساعة تشير حينئذٍ إلى بعد منتصف الليل.

حاولنا أن نحصل على قهوة ولكن البواب العنيد هز رأسه تأسفاً مشيراً إلى الساعة معلناً بذلك أن الوقت متأخر.

فجلسنا نتجاذب أطراف الحديث لبرهة من الزمن فاتضح لي أن غرفهم في نفس حالة غرفتي السيئة. ولم يعرف أحد منها ما الذي ينتظره في العامين القادمين.

واثناء حديثنا نشأ لدي شعور بالقربى شعور بالألفة، نشأ بيننا . فجميعنا يجلس في قارب واحد، على الحلوة والمرة.

وقبل أن أعود إلى غرفتي سألت البواب عن طريق الإشارة ــ أن كان يستطيع إمدادي بشيء أشربه.

وفي النهاية اختفى خلف الشباك، ثم ظهر بعد عدة دقائق حاملاً زجاجة خضراء تحت إبطه.. اخذت الزجاجة معي إلى الغرفة. لقد كانت مياه "سوهات ووتر" فقمت وأنا أتمثل مضيفة الطائرة بلف الزجاجة بمنديل قديم قمت بصب الماء في الكوب ثم رفعت الكوب وانا أنظر في المرآة وقلت لنفسي: أهلاً وسهلاً في السعودية.

ثم أخذت رشفة طويلة وخلعت ملابسي بسرعة وارتميت في السرير الصغير وبعد ثوانٍ قليلة كنت أستغرق في نوم عميق.

الفصل الثاني

أمير ينزف

في الرابعة والنصف من صباح اليوم التالي استيقظت على اصوات نحيب عالية تأتي اليَّ من النافذة ونظرت فإذا بالفجر يبزغ على الرياض.

بسرعة أدركت مصدر النحيب إنه هتاف يدوي من مأذنة يصل إرتفاعها حوالي المائة متر.

"اشهد ألا لا إله الا الله، أشهد أن محمد رسول الله" كانت هذه أول خبرتي بالمؤذن،الذي يدعو للصلاة وأحد أجزاء طقس يتم خمس مرات يومياً.. مرة عند الشروق.. ومرة في الظهيرة وأخرى بالعصر.. ومرة عند الغروب وأخرى في العشاء أي ساعة ونصف بعد الغروب.

كنت قرأت عن هذا ولكن لم أتوقع أن يكون صاخباً نافذاً كهذه الصرصعة الكهربائية المدوية.

وسألت نفسي كيف يستطيع أي إنسان أن ينام بعد هذا.

بعد حين صار الآذان للصلاة جزءاً من حياتي اليومية القاسية لدرجة أنني كنت استيقظ من النوم لو انقطع يوماً.

في السادسة والنصف غادرت السرير مترنحاً.. ثم ارتديت حلتي الصيفية الخفيفة ونزلت حيث قابلت الرفقاء الذين شاطروني الشقاء بالأمس.قدم طعام الفطور لنا على مائدة طويلة مغطاة بمفرش قذر يحط عليها الذباب ويمتلئ بفتات الخبز، كان الفطور يتكون من الشاي أو القهوة وعصير محفوظ وخبز وزبدة زنخة.

كانت جماعتنا تضم أخصائي تخدير إنجليزي يدعى "توم" ولأنه كان قد قضى حوالي الأسبوع في الرياض فإنه خبير بالشؤون السعودية بالنسبة لنا.

كان يواجه أسئلتنا الساذجة بلطف وتعاون، فقد قال لي: يا للهول.. اخلع سترتك وانزع رابطة عنقك وافعل كما يفعل أهل الرياض يا للعنة انك يا سيدي في السعودية لست في بوسطن. كنت أحل رابطة عنقي عندما سألته. كم هي درجة الحرارة هنا؟

فرد قائلاً: فقط حوالي خمسين درجة مئوية في الظل. هذا الجو يعتبر ربيعاً في السعودية، لا بد أن تحرص على الشرب بدرجة كافية حتى لا تفقد سوائل بدرجة خطيرة، بعد الفطور وفي السابعة والنصف تجمعنا في البهو حيث ستكون الحافلة في انتظارنا لتنقلنا إلى المستشفى.

بعد قليل وصلت حافلة ماركة "تويوتا" مكتوباً عليها بالإنجليزية والعربية مستشفى ومركز أبحاث الملك فيصل الخاص.

ولما كانت الحافلة لنقل اليابانيين، كانت ضيقة جداً لدرجة أننا كنا نحشر أنفسنا في المقاعد ضامين الركب إلى الصدور وضحكنا كثيراً من هذا الوضع الهزلي الذي وجنا فيه أنفسنا، كان جو من المرح والانطلاق يخيم علينا كما لو كنا أطفالاً ذاهبين إلى رحلة.

واثناء ما كنا نحاول إيجاد وضع مريح كانت سيدة تقف في نهاية الحافلة وتقدم نفسها: "لا واربال"، وتعلن أنها مكلفة ببرنامج ارشادنا والذي يتكون أساساً من محاضرات وزيارات للمنشآت الصحية. أثناء حديثها اهتزت الحافلة وتحركت، وعلى الفور كانت المشاهد التي نمر بها وضوضاء مدينة الرياض قد ألهتني.. كنا نشق طريقاً واسعاً حديثاً على أحد جانبيه مبان حكومية ضخمة شامخة تشبه القلاع وناطحات سحاب حديثة، وعلى الجانب الآخر أكواخ من الطين وقمامة وأنقاض. واستطعنا أن نرى النية في كل مكان لتعمير جبار، كانت الأوناش الضخمة تبدو وكأنها أصابع عمالقة سوداء تشير إلى السناء.

وكانت المدينة بالكامل تضج بصخب الماكينات ومئات العمال السمر من باكستان واليمن..يهرولون في قمصان طويلة قذرة مرتدين قبعات يدفعون أمامهم عربات تحمل الطوب ويمسكون في أيديهم بالمعاول. بعضهم يتسلق السلالم حاملاً الطوب بينما الريح يملأ قمصانهم ويفقدهم توازنهم، وبالرغم من هذا الخطر فإنه لم يبد على أحدهم أنه سيهوي إلى أسفل أو أنه سيترك قالباً من الطوب ليسقط.

وأخبرتنا "لاورا" أن السعوديين لا يقومون بالأعمال الوضيعة فمن الممكن أن تجد سعودياً يقود كل أنواع السيارات من أجرة أو سيارة اسعاف أو نقل ولكنه لا يقوم بشحنها أو تفريغها ولن تجد سعودياً يحفر أو يحمل الطوب لأنهم هنا يعتبرون هذه الأعمال حقيرة الشأن. ويشكل الأجانب حوالي 70% من السعودية، فيوجد هنا تقريباً مليون ونصف مليون عامل من اليمن وباكستان ومصر وكوريا الجنوبية والسودان. ولا يوجد لهؤلاء أماكن إيواء مناسبة[2]... ثم أشارت إلى مجموعة من الخيام وعشش بائسة من الصفيح والورق والكرتون يعيشون فيها بلا كهرباء أو دورات مياه، ثم أردفت: فالمقاولون يستوردون مجموعات كاملة من العمال ثم يوزعون عليهم عملاً ينتهون منه في مهلة محددة، كما أنه غير مسموح لهم باصطحاب زوجاتهم وهؤلاء العمال يقضون هنا بعض سنوات ليدخروا أكبر قدر من المال ثم يعودون إلى أوطانهم، إنهم على قيد الحياة ولكنهم لا يعيشون.

---

[2] وصل عدد المساكن في الرياض عام 1976 إلى أكثر من 106 آلاف مسكن. أما عدد الطرق المسفلتة في السعودية فقد بلغ مجموعها أكثر من 18600 كيلومتر حتى عام 1978(المترجم).

بعد ذلك عرفت أنه لا يمكن مقارنة الإزدهار العمراني في السعودية بأي شيء آخر على كوكب الأرض، وبالرغم من أن السعوديين قد وضعوا خطة خمسية دقيقة وخصصوا مئة واربعة واربعين ملياراً من الدولارات لتنمية هذا البلد خلال هذه المدة إلا أنهم يفتقرون إلى التنسيق المركزي فترتب على ذلك القيام بأعمالها غير ضرورية أكثر من مرة وبإسراف فظيع.. فتجد مثلاً شركة لبنانية تقوم في اليوم الأول برصف طريق لم يعبد من قرنين، وفي اليوم التالي تأتي شركة كورية وتنزع الاسفلت وتركب كابلات التليفون، ثم تقوم شركة ألمانية في اليوم الثالث بتعبيد الطريق مرة أخرى، وكل عمل على حدة يقوم به مقاولون أجانب مختلفون ولا يشاركهم السعوديون في ذلك لا بالعمل ولا بالمشورة. على أنه من الجائز أنه لا يمكن تجنب هذا الإشراف الغير معقول في بلد انزلقت بين عشية وضحاها في بحر من الثراء الهائل.

ثم مرت الحافلة بجهاز ادار ضخم ابيض اللون يشرف على مكتب بريد قديم متهالك يستطيع أن يتصل منه المرء بأي جزء من العالم.

وهنا وتحت هذا الجهاز الضخم الذي يستعمل لاستقبال إشارات القمر الإصطناعي كان يجلس "الكتبة" واضعين ساقاً على ساق على سجاد صغير. ثم يأتي السعوديون الذين لا يعرفون الكتابة أو القراءة ليتكوروا أمامهم ويملون عليهم رسائلهم.

"كم يحوي هذا البلد من تناقضات عجيبة" كتبة للأمية يتجمعون أمام جهاز استقبال إشارات القمر الإصطناعي.

ثم مررنا بعد ذلك بفندق "أنتر كونتنتنال"، الذي كاد أن يكتمل بناؤه، ويقع في شارع فاخر يسمى شارع مذار، وهنا أيضاً يقيم البؤس والترف معاص،لقد ادت الهجرة من الصحراء إلى المدن إلى نشأة أحياء بائسة لا حصر لها وتسببت في انفجار سكاني.

فعلى بعد ثمانمائة متر من الفندق الراقي مجموعة من المساكن البائسة على تل رملي عظيم ويحيط بها قطعان من الاغنام ترعاها بدويات تلتف في السواد بينما على الجانب الآخر من الطريق تقوم فيلا أنيقة.

فجأة دوت صرخة: احترسوا.

كانت سيارة مرسيديس وكأنها وقعت من السماء تتجه بسرعة مائة وعشرين كيلو متراً تقريباً، في الإتجاه الخطأ، فانحرف سائق حافلتنا ــ والي كان الهدوء ذاته ــ فجأة واستطاع بذلك أن يمنع وقوع الاصطدام بالمواجهة.

كان راكب المرسيدس شاباً سعودياً، قد يبلغ من العمر الخامسة عشر، حيانا بيده مرحاً ثم ابتسم.

قالت لاورا: إن ذلك ليس غريباً، فحوادث السيارات التي تنتهي بالموت تتعدى حدود المعقول.. فلا يوجد إشارات مرور ولا رجال مرور والشباب يقود السيارات بدون رخصة. أو امتحان...إن السيارات مجرد لعبة.

وكان يرقد حطام ذو شكل غريب لسيارات تركت ببساطة على جانب الطريق وسيارات نقل مقلوبة ترفع إطاراتها الأربعة إلى السماء.. وكانت أعمدة النور كثيرة تملأ الطريق العريض وهي مقصوعة من النصف بشكل طريف كأعواد الكبريت وكنا نخلق في رحلاتنا الصباحية تسلية حزينة وهو أن نقوم بعد سيارات النقل المقلوبة وأعمدة النور المهمشة..."إنها المدينة التي حلت بسرعة غير منتظرة على هذا لبلد".

وصلنا بعدئذ إلى طرف المدينة، حيث كانت تمتد أمامنا الصحراء.

اصابني منظر مستشفى "الملك فيصل الخارجي" لأول وهلة بالرهبة. هنا في الصحراء العربية المقفرة التي تبدوا ,كانها ضربت بسياط من الريح يرتفع مستشفى فاخر من القرن الواحد والعشرين ذو خلفية من القرن العاشر.

هذا البناء الجليل المطل على صحراء لا نهاية لها.

كانت الواجهة الخارجية المتداخلة للمستشفى مبنية بحجارة عسلية اللون

وكانت تشكل مساحات ممتدة كالموج تقطعها فجأة زوايا تهتز بفعل الضوء والظل.

وفي ضوء شمس الصباح بدا البناء في نور خيالي محاطاً بكثبان الرمال الذهبية، كما لو كان سراباً يرتفع في شجاعة في مواجهة سماء زرقاء لا وردية.

****

مررنا من البوابة الرئيسية والتي كان يقوم على حراستها ثلاثة من الحراس وضابط يحمل بندقية. وأخبرتنا لاورا أن البندقية ليست محشوة وانها تستخدم للتهريب فقط.

وخلف البوابة مباشرة رأينا نافورة كانت بمثابة تحفة فنية، وكانت قاعدتها من الموزايك ومن منتصفها كان يرتفع الماء ثم يهبط كأقواس لطيفة بعضها على بعض وقد استغرق صنعها أكثر من عام وعلى حد قول لاورا فإنه كان يشكل مشهداً رائعاً في الليل عندما يسلط عليه بصورة دائمة أضواء متغيرة بالوان الطيف.

وكان الطريق المؤدي إلى المدخل الرئيسي طويلاً ومتعرجاً وكنا نمر بالعربة على مساحات خضراء ممتدة ذات بساط من الزهور الملونة وكانت تحتوي على نبت من مدغشقر دائم الخضرة ذي ألوان وردية وبيضاء وزهور الجازانيا من جنوب أفريقيا برتقالية وصفراء وأشجار الغار من الهند.

أما في الناحية الأخرى فكان ينمو الليلك الهندي وزهر الأولياندر والبوجينفيليا والياسمين الأبيض. كانت مساحات النجيلة ضخمة ومهذبة بعناية وتروى من خلال جهاز رش معقد.

لقد كانت فردوس حقيقي في قلب الصحراء.

وقفت الحافلة أمام المدخل الرئيس ثم قادتنا لاورا إلى بهو استقبال أنيق واسع. يغطي أرضه السجاد الوثير ذو اللون الأحمر القاني. أما الجدران فكانت مغطاة بالمخمل ذي النسيج الناعم جداً والخضر، على نقيض المستشفيات الأمريكية التي تجهز بالتكاليف الاقتصادية في العادة.

وعلى مقربة من المدخل كانت تعلق صورة موازيك للملك فيصل من اللازورد، الحجر الكريم الأزرق اللامع.

أما العيون الغائرة فكانت من قطع الماس الصغيرة المضيئة قد أوضحت لاورا لنا أن صور الملك وولي العهد هي فقط التي يسمح بعرضها في العلن.

أما السلم المفضي إلى الشرفة فكان من الرخام وكانت الشرفة جذابة ذات سور من الخشب والزجاج البلكسي[3] يحيط ببهو الاستقبال.

كدت أنا وأصحابي لا نصدق أعيننا بعد الصدمة التي أصابتنا في فندق اليمامة عندما رأينا غرفنا هناك.

اتبعنا مرشدتنا التي أخذتنا في دورة قصيرة لترينا تجهيزات المستشفى بدءاً من مركز الكمبيوتر المعقد حتى نظام تكرير الماء وجهاز الترشيح ومحطة الكهرباء الخاصة بالمستشفى فلما كانت الرياض تتميز بانقطاع الكهرباء المتكرر، فإن هذا الجهاز المستقل كان ضرورياً لتزويد أجهزة المستشفى المنظمة للحرارة والرطوبة والحافظة للحياة بالكهرباء الضرورية.

كان المستشفى حقاً مدينة قائمة بذاتها. وكانت الإدارة بحق، تطلق عليه مدينة المستشفى. فقد كان له عربات الإسعاف الخاصة به وعربات مطافئ وقوة أمن كبيرة.وكانت توجد أيضاً محطة تلفزيون في المستشفى وشبكة فرعية لنشرة الأخبار تعمل بالإلكترون. وقد أخبرونا أن الحافلات الخاصة بالمستشفى تقوم بنقل العاملين بالمستشفى من منازلهم إلى العمل وتعيدهم مرة أخرى في جميع أنحاء الرياض وتذهب بهم أيضاً إلى وسط المدينة لشراء احتياجاتهم وأحياناً تقوم برحلات مشاهدة.

أما مركز "قضاء وقت الفراغ" فكان يعرض أفلاماً أسبوعية وينظم لعب البريدج ومسابقات في التصوير والتنس "وكورسات" في الطهي واللغات وكذلك عروضاً مسرحية. وقد أعجبت في خلال هذا الطواف بالنوعية والمستوى العالي لأجهزة المستشفى فكانت أفضل أجهزة رأيتها وتتفوق على

---

[3] نوع من الزجاج لا تتطاير شظاياه (المترجم).

مثيلاتها بكثير. وكانت تضارع أي مستشفى في الولايات المتحدة بل كانت تتفوق عليها في الأجهزة الخاصة بعلاج السرطان وأجهزة رسم المخ والجسد.

ولهذا فإن تكاليف أقلمة هذا المستشفى بلغت أكثر من ثلاثمائة مليون دولار.

وحتى يحافظ السعوديون على حالة هذه التجهيزات المعقدة فقد قاموا بتعيين عدد من الفنيين المتخصصين، كان معظمهم أمريكان أو إنجليز وصلوا خال الشهر الماضي، أما الهيئة الطبية من أطباء وممرضات فكانت قد جاءت من جميع أنحاء العالم لتكون نواة جماعة طبية عالمية في قلب الصحراء العربية.

لقد كنا جميعاً إحدى النتائج المباشرة لثراء السعودية البترولي. ويقارب ذلك الأعجوبة لما نفكر في أن أحدث الانجازات لهندسة الطب في العالم كله حملت إلى مجتمع كان، لمدة أقل من جيل، يتمثل لنا في مجتمع من البدو البدائيين.

****

ــ السيد الدكتور جراي!

ــ نعم

انتزعت نفسي من أفكاري ببطء ونظرت إلى وجه علته الحيرة لأحد الممرضات ترتدي زي المستشفى المكون من معطف وبنطلون.

ــ سيدي الدكتور جراي ــ آسفة لإزعاجك ولكن دكتور كومبيتون يريدك حالاً وأخشى أن تكون الحالة مستعجلة. فتبعت الممرضة كارهاً خلال متاهة من الممرات.

بعد قليل دلفت إلى مكتب الدكتور هيج كمبيتون، رئيس قسم الشؤون الطبية الذي كان يجلس خلف مكتب جميل مصنوعاً من الماهوجني وعليه كانت تختلط الأوراق والملفات. كان كمبيتون رجلاً وجيهاً في بداية الخمسينات من عمره أنيقاً وكان يبدو عليه التوتر. وقف وحياني ثم قال:

مرحباً بك في المستشفى ثم صافحني وناولني مقعداً.

ــ يؤسفني أن أضطر لازعاجك خلال مشاهداتك الأولى،

ولكن عندنا مشكلة خطرة ونحتاج لمساعدتك. هل سمعت عن الأمير يوسف آل سعود.

فأجبته: في الستين دقيقة الأخيرة لا.لأنني وصلت اليوم فقط.

فقال د. كمبيتون بدون أن يلتفت إلى ملحوظتي:

إنه واحد من أعظم الرجال في كل المملكة.

إنه واحد من أبناء عم الملك خالد وهما صديقان حميمان. وعلى حد معرفتي يذهبان معاً لصيد الصقور.

على كل حال فقد أتى الأمير يوسف صباح اليوم إلى المستشفى لمعاناته من نزيف حاد في منطقة المعدة والأمعاء.

أخذ د. كمبيتون ملفاته واطلعني على التفاصيل. كان الأمير يبلغ الستين من عمره مصاب بالسكر ويعاني من إرتفاع ضغط الدم.

ولم يتوصل بعد إلى أسباب النزيف وقد أعلن الجراحون أن إجراء عملية تشكل خطراً على حياته.

ثم أردف بنظرة متعاطفة: إن ذلك من تخصصك وأني أود تكليفك بهذه الحالة. وسوف تكون المسئول المباشر عن رعاية الأمير.

كنت أتوق أن أقول: "ألست متعجلاً في هذا الأمر بعض الشيء. لقد سافرت حول نصف العالم ووصلت لتوي.وأنا لا أعرف المستشفى ولا اللغة ولا المجتمع ولا الناس. وكل شيء هنا غير مألوف بالنسبة لي".

ولكني لم أقل شيئاً.

أعطاني د. كمبيتون التقرير ونظر اليَّ في شيء به احتجاج وقال: إنه حالة طبية وسياسية وكما تعرف فإن المستشفى بدأت عملها ولم تستأنف الا من قليل ولكنك لا تعرف أن للملك بعض التحفظات علينا ولذلك فإن هذه الحالة هي نوع من الحكم على الحالات القادمة.

وفي العادة كان الأمير سينقل في الطائرة إلى لندن وما زالت الأسرة المالكة تضع ذلك في اعتبارها.

ولا بد أن نقنع الملك بأن هذا المستشفى سيواصل مهمته، فإذا شفي الأمير فإن ذلك سيفيدنا. أما إذا حدث العكس إما سنفقد دعم الملك ومن المحتمل ايضاً المستشفى.

ثم فاجأني بسؤاله: على فكرة هل أفرغت متاعك؟

ــ ليس بعد.

ــ حسناً، لا تفعل ذلك. فإنه إذا لم يتم شفاء المريض فإنهم سيرجونك ان تغادر البلاد. فهذا هو المألوف هنا.

نظرت إليه غير مصدق لكنه كان جاداً كل الجدية فيما قاله.

وعندما هممنا بالوقوف قال د.كمبيتون:

ــ من المحتمل أن يأتي الملك خالد إلى هنا اليوم ليزور الأمير. وأطلعني بإستمرار عن مجريات الأمور وإذا اتجهت إلى شيء، فلا عليك إلا أن تخبرني به. حظ سعيداً سيد "سيمور".

ثم فتح باب مجاور لمكتبه وقدمني إلى سكرتيرته. كانت جانيت باورس امرأة جذابة، رشيقة ذات شعر يشوبه البياض وعيون سوداء وكانت مبتسمة على الدوام. وكانت ترتدي فستاناً "بيج" يصل إلى كعبها، ذا أكمام طويلة وتتحلى بعدة عقود ذهبية.

حيتني مبتسمة وقالت بالعربية:مرحباً.

فقلت لها أيضاً مرحبتين.

كان كل منا يدرب الأخر على ثروته اللغوية العربية والتي كانت تتكون من ثلاثين كلمة وتعبيراً من الحياة اليومية والتي أخذناها من صفحة (4) من كتاب الإرشاد الذي تسلمناه.

وحتى لا تتفوق عليّ غامرت واضفت أيضاً بالعربية: كيف حالك.

فردت علي بالإجابة المألوفة بسرعة: الحمد لله.

فقلت لها مندهشاً: إن لغتك العربية لا غبار عليها.

فضحكت وقالت: صحفة (4) زائد ثلاثة ساعات أسبوعياً في مركز "وقت الفراغ".

****

قادتني جانيت إلى "عنبر ب ــ 2" حيث عرفتني هناك على ممرضة إنجليزية تدعى "آن جونسون". التي أرتني العنبر وشرحت لي كيفية استعمال بعض الأشياء في المستشفى. كان العنبر يتكون من خمسة وعشرين غرفة منفردة كان كل منها مزوداً بتلفزيون ملون وسلسلة من الأجهزة الكهربائية.

ــ ألا يوجد هنا غرفة مزدوجة؟ لا بد أن السعوديين يهتمون جداً بجوهم الخاص.

قالت الممرضة "آن": وجود غرف مزدوجة في هذا المستشفى من ضرب المستحيل، ولتنتظر حتى ترى جيوش الزوار، والخدم الذين يحملون الطعام والعائلات التي تحرس السرير أربع وعشرين ساعة. ولقد احتفظ الأمير يوسف بالغرفة المجاورة له من أجل أقاربه ومعارفه وها نحن أمام غرفة "ب 210" وغرفة "ب 212".

كان يقف أمام الباب حارس زنجي فاحم السواد أصله حبشي يحمل في نطاقه خنجراً كبيراً مقوساً. وقد أعجبني من ملامحه الكريمة تعبير الفخر الذي ينطق به وجهه.

قالت الممرضة: "طبيب جراي". فأحنى رأسه وأفسح لنا الطريق.

ثم قالت لي إن هذا الرجل يحرس الغرفة ليل نهار وينام على الأرض.

دخلنا على أطراف اصابعنا الحجرة التي كانت مظلمة بعض الشيء.كان الأمير نائماً في هذه اللحظة وكان يغطي شعره الأبيض بطاقية مغزولة. كان يبدو عليه تقدم السن والإجتهاد. وكان خادمه في الخمسين من عمره تقريباً يقبع في حياء بجوار سريره وكان شاب في زي أبيض لا تشوبه شائبة حليق الا من شارب صغير يحضر في هذه اللحظة فرش السرير وكان يبدو لبنانياً.

قالت الممرضة آن: كمال، هذا هو د. جراي وهو سيحتاج اليك في الترجمة.
اعتقدت أنها تخيلت ذلك بالأمر الهين ففي موقف مثل هذا يكون تقرير تفاصيل الإصابة بالمرض أهم من الفحص ذاته. فإن الإختيار الصحيح للكلمات والنبرات يلعب دوراً حاسماً في إقامة الصلة بين المريض والطبيب.
فالتوصل لمعرفة مسار المرض هو فن قائم بذاته.
على أي درجة يكون تقرير المرض الذي سوف أتوصل إليه بمساعدة مترجم لبناني يتكلم العربية مع سعودي ويترجم ذلك إلى الإنجليزية لأمريكي وصل لتوه إلى بلد غريب.
صافحته وقلت له: إنني أحتاج فعلاً إلى مساعدتك يا كمال، من أي بلد أنت؟
ــ من لبنان. إنني مساعد طبي فني.
"إنه واحد من اللبنانيين الذين هاجروا الى السعودية أثناء الحرب اللبنانية".
ــ ألا أيقظت الأمير بحرص يا كمال فنحن في حاجة إلى تفاصيل دقيقة عن مرضه.
ربت كمال على كتف الأمير. فاستيقظ في الحال ونظر أولاً إلى خادمه الذي طمأنه، ثم نظر الينا وقد أتسعت عيناه ثم قال للخادم: ميه [4] (ماء). فأحضر له كوباً ثم سنده بينما كان يرشف الماء ببطء من خلال شفاهه.
فاعتقدت أنه فقد كثير من السوائل.
كان الأمير ممتليء الجسد ذا ملامح نبيلة وفي بداية الستين من العمر ويبلغ طوله مائة وثمانين سنتيمتراً وله الأنف العربية المميز وشفاه ممتلئة واللحية والشارب المهذبان بعناية.
وكان ذا عيون سوداء وبشرة سمراء كانت شاحبة، تقترب من البياض مما يشير لفقدانه الدم.
كان من الواضح للعيان أنه مريض جداً. فكانت حبات العرق تنزل على جبهته وملامح وجهه كانت تبدوا منهكة. وكان يتنفس بسرعة وبفم مفتوح.
تابعت كمال بصمت وهو يفصح للأمير بسرعة كبيرة باللغة العربية عن هويتي وعما أريد.
ثم بدأنا في طرح الإستفسارات، وبمساعدة كمال بالترجمة استطعت بسرعة أن أستلخص معلومات كافية لأخمن أن الأمير يعاني من قرحة نازفة. ثم عرفت أيضاً أن الأمير كان يأخذ النوفالجين وهو دواء يحتوي على الأسبرين الذي يزيد مثل هذه الحالات سوءاً.
رجحت احتمال إصابته بالقرحة ثم بدأت أسأل الأمير عن عاداته في الأكل ففاجأني كمال:
إنه يأكل بالطبع في المساء فقط. فإننا في رمضان وهو صائم.

---

[4] ذكرها المؤلف هكذا (المترجم).

تذكرت أنني قرأت عن رمضان الشهر الكريم، الذي يمتنع فيه المرء عن الطعام والشراب من شروق الشمس حتى غروبها.

ثم سألت: أليس صحيحاً أنكم تطلقون المدفع كل يوم لتعلنوا بداية ونهاية الصيام؟

ــ هذا صحيح. إن الأمير رجل ورع جداً. فهو لا يتناول الطعام أو الشراب طيلة النهار. ثم يأخذ النوفالجين في المساء ليخفف من الآم معدته.

ــ كم يوم صامه؟

ــ ثلاثة أسابيع،وباقي اسبوع.

ــ اليس هناك إمكانية تبيح له الأكل أثناء النهار.

ــ نعم، إذا كان مريضاً فإنه يجوز له الإفطار أثناء رمضان ثم يصوم بعد ذلك.

ــ كمال، قل للأمير إنني أخمن أنه مصاب بقرحة أو بإلتهاب في الغشاء المخاطي للمعدة. وسوف نكشف بالأشعة على المعدة للتأكد من ذلك. وأن المصابين بالقرحة لابد أن يأكلوا كثيراً. ومن المرجح أنه قد أصيب بالنزيف من جراء صيامه طيلة النهار في شهر رمضان وتناوله للنوفالجين في المساء، أخبر الأمير أنه سوف يشفى بالعلاج المناسب.

ترجم كمال ما قلته في صبر وبأسارير منفرجة.

وعندما انتهى من ذلك ابتسم الأمير ابتسامة وقال ببساطة: إن شاء الله، اكتشفت بسرعة أن "إن شاء الله" هي أهم كلمات اللغة العربية. وتعبر عن إيمان العرب المطلق بالقضاء والقدر: فكل شيء كتبه الله، وكله بيد الله وهم يقولون ذلك بطريقة آلية وإنما يؤمنون به ويعيشون طبقاً له فهو الذي يقرر حياتهم.

ــ من فضلك قل للأمير إننا سوف نكشف على المعدة بالأشعة بعد ساعة وسنجري بعض تحليلات الدم.

فسأل الأمير: ومتى آخذ الدواء، هل سيشفيني أخذ الأبر في الذراع وعمل تحليلات الدم.

ابتسمت وقلت له بالعربية: إنشاء الله. إن نقل الدم في هذه المرحلة سيكون أفضل وسائل العلاج.

وبعد أن ترجم له كمال ما قلت وأفهمه هذا الموضوع في بساطة وإسهاب، صافحته وشكرته كثيراً على مساعدته. أما الأمير فابتسم وقال لي: لقد أسعدني ذلك أيها الطبيب "جراي"

غادرت الغرفة وأخذت أهيم في المستشفى حتى عثرت على قسم الأشعة. وهناك قدمت نفسي لأخصائي الأشعة كان أحدهما إنجليزياً والآخر أمريكياً.

وبكل فخر أرياني القسم الذي جهز طبقاً لاحداث ما وصل إليه العلم. ولقد كان هذا هو أحدث قسم للراديولوجيا[5] رأيته في حياتي.

عدت أدراجي بعد أن أوضحت لهم حالة المريض والغرض من كشف الأشعة بعد الغداء، والذي كان يتكون من القهوة والقراقيش (لم يكن المطبخ قد أستأنف عمله حتى هذا الحين) عدت إلى قسم الأشعة لأرى الصور التي أخذت للأمير. وقد أكد لي مسحوق "الباريوم" أن الأمير يعاني من قرحة في المعدة يبلغ قطرها خمسة مليمترات. وقد كان ذلك شهادة بصحة تشخيصي.

عدت الى غرفة الأمير حيث وجدت ثلاثة من أبنائه يحيطون بسريره وكانوا قد قضوا طوال الليل في الغرفة المجاورة وظهر عليهم الإعياء والسهر. عرفني كمال بهم. كان سالم أكبرهم في حوالي الأربعين، ويبلغ طوله متراً وثمانين سم وكان بديناً وله اللحية التقليدية المهذبة بعناية وكذلك الشارب. وكان يرتدي معطفاً في لون الكريم مطعم بالذهب مما يشير إلى أصله الملكي.

كان للأمير وخمسة وعشرون إبناً كلهم تقريباً من نساء مختلفات. ومع أن الثلاثة لم يكونوا أشقاء الا أنهم كانوا متفاهمين.وعلى النقيض من أبيهم كانوا يتحدثون الإنجليزية بطلاقة.

سألني سالم وكأنه المتحدث باسم المجموعة: قل لنا من فضلك كيف هي حال والدنا. ان الأسرة منشغلة جداً وقد قضينا تقريباً طوال الليل سهارى. ثم اشار إلى أن الملك خالد قد اتصل أكثر من مرة تليفونياً، وكان هو أيضاً قلقاً على الأمير يوسف وأنه يصل خلال وقت قصير لزيارته.

فأخبرتهم أن السبب المحتمل للنزيف هو القرحة، وأن هناك احتمال قائم لشفائه بدون إجراء عملية. لكننا لم نستطع التأكد من ذلك تماماً. وأثناء ذلك سوف نقوم بعمليتي نقل دم لأبيهم ونعالجه بالدواء اللازم للقرحة وكذلك الغذاء المناسب. أثناء ذلك كان الأبناء يصغون اليّ في انتباه، ثم ضحك سالم وهز رأسه ببطء.

التفت إلى الأمير وعرضت عليه صور الأشعة وأوضحت له أن الدواء الذي تناوله أثناء صومه في رمضان هو الذي أدى إلى النزيف.. ثم قلت له: إن الصيام في حد ذاته يضر بالقرحة. ولابد أن نبدأ بالعلاج فوراً.

عندما ذكرت العلاج ابتسم الأمير ابتسامة عريضة وقال: كويس[6] (حسنا). طبعت هذه الكلمة بداية حوار بيننا كان لابد أن نبقي عليه طوال الإقامة في المستشفى. فلحسن حظي كانت هذه الكلمة من بين ثروتي اللغوية المحدودة. سألته (بالعربية) كويس؟ ثم صافحته.

فرد وقد تألق وجهه: جوود[7]. ثم أضاف بالطبع: إنشاء الله.

---

[5] علم استخدام الأشعة (المترجم).

[6] ذكرها هكذا المؤلف (المترجم).

ومنذ هذا الوقت فإنني كنت كلما سألت الأمير عن صحته كان يرد عليَّ بالإنجليزية "جوود"، سيَّان كان يشعر بتحسن أم لا ولكي يطمئن نفسه كان يضيف دائماً: إن شاء الله (بالعربية).

ولما كان الغذاء الصحي المخصص لمرضى القرحة يمثل جزءاً جوهرياً من العلاج فقد كانت الخطوة التالية تتلخص في أن تكون وجبة الغذاء الصحية من النوع الذي يمكن للأمير أن يلتزم به فتحدثت مع الطبيب المختص بذلك ورشحت له في البداية الأرز واللبن الزبادي ولبن الجمال أو الماعز أو الماء. فقد كان ذلك من أحب الأكلات إلى نفس الأمير. وبدا عليه الرضا على شرط أن يقوم خادمه بتجهيز الطعام وبإطعامه بالملعقة. ولم يشعر بالخجل لأن يطعم كالطفل. شاهدت هذا المنظر الطفولي لعدة دقائق ثم ذهبت.

وحالما دخلت الغرفة المجاورة أحضر لي هذا "العبد السابق" الذي يقوم بحراسة غرفة الأمير، قهوة بالفنجان، كان أعدها بنفسه.

جلست وتنفست الصعداء ثم أوضحت لأبناء الأمير أن هذا هو أول يوم لي في السعودية ولأنني راضي جداً عن التقدم الذي تحقق حتى الآن وقد بدت عليهم هم أيضاً علامات الإرتياح ثم سألوني عن مكان إقامتي في الولايات المتحدة ثم عرضوا علي كل مساعدة ممكنة وأعطوني أرقام تليفوناتهم فشكرتهم على ذلك.

سألني ناصر أصغر أولاد الأمير بفضول وبلكنة حادة: هل تحب سباق الخيل؟

ــ آخ، تجربتي في هذا المجال محدودة ولكني أشاهد كنتكي دربي في التلفزيون بسرور.

كما أن لي صديقاً مخلصاً يملك حصاناً كان سيكسب سباق دربي، كان هذا من عدة سنوات.كما أني حضرت عدة سباقات رائعة في الأرجنتين وشيلي.

ولما كان ناصر يقوم برعاية إسطبلات السباق الخاصة لوالده فقد قال: ممتاز، إننا نملك عدة من الخيل الأصيل وجمال السباق. وبعد أن شربنا مرة أو مرتين القهوة التي قدت لنا في أقداح صغيرة جداً من الصيني بدون آذان، قدم لنا الشاي في أكواب من زجاج خفيف للغاية. ولقد كان ممتازاً وحلواً جداً.

ولأن "العجلة من الشيطان" كما يقول العرب فإنني انتظرت لبضعة دقائق ثم شكرتهم وذهبت.

كان ذلك بعد العصر عندما وجدت أنه من الحكمة أن أخبر الدكتور كومبيتون بالموضوع الحالي لصحة الأمير.

ظهر عليه الارتياح وسألني إعداد تقرير ثم قال: أعطه لجانيت وسنقوم بترجمته إلى العربية ثم نرسله إلى قصر الملك. ولسوف تحتاج الى كتابة تقرير رسمي كل يوم عن حالة الأمير الصحية.

---

[7] حسنا: قالها الأمير بالإنجليزية على هذا النحو الممطوط (المترجم).

وأثناء ما كنت أملي التقرير على جانيت دخل دكتور كومبيتون الحجرة وقال: في السادسة مساء سوف يقوم الملك وولي العهد بزيارة الأمير يوسف وسوف نقوم بالترحيب بهما عند المدخل وأنا أود أن تخبر الملك بايجاز بحالة الأمير فاحتججت قائلاً: ولكني لا أملك معطفاً أبيض ولم أكلم بعد 14 ساعة في هذا البلد.. كما أنني مجهد تماماً.

لايهم، ضع سماعتك ببساطة في جيب قميصك. سأرسل لك قدحاً طازجاً من القهوة.

***

بعد أن أمليت التقرير نزلت ود. كومبيتون إلى مدخل المستشفى. وبعد قليل رأينا القافلة الملكية وهي تقترب. كانت أول سيارة عربة "جيب" أمريكية مفتوحة يوجد فيها جنود الحرس الوطني السعودي. وكانوا يرتدون الزي الكاكي والكالب الأحمر الزاهي، وكانوا يجلسون على جانبي العربة الجيب في مقابلة بعضهم البعض مسلحين بالرشاشات. ثم تلتها عربة "بونتياك" بنية اللون. أما الثالثة فكانت "كاديلاك" سوداء مصنوعة خصيصاً، تبعتها عربة "جيب" أخرى عليها مدفع رشاش وقناص يضع إصبعه على الزناد لكي يظهر أنه جاهز للضرب في أي وقت. بعد أن وقفت القافلة أمام المستشفى نزل من السيارة "البونتياك" أحد الملحقين العسكريين متوسط العمر ثم فتح باب السيارة الكاديلاك لكي يساعد الملك..وكان جلالة الملك "خالد" يجلس بجوار السائق.

ثم نزل ولي العهد الأمير فهد ولحق بأخيه الأكبر على الفور.

اتجه الإثنان إلينا حيث كانت جماعتنا تقف أمام المستشفى.

تقدم أحد موظفي المستشفى وحيَّا الملك والأمير باللغة العربية ثم قدمنا لهما، فقمنا بمصافحتهما ونحن نبتسم وصافح الملك والأمير كل المستقبلين ولكنهما لم يردا الابتسامة بالمثل.

كان الملك خالد والأمير فهد رجلين وجيهين للغاية وكان حجمهما أكبر بكثير من متر وثمانين سنتيمتراً وكانا يرتديا ملابس متشابهة تماماً فكان كل منهما يضع عباءة بيج بإطار مذهب على ثوبه الأبيض ذي ياقة "ماوية"[8]، وكانا يضعان على رأسيهما غطاء الرأس المألوف في السعودية والمكون من "الغطرة" ذات الكاروه الأحمر والعقال الأسود. وكان الإطار الذهبي على عباءتيهما هو نفسه الموجود على عباءات كل الأمراء وموظفي الحكومة الكبار. وفيما عدا نوع القماش الأفضل فإنك لا تستطيع التمييز بين الملك أو ولي العهد عن آلاف المواطنين في السعودية.

وأثناء ما كنا نخترق بهو الاستقبال الأنيق وندخل المصعد لم أستطع اكتشاف أي موظف أمن.. أما في المصعد فكنت أقف على بعد سنتيمترات من الرجلين اللذين سيمسكان بمصير اقتصاد العالم الغربي في أيدهما. أما الملك، الذي أجريت له عملية جراحية من وقت قصير، فكانت تبدو عليه

---

[8] نسبة إلى "ماوتسي تونج" (المترجم".

علامات الضعف بوضوح.. فقد ظهر وجهه الطويل الحزين خال تماماً من أي تعبير.. وبدا الرجل وكأنك تستطيع اختراقه وليس النظر اليه ويقال عموماً إنه رجل بسيط، لا يهتم كثيراً بالإطلاع، غير مثقف، خشن، وكان من أنصار التشدد والتزمت في الإيمان بالإسلام والقرآن ولا يأمل الا قليلاً في الأفكار الجديدة والفكر الحديث.

وعلى النقيض من خالد كان ولي العهد فهد، الأخ غير الشقيق للملك فكان يبدو صلب العود ممتليء بالطاقة حسن الطوية طيب القلب كما أنه يميل إلى البدانة ويعطي انطباعاً بالتحفظ والوقار.. وكان هناك شيء ما في سلوكه ينم عن طبيعته المرحة التي تظهر من حين لآخر والتي لا يمكن إخفاؤها تماماً، كانت عيونه سوداء ذات نظرات حادة تنفذ هنا وهناك.. بينما يحتفظ برأسه ثابتة.

وبدا لي، برأسه الكبير وبأنفه السامي المعوج وبعيونه المتطلعة النافذة ذات الحركة الدائمة، وكأنه صقر كبير ضخم كما كانت ترتسم ابتسامة خفيفة على وجهه كما لو كان على استعداد أن ينفجر في نوبة ضحك في أي وقت وقد شعرت أن مجلس الأمير سيضم كل الظرفاء بينما يجلس الملك في زاوية مع أخلص اصدقائه في ركن يتندرون بآخر الحكايات. كانت العلاقات بين الملك وولي العهد غريبة. ولكن هناك حقيقة تتضح من "ديناميك" العائلة السعودية وهي أن الإثنين متفاهمان تماماً.

وعندما قتل الملك فيصل في عام 1975 اجتمع زعماء آل سعود في مجلس عائلي سري لاختيار الملك الجديد. وعلى النقيض من التقاليد المتبعة في البلدان العربية فإن عرش السعودية لا يذهب آلياً إلى أكبر الأبناء وإنما ينتخب الثقاة من أفراد العائلة المالكة طبقاً للتقاليد البدوية وموافقة مجلس العلماء واحداً منم يعين ملكاً. وبالنسبة لخالد فقد اختير ملكاً بالرغم من وجود اثنين من إخوته أكبر منه سناً، في نفس الوقت اختير فهد ولياً للعهد ووريثاً للعرش.

كان خالد وفهد خليفتين نشطين للملك فيصل.. وكان خالد البدوي المحافظ محبوباً للغاية من زعماء القبيلة وكانت هناك ثقة في زعامته لدعم العناصر المحافظة في المجتمع السعودي في الوقوف في وجه المبادرات التقدمية للحكومة.

وعلى النقيض من ذلك كان فهد ذا اتجاه محدث جداً وغربي وكان غالباً ما يحبذ التغيير في المجتمع السعودي بدءاً من التحول الصناعي الضخم مروراً بليبرالية الحياة الاجتماعية وانتهاءً بمنح حريات أكبر للنساء وكان فهد بسبب تأخر صحة خالد يقوم يومياً بإنجاز معظم أعمال الحكومة وكان ينظر إليه على أنه الزعيم الحقيقي للسعودية ولكن جماهيرية خالد كانت حاسمة بالنسبة للموافقة على خطط فهد الطموحة. وكان خالد يؤثر بصورة قاطعة في كثير من قرارات فهد. كان التباين بين الرجلين يظهر حتى في الحياة الشخصية فكان خالد، البدوي يحب تربية الصقور وكان غالباً ما يذهب للرحلات الخلوية في الصحراء مع أنصاره البدو.. أما فهد فكان اجتماعياً مثقفاً ثقافة شاملة

فيما يختص بحضارة الغرب والحضارة الإسلامية. وكان غالباً ما يسافر في عطلته إلى غرب أوروبا..

والان وأنا أقوم بمصاحبة الملك وولي العهد في زياراتهم للأمير يوسف أعجبت بثقتهما في نفسيهما وبأناقتهما السلسة الا أنهما بديا وكأنهما نسيا الوقت وكان هذا إحدى العلامات المميزة للمجتمع السعودي أثناء ما كنا نمضي في الممر كان يجري بعض السعوديين ــ أقارب المرضى ــ صوبهما ويلمسون ثوب الملك والأمير بشفاههم مظهرين بذلك ولائهم تجاه الأسرة المالكة، ولكن الملك وولي العهد كانا يسيران بنفس الخطى بدون أن يلتفتا إلى مظاهرة الولاء هذه.

عندما وصلنا إلى غرفة الأمير يوسف فتح الحارس الدائم ذو الخنجر المقوس الباب وقادنا إلى الداخل كان الأمير يوسف شاحباً وضعيفاً ولكنه لما رأى الملك بدا وكأن الحياة دبت فيه من جديد.. اقترب الملك خالد من السرير وحيا الأمير وقبله على جبهته مبدياً الفرح. وحذا ولي العهد حذوه فقبل الأمير على خديه وعلى صدره من ناحية قلبه.

بعد أن انتهت التحيات جلس الزائران الملكيان وأخذا يتجاذبان أطراف الحديث مع أن عمهما. وروى لي كمال،الذي كان حاضراً هذا الحديث، أن الثلاثة تحدثوا باستفاضة عن حالة الأمير الصحية وعن تشخيصي .. ولما ضحك الأمير يوسف من أنني كنت أحلت ذنب إصابته بالقرحة الى رمضان التفت اليَّ ثلاثتهم والقوا عليَّ نظرة خاطفة أحرجتني، بسبب عدم إلمامي بالعربية، عن أطواري.

وبعد حديث قصير مع الأمير وقف الملك والأمير وغادرا الغرفة وقاما بمصافحة أبناء الأمير يوسف بحرارة وجلسا في مقعدين مريحين للغاية وتحدثا معهم لعدة دقائق..ثم التفتا تجاهي مباشرة لأول مرة واستفسرا عن حالة الأمير الصحية. وبينما كان كمال وسالم يتبادلان القيام بالترجمة كنت أسرد بإيجاز حالته مجملاً. وعندما انهيت من ذلك سألني الملك إن كان متعباً. فأجبته بأنه من المحتمل أن تزداد حالة النزيف سوءاً بسبب نقل الأمير وأنني أرى أن الرعاية الطبية والأجهزة المعملية المتوفرة حالياً في المستشفى تضارع بالتأكيد مثيلاتها في لندن.

ثم تخيلت خلفي د.كومبتون وهو يبتسم مرتاحاً لإجابتي.

سألني ولي العهد عن طريق المترجم:وماذا يحدث لو اتضح ضرورة إجراء عملية.

ــ ينبغي تجنب العمليات بقدر الامكان بسبب ارتفاع ضغط الدم وضعف قلب الأمير.. ولقد أستشرت أحد الجراحين الإنجليز العاملين في مستشفانا هذا. وأنا على يقين من أنه كفؤ تماماً مثل أي أخصائي جراحة في لندن.

ــ هل ترغب أن نحضر طبيباً إستشارياً من إنجلترا أو الولايات المتحدة سيتم هذا بسهولة عن طريق سفارتنا.

ــ إذا كنتم ترغبون في هذا، فإن لدي خبرة طويلة في معالجة المرضى الذين يعانون من مثل هذه المشكلة ولكن إذا كنتم تريدون إضافة رأي خبير آخر فأنني أرشح لكم بسرور واحداً.

فقال سالم: إن للملك طائرة بوينج 747 مجهزة للطوارئ الطبية وتستطيع إرسال هذه الطائرة إلى الخارج لحمل أي طبيب أستشاري تريدون وإذا اقتضى الأمر فأننا نستطيع إرسال الأمير على هذا النحو إلى لندن، ولكني أكدت لهم أكثر من مرة أنني لا أرى ذلك ضرورياً الان، على أنني سوف أضع هذا في الحسبان لو ازدادت حالة الأمير سوءاً.

تشاور الملك والأمير لبرهة بصوت خفيض ثم نهضا واقفين معلنين بذلك عن رغبتهما في الذهاب.

مضينا صامتين في طريق العودة بخطى بطيئة هادئة رزينة.

اصطحبنا الزائرين الملكيين حتى خارج المستشفى وهناك انضما إلى الحرس العسكري.. وبعد وداع بسيط ركبا الكاديلاك وذهبا مع موكبهما. وأثناء عودتنا سألني د. كومبتون: ما مدى خطورة حالة الأمير.

ــ إنها حرجة ولا بد أن يكون له رد فعل على العلاج.. ولكن في حالة هذا النوع من المرض فأن نسبة الوفاة تبلغ عشرة في المائة.

ــ هل أنت متأكد أننا لسنا بحاجة إلى إرسال الأمير إلى لندن؟

ــ إن هذا لن يغير من الأمر شيئاً فالتجهيزات هنا ممتازة ومن الممكن أن يموت ببساطة في لندن تماماً كالحال هنا.

ــ أعرف ذلك. ولكن إذا مات في لندن فأن الملك سيحل الذنب على مستشفى لندن.. أما إذا مات هنا..!وترك د. كومبتون بقية جملته معلقة في الهواء، ذهبنا صامتين إلى المصعد ثم قال لي قبل أن يصعد آمل أن نقوم بعمل الصحيح السليم.

ــ وأنا أيضاً آمل ذلك.

ابتسم لي ابتسامة خفيفة ثم قال لي صادقاً إنشاء الله من الأفضل أن تعود لبيتك وتستريح بعض الشيء فلقد كان يوماً مجهداً.

ــ إلى اللقاء يا هيج.

في الخارج داعبتني نسمة حارة بدت وكأنها تهدىء بعض الشيء من توتر هذا اليوم.

وفي الممر كان هناك سائق يقود سيارة "بويك" خضراء خاصة بالمستشفى ويسأل عن "طبيب جراي". دلفت ممتناً إلى مؤخرة السيارة. كان السائق سعودياً يعمل في قسم النقل بالمستشفى وكان

يضع نفسه تحت التصرف في الحالات الطارئة وإذا تطلب الأمر فإنه سوف يحملني في الليل إلى المستشفى.

أدركت أن ذلك كان من ترتيب جانيت.

ولكني سألت نفسي عن كيفية وصول إخطار من المستشفى اليّ فلا يوجد تليفون في غرفتي بالفندق ولا أي جهاز لاسلكي بل بواب الفندق فقط والذي لا يهتم بأي شيء.

دغدغ التكييف وأزيز الموتور أحاسيسي فنمت طيلة رحلتنا إلى الفندق.

****

وفي اليمامة كان أصحابي قد قاربوا على الإنتهاء من الطعام وكانت مفارش المائدة لا تزال متسخة والذباب على عهده المزعج وكانت الوجبة تتكون من لحم ضأن لا طعم له وأرز ولكن "ماء سوهات" البارد كان يجري في حلقي كالشمبانيا، أما الحلو فكان بلحاً لذيذاً.

وبالرغم من أنني كنت مجهداً الا أن الحياة دبت بعض الشيء في أوصالي أثناء الأكل.

بعد الأكل أخبرت البواب أن المستشفى قد تتصل بي لأمر ضروري.

ولكن البواب، مصري الجنسية، بدا وكأنه يهتم أكثر بمطالعة جريدة كانت بيده.

فرجوته: الا سجلت من فضلك رقم غرفتي؟

فقال: إني أتذكرها..

ــ أكتبها من فضلك.

فكتب البواب في ضيق واضح رقم الغرفة ولكن خطأ.. فقلت له: أهكذا!!. ثم أخذت القلم وكتبتها بنفسي.

ــ هذه حجرتي، فإذا ما طلبني أحد أيقظني.

ــ لا تحمل هماً.. ثم خبط على جبهته وقال: آه..لن أنسى.

جررت قدمي على السلم مرة أخرى ودخلت حجرتي وأغلقت الباب خلفي كانت حجرة لا أحسد عليها وكان جوها حاراً وخانقاً أما لون الحجرة الباهت القديم فلا يزال قبيحاً ولكني الآن كنت قد ألفته بعض الشيء.

الفصل الثالث

ملك يحطم التقاليد

ولدهشتي العظيمة فإنني لم أستيقظ مع أذان الفجر، هل فات عليَّ نبأ هام من المستشفى. قلت لنفسي أثناء ما كنت أتمتع باخذ حمام هانيء:

عدم وجود أخبار في حد ذاته خبر طيب وبعد الفطور الذي كانت الزبدة الزنخة والذباب المزعج من علاماته المميزة، أخذت الحافلة في السابعة والنسف ذاهباً إلى المستشفى. وكانت نظراتي مثبتة على عربات النقل المقلوبة والسيارات المهشمة ومصابيح الشوارع المكسورة والتي تملأ الشوارع فقد أصبحت الأنقاض والقمامة جزءاً من صورة المدينة. ثم أنني أخذت أحاول تجاهل الصخب ــ الذي يصم الآذن ــ والمنبعث من ابواق السيارات الواقفة في الشوارع المختنقة. ثم بدت صحراء لا يشوبها شائبة، هادئة جليلة. بدت الصحراء و:انها تحتقر هذا الدنس الآتي إليها من المدينة.

أما المستشفى فكان يلمع من النظافة ولكنه بدا في الصباح وكأنه متأفّف.

ذهبت مباشرة إلى غرفة الأمير، فألفيته شاحباً ضعيفاً ولكنه كان متوقفاً عن إفراز العرق. وقد بلغت سرعة نبضه المائة كما في الماضي، أما ترسيب دمه فكان أفضل. كما أن ضغط دمه ارتفع بعض الشيء.

كانت هذه كلها علامات تمنح الأمل

دخل كمال الغرفة بهدوء وكان حليقاً، يرتدي ثوباً ابيض ناصعاً فرجوته أن يخبر الأمير أنه في طريقه إلى الشفاء. وانه لا يحتاج إلى نقل دم.

شددت على يد الأمير الضعيفة وسألته بالعربية: كيف حالك؟

كويس..؟

فانتزع الأمير ابتسامة مستخفة ثم قال: "جوود".

كان سالم قد قضى طوال الليل بجوار أبيه، فبدا غير حليق أشعث. وبادرني متسائلاً قلقاً: كيف حالته؟

ــ أفضل كثيراً فكل ما يحتاج إليه الآن هو الراحة والهدوء ولا بد أن يؤدي الدواء والغذاء الصحي إلى شفائه من القرحة ولكن يحتاج إلى وقت.

ثم ابتسم وقال: لقد اتصل الملك صباح اليوم وتحدث مع أبي وسأل عني ليتأكد أنني موجود هنا، فالملك يعرف معنى الأواصر العائلية.

صافحته ثم ذهبت بعد أن نصحته بالنوم.
بعد بحث طويل عثرت على مكتب د. كومبيتون ثم أمليت جانيت تقريراً طبياً قصيراً ووعدتني بترجمته إلى العربية وإرساله إلى القصر خلال ساعة. ثم أعطتني قائمة بالعنابر التي ينبغي عليَّ زياراتها ثم قالت لي:
قبل كل شيء لابد أن تتوجه إلى قسم الأمن ليلتقطوا لك صورة ولتحصل على بطاقتك وتصريح للمرور من البوابة الخارجية.
ــ آه، إنني أتذكر الحارس المسلح على البوابة.
ضحكت قائلة: كلنا نعرف أن بندقيته غير محشوة.
هل تعرف أن لدينا تسعين موظفاً للأمن يرتدي معظمهم الملابس المدنية حتى لا تستطيع التعرف عليهم.

****

بدا قسم الأمن كخلية نحل، فالعاملون الجدد يتم تسجيلهم واستخراج شارات الخدمة والهوية لهم وتصويرهم.
كان رئيس الأمن أمريكياً ذا تجارب كثيرة بالخارج وأخبرني أن معظم الرجال الذين يقومون بالحراسة من السعوديين أما الباقي فيتكون من الخبراء الأمريكان والانجليز.
بعد الانتهاء من عملية الاجراءات هذه توجهت لمشاهدة قسم تاريخ الأمراض كانت هناك امرأة سمينة في حوالي الخمسين من عمرها تحتل مكتباً متخماً بالملفات والأوراق والكتب والى جانب رئيسة قسم التمريض كانت هيلين المرأة الوحيدة التي ترأس قسماً. وكانت مسؤولة عن كل تقارير الأمراض وكل ترجمات الوثائق.. قالت بنبرة اميريكية واضحة:
أهلاً إنني أعرفك عن طريق هذه التقارير (الطبية) التي ترجمت هنا. يالها من بداية؟
ــ آه، إنني على كل حال مستعدة لترجمة التقارير الطبية لمرض الأمير في حالة إذا ما كنتم سترسلونه إلى لندن.
ــ لا تنشغلي بذلك.
كانت هيلين من كاليفورنيا. ولما كان مكتبها يقع في شرفة بهو الاستقبال الرئيسي وكانت كل التقارير الطبية ومعظم المراسلات من الخارج تمر عليها، كانت على علم بمجريات الأمور في المستشفى أكثر من أي شخص آخر بما في ذلك قسم الأمن. وقد عرفت بسرعة أن المكان هو المصدر الأول الذي يحصل المرء منه على الأخبار والمعلومات.

****

كانت محطتي التالية هي مكتب النقل والسفر والجوازات والتأشيرات.
كان موسى، الإفغاني الأسمر الطويل الرشيق والوجيه، مكلفاً بأداء هذه المهمة غير مشكور.
وعلى الفور بدأ يشكو من هذا الزحام غير المنظم في مكتب جوازات الرياض ومن أن الجوازات التي يرسلها إلى هناك غالباً ما تختفي .
وأخبرني أن هناك ألف وستمائة فرد يعملون في المستشفى يحتاجون في كل مرة يغادرون فيها البلاد إلى تأشيرة خروج ودخول. ثم أضاف بإشفاق:
ــ أنك تستطيع تصور هذا الرعب، إذا ألغينا سفرهم لأن جوازاتهم لا نعرف طريقها إنني سأصاب بالقرحة بسبب ذلك.
وعندما هممت بالرحيل سألني: كيف حال الأمير، هل ستسافر معه الآن؟ أخبرني بذلك قريباً حتى أدبر تأشيرة الدخول. فشكرته على ذلك.
وصلت الآن سنترال التليفون. والذي يدار بواسطة ثلاث نساء يتكلمن الإنجليزية والعربية والفرنسية،
كان السنترال مزوداً بدائرة تليفزيونية مسجلاً على شاشتها كل المائتين وخمسين غرفة. حتى المرضى يمكن أن تظهر صورهم على الشاشة.
وكانت موظفة تجيد اللغتين تقوم بالإشراف على الشاشة طول الوقت. وهي تستطيع التعامل مع المرضى مباشرة. ونقل رغباتهم وطلباتهم إلى الممرضات المتخصصات.
وكان عامة المرضى ذوو الحالات الخطرة فقط هم الذين يكونون تحت الملاحظة الدائمة.
أما قسم العناية المركزة وعنبر مرضى القلب فقد كان مخصصاً لهما دائرة تليفزيونية خاصة.ولما كانت أجهزة اللاسلكي لم تصل بعد، فإن كل اتصال كان يتم عن طريق التليفون. وكان موظفوا التليفون لبنانيين أو مصريين. تستطيع أن تتخيل نفسك وانت في سنترال التليفون وكأنك في برج بابل وأحياناً عندما كان يصل تليفون طارئ من الخارج كان السنترال يتحول إلى مستشفى للمجانين:
كانت الساعة الحادية عشرة صباحاً عندما عدت لأطمئن على الأمير. عرفني الحارس وحياني، وكان الخادم يجلس على سرير الأمير ويطعمه بالملعقة أما كمال فكان يرتب الغرفة، وكان الأمير يبدو منشرحاً.
أما الرسم البياني فلم يسجل أي تغير فيما يخص وظائف الجسم الهامة.
سألني الأمير بتلقائية: جوود؟
فأجبته أنا: الحمد لله.

ثم تحدث الأمير إلى كمال الذي قال لي:
الأمير يسأل: متى سيسمح له بكمية أكبر من الطعام؟
قلت له: إن سيحصل على كمية أكبر من الطعام في خلال يوم أو يومين عندما يتوقف النزيف تماماً. وأن انفتاح شهيته دليل قوي على تخطيه لمرحلة الخطر.
فقال الأمير بفرح: إن شاء الله.
دق الباب، ثم قالت الممرضة آن:
اتصلت جانيت من لحظات وقالت إن الملك سيحضر إلى هنا في خلال عشرين دقيقة، ود. كومبيتون يريدك ان تقابله عند المخل الرئيسي في نفس مكان الأمس.
فتمتمت قائلاً: كنت أعتقد إنه سيأتي في السادسة.
ــ أحياناً يأتي في السادسة قبل صلاة المغرب وأحياناً يأتي في الحادية عشرة أو الحادية عشرة والنصف قبل صلاة الظهر وذلك حسب جدول أعماله وهو لن يبقى طويلاً اليوم فإننا قاربنا على الظهر.
كان د. كومبيتون ورجل آخر يقفان عند المدخل الرئيسي للمستشفى ينتظران الملك.
عرفني كومبيتون على فرانك تايلور مدير الإدارة.
كان حجم تايلور كلاعب كرة قدم سابق[9]، يبلغ مائة وتسعين سنتيمتراً ويزن مائة وعشرين كيلو جراماً كان يبدو عليه أنه سينفجر في أي وقت من فرط
السمنة وكان في الأربعين من عمره وكان يتمتع بسمعة المدير القاسي والمنظم الذي لا يعرف التراجع. قال تايلور: إنني سعيد لوجودك هنا، إن حالة الأمير تمثل لنا أهمية قاطعة.
وكما تعرف فأننا لم نفتتح المستشفى إلا من عدة شهور قليلة فقط، والملك يشك في قدراتنا. وبالرغم من أنه أجريت به عملية في القلب منذ وقت قصير في كليفالند إلا أنه لا يحب الامريكان،
وعلى النقيض من ذلك فإن ولي العهد صديق لنا وبدونه كانت ستتوقف هذه المستشفى عن الوجود فإذا بقي الأمير هنا ولم يتم شفاؤه فإن من الممكن أن يعني ذلك نهاية المستشفى ولن تمنح لنا فرصة أخرى.
تذكرت تحذيرات د. كومبيتون في اليوم السابق وقلت: إن ذلك يشملني أنا أيضاً فأنا لم افرغ حقائبي بعد. بعد دقائق قليلة أعلن الجنود ذوو الكابات الحمراء التي تلمع في الشمس عن وصول الملك وموكبه.

---

[9] كرة قدم على الطريقة الأميركية (المترجم).

شاهدت هذه المراسم مرة أخرى، التي جرت تماماً مثل الأمس اللهم إلا أن الملك وولي العهد كانا يركبان سيارة مرسيدس بنز سوداء وكان غطاء رأسيهما يختلفان. تصافح الجميع، ثم ذهبنا إلى غرفة الأمير، ودار حديث قصير كان الملك ينظر أمامه بفرح بعينين شاخصتين.

أما ولي العهد فكان ما زال يبتسم ابتسامته السلسة.

دخلا غرفة الأمير بينما دخلنا نحن الغرفة المجاورة قلقين.

وبعد حوالي عشرين دقيقة ظهر الملك وولي العهد ومعهما سالم:

كانت ابتسامة قد أخذت ترتسم على وجه الملك بينما ولي العهد يبتسم ابتسامة عريضة.

وجه خالد الكلام إليّ بينما كان سالم يقوم بالترجمة: يبدو أن حالة الأمير يوسف قد تحسنت.

أما ولي العهد فكان ما زال يبتسم ولكنه لم يقل شيئاً، ثم حدث شيء غير عادي فلقد ذهبنا جميعاً إلى المصعد على هيئة جماعة ولم نعد نجري خلفهما ببساطة، فأحياناً كان يمشي أبناء الأمير بجوار الملك وولي العهد وأحياناً بعض منا، كما تحكم المصادفة. كنا نمشي ببطء كالمرة السابقة ولكننا لم نلتزم بسرعة معينة، وعندما اتجهنا إلى بهو الاستقبال كنت أنا بجوار ولي العهد وفجأة التفت اليّ وسألني في إنجليزية متقنة:

كم تستغرق الرحلة بالطائرة بين واشنطون وبوسطن؟ فأجبته بنفس النبرة الهادئة:

حوالي الساعة، وهناك شركة تنظم رحلات دورية بين المدينتين.

ــ لم أزر بوسطون قط، هل هي مدينة كبيرة؟

تحدثنا عن بوسطون ونيوانجلاند على العموم ثم استفسر عن المدة التي يمضيها الأمير في المستشفى وإن كان سيصاب بالنزف مرة أخرى في المستقبل وعن الإجراءات الوقائية الواجب اتخاذها. وعند المدخل الخارجي صافحانا جميعاً.

ثم ذهبا في صمت ليلحقا بالقافلة الملكية التي كانت تنتظرهما، ولم يذكر شيئاً عن نقل الأمير إلى لندن. قال د. كومبيتون منشرحاً: من الواضح أن الملك راضٍ بالتقدم الذي حققه الأمير.

إن ذلك أول تحطيم لعادة إرسال كل أفراد العائلة الملكية المرضى إلى لندن للعلاج.

ثم قال تايلور في رجاء حار: "انشاء الله" تأمل أن يحقق الأمير تقدماً آخر. بعد ذلك روى لي كمال عما حدث في غرفة الأمير أثناء زيارة الملك: فقد قضوا معظم الوقت في الحديث عن حالة الأمير يوسف وقد قال الأمير إنه يشعر بالتحسن والقوة وقد أيَّده الأبناء في ذلك. ثم تحادثوا بعد ذلك عن القنص. مساء اليوم سأفرخ حقائبي.

الفصل الرابع

حياة الغربة

كنت أشعر بالإنشراح تماماً بعد ذهاب الملك، وكنت أشعر أيضاً بالفرح. فالأمير كان في طريقه إلى الشفاء ونحن أقمنا صلات بالأسرة المالكة، مما سيعود بالفائدة الكبيرة على المستشفى في المستقبل.

ولكن الجماعة المسرفة في التحفظ بالرياض كانت تقف للمستشفى بالمرصاد، لأنه كان يمثل تهديداً أجنبياً، كما أنه يقوم على إدارته كفار لهم اتجاهات معينة.

كان رجال الدين يعبرون عن معارضتهم للمستشفى أيام الجمعة في المساجد ولقد استطاعوا أن يحرزوا نجاحاً كبيراً في البداية.

وكان المستشفى سيحتاج إلى وقت طويل لكي يبدأ نشاطه، ولكن ها هو الملك يحطم التقاليد ويمنحه الرخصة المطلوبة. كان الوقت ظهراً وكان الجو حاراً جداً، فقررت أن أفعل شيئاً بهذه المناسبة وأن أذهب إلى "مركز وقت الفراغ" للسياحة لكي أحس بالإنتعاش قد كان مركزاً كبيراً مزوداً بطاقم خدمة كافٍ، وبه حمام سباحة في الخلاء كان يكفي لإقامة الألعاب الأوليمبية.

إن التمتع بالسباحة في الماء البارد شيء لا يمكن وصفه خاصة إن كانت الحرارة في الخارج تتعدى الستين درجة مئوية.

في حوالي الثانية بعد الظهر فحصت الأمير مرة أخرى ثم ذهبت إلى المكتب في القسم الطبي والذي كان في الأصل غرفة تحولت مؤقتاً إلى مكتب.

رحبت بي ماندا بلاك، سكرتيرة القسم.

وكان مكتب د. كومبتون قد قام بإخطارها عن وصولي وكانت جانيت قد روت لها قصة الأمير يوسف.

كانت ماندا انجليزية ذات لكنة لندنية رائعة، كانت في أوائل الأربعينات سمراء ذات عيون زرقاء وشعر أسود قصير ضارب إلى البياض.

وكانت ترتدي فستاناً بني اللون فضفاضاً طويلاً يصل إلى كعبيها.

وكانت لا ترتدي جوراباً وتنتعل صندلاً عربياً مريحاً يظهر أصابع قدميها وقد علاها طلاء الأظافر وكانت تضغط بقوة بأسنانها على مبسم سجائر أسود وكانت لا تتوقف عن التدخين. كانت ماندا أول من وصل إلى المستشفى وقد روت لي أنها تعمل في المستشفى منذ أكثر من عام، وانها ولدت في مانشتر وتزوجت من أستاذ بريطاني ولها عدة أبناء، إلا أنها طلقت من زوجها ولم يسمح لها ــ مثل جانيت ــ باصطحاب أبنائها إلى السعودية.

تأوهت ماندا وقالت: يكفي ما رويته عن نفسي، فإنك جديد هنا وينبغي أن تعرف كل مجريات الأمور.

ثم شرحت لي بعض مشاكل المستشفى، فلم يكن هناك مكان كافٍ للمكاتب لأن مهندسي البناء لم يضعوا في حسبانهم هذا العدد الكبير من الأطباء والفنيين والسكرتيرات والطاقم المساعد. وطبيعي أن توجد مشكلة صعوبة التفاهم باللغة فالأطباء وحدهم أتوا من ثلاثة وعشرين بلداً مختلفاً.

ودفعت مشكلة الإسكان الحادة إلى تأجير غرف بالفنادق، وكان ذلك مكلفاً ومصحوباً بالمشاكل.

ناهيك عن عدم الراحة في الفنادق الرديئة كما خبرت ذلك جيداً من خلال تجربتي. وفي النهاية تطرقت ماندا في حديثها إلى صعوبة الحياة للمرأة العزباء العاملة في السعودية فقالت: إنه وضع سخيف هنا وحياة المرأة العزباء هنا شيء لا يطاق لانه لا يجوز لنا قيادة السيارات أو الخروج في المساء إلا في جماعة. ولا نستطيع حتى ركوب تاكسي آخر لوحدنا، والخلاصة أنني أود القول إنني لا أغامر بالخروج أو التسوق في النهاية الا في صحبة امرأة أخرى. ومهما كان الجو حاراً فأنه ينبغي أن أغطي ذراعاي وساقاي.

ثم عرفت أن الحياة الاجتماعية محدودة للغاية. فقد كان محرماً على الزوار الرجال دخول المنازل التي يسكنها النساء العزاب. والمساكن المخصصة للنساء غير كافية وإذا أقمن علاقة إجتماعية مع أحد المسلمين، فإن الناس ينظرون إليهن بعين الريبة. كما أنه محرم على النساء، على سبيل المثال الموظفات المصريات الخروج مع المسيحيين.

أخذت نفساً طويلاً من سيجارتها والتي كانت تمسك بها في تراخ، ثم ابتسمت لي وقالت ولكن فيما يخص الحياة الاجتماعية فإن الوضع بالطبع ليس مسيئاً لهذه الدرجة،

فالمجموعة الانجليزية في المستشفى تمثل جالية متضامنة. وفي النهاية أعطتني قائمة العيادات الخارجية وطلبت مني أن أسجل نفسي لثلاثة أيام فاخترت صباح أيام الأحد والثلاثاء والخميس أما أسبوع العمل فكان ستة أيام والجمعة كانت عطلة، والسبت والاحد يومي عمل عاديين.

نحن نبدأ العمل في الثامنة صباحاً وننتهي منه نظرياً في الخامسة مساء وإذا عملت بعد ذلك فإنك تستطيع أن تأخذ تاكسياً ولكنه نادر هنا.

وافضل طريقة للعودة إلى الفندق هي أن تطلب قسم النقل وسوف يرسلون لك سيارة وسائق ولكن هذه الخدمة لا يتمتع بها إلا الأطباء. وأثناء ما كنا نتحدث دخل علينا بخطوات واسعة د. فيليب ويستبروك، رئيس القسم، كان الرجل إنجليزياً وجيه المنظر، وقد منحت العيون الزرقاء النفاذة والشعر الأشقر هذا الرجل الذي تخطى الخمسين من عمره منظر الشاب المحب للحياة.

عرفتنا ماندا ببعضنا البعض ثم ذهبت إلى السكرتارية على الجانب الآخر من الممر. رحَّب د. ويستبروك بي بحرارة وكانت لكنته المهذبة المنغمة ومخارج ألفاظه النقية كالبلور وكذلك نبرة صوته الخفيضة الناعمة تدل على أنه من أتون أو أوكسفورد أو كمبريدج.

ولما بدأت بإخباره عن التقدم الذي أحرزه مريضي وجدت أنه يملك صورة من تقرير الأمس أرسله اليه مكتب د. كومبيتون.

ثم أوضح لي د. ويستبروك ما يشغل باله وقال: إن المشكلة الأساسية هو النقص في عدد السرايرو وطاقم المساعدين وكذلك الممرضات والفنيين.. الخ. فما نستطيع استعماله الان هو مائة وخمسين سيراً فقط بينما الطلب علينا زائد عن الحد. وما نفعله هو أننا لا نقبل الا المرضى الذين يعانون من صعوبات طبية أو يحتاجون لعمليات، يتعذر علاجهم في مكان آخر في المملكة. وإذا سار كل شيء على ما يرام فأنه سيكون عندنا في خلال إثني عشر شهراً مائتا وخمسون سريراً.

ــ هل يوجد هنا مستشفيات أخرى؟

يوجد مستشفى كبير للمدينة متدهور الحال بصورة فظيعة وأجهزته عتيقة وتقل أو تنعدم فيه العمالة الخبيرة ويوجد اثنان آخران أصغر بكثير من هذا ويسودهما أيضاً التقصير.

ومعظم الأطباء يأتون من مصر وسوريا أو باكستان وهم بوضوح غير أكفاء حسب مقاييسنا.

ــ وكيف حالة الأطباء السعوديين؟

ــ لا يوجد منهم الا عدد قليل جداً فمعظم الأطباء الموجودين في هذه البلاد أجانب، وقبل سنوات قليلة لم يكن يوجد هنا أبطاء على الاطلاق اللهم الا الذين كانوا يقومون على خدمة العائلات الثرية أو الموظفون لدى شركات البترول. ولكن الأن فيوجد على كل حال كلية للطب في جامعة الرياض ستخرج أول دفعة لها في العام القادم فقلت باهتمام: من الممكن أن ألعب دوراً في هذا المجال، فيمكننا تنظيم برنامج تدريبي وتكميلي لهؤلاء. ويسمح لهم بأن يكونوا أطباء امتياز وبعد ذلك يتم تعينيهم للعمل هنا كأطباء.

وبينما كان فيليب ويستبروك يسحب ورقة من كومة على مكتبه قال لي في انشراح: هذا هو المطلوب فأنت عضو في عدة لجان منهما:

تدريس الطب، والمؤتمرات المتخصصة والدراسات التكميلية للأطباء.

تحادثنا بعض الوقت وقبل أن نفترق، دعاني د. ويستبروك لتناول الشاي بمنزله وقال: سأنتظرك في الخامسة والنصف على المنضدة عند المدخل.

وفي موعده تماماً ظهر د. ويستبروك، ثم ذهبنا إلى مكان انتظار السيارات بجوار المستشفى فقد كان يمتلك سيارة لاندروفر تتخذ شكل العربة الجيب وكانت حركتها موزعة على الأربع عجلات ولها رافعة تغيير التعاشيق وكان الصعود اليها في حد ذاته يتطلب مشقة كبيرة.

لما رأى محاولاتي المضنية ابتسم وقال: سوف تتعود على ذلك.

هذه السيارة تتلائم مع ظروف الصحراء على نحو رائع ولا تغرز أبداً في الرمال وهي تعمل بالبنزين والماء السوبر، هذا إذا غضضنا النظر عن الجمل الذي يملك أفضل وسائل الحركة. شق فيليب طريقه إلى جناحه في فندق الشرق بسرعة جنونية فقد كان يعرف أقصر الطرق، وكانت معظمها غير معبدة، فأغلقت عيني ليس بسبب التراب بل خوفاً من وقوع حادث كنت أتوقعه كل لحظة. وبينما كنا نترنح من جهة إلى أخرى كلما مررنا على حجر أو حفرة كبيرة ابتسم فيليب وقال: لقد تأرجحنا بما فيه الكفاية، ستتعود على ذلك. وأخيراً وصلنا بالسلامة.

وكان "الشرق" في عمر "اليمامة" وكانت رائحته معطنه وبدا كما لو كان بني في العشرينات آيلاً للسقوط. وكان السجاد بالياً وباهتاً أما المناضد والمقاعد فبدت وكانها فضلات "سوق الكانتو". وقد علقت صورة للملك فيصل خلف شباك الإستقبال وعلى يمينها صورة للملك خالد وعلى يسارها صورة لولي العهد فهد.

***

صعدنا إلى الطابق الأول ومضينا إلى نهاية ممر خافت الضوء حيث كان يقبع خادم عجوز في مكان يتيح له مراقبة الممر كله. وقد تعرف على فيليب فحيَّاه قائلاً:مساء الخير.

فرد فيليب: مساء الخير. ثم طرق باباً في نهاية الممر، ففتحت لنا امرأة طويلة في بداية الخمسين، ذات شعر لونه الشيب، كانت لطيفة ومتحفظة.

قام فيليب بتعرفي على زوجته "دوريس" التي سألتني ضاحكة:

هل أعجبتك طريقة فيليب في قيادة السيارة؟ إنها فظيعة أليس كذلك؟

فأجبتها: لقد كانت تجربة لا تنسى.

كان جناحهما يتكون من حجرتين وحجرة نوم وحمام، وحجرة معيشة وكان كل شيء فيه مفروشاً مثل المساكن المفروشة القديمة (ذات الأثاث التالف العتيق جداً) ولم يكن بها مطبخ بل ثلاجة توجد في حجرة المعيشة مما آثار عجبي. وكان الحوض في الحمام يستعمل أيضاً لغسيل الصحون ولم يوجد هناك صوان فقد كانا يعلقان ثيابهما على يد مقشة ثبتت في ركن حجرة النوم، وكانت دوريس قد اشترت بوتاجازاً صغيراً وأوانٍ.

قلت لهما: إنه مسكن فاخر بالمقارنة مع الكوخ الذي أسكنه ويد المقشة هذه تمثل إختراعاً عبقرياً.

فردت دوريس. نحن نخبيء البوتاجاز الصغير عندما نغادر المنزل في الصباح، لأنه شيء فاخر لا نستطيع الاستغناء عنه. قاطعها فيليب ليروي ما حدث للبوتوجاز الصغير ذات يوم عندما اختفى، فلقد ذهب ليسأل مدير الفندق عنه فرد عليه: بأنه سحب كل البوتجازات. وأوضح له فيليب أنه لا يستطيع الاستغناء عن البوتاجاز. ولكن بدون جدوى فقد أصر المدير على موقفه.

بعد حوالي أسبوع اتصل المدير بفيليب وروى له عن ابنة أخيه والتي كانت تعمل أمينة معمل في القاهرة وتبحث عن عمل في الرياض، حيث تزوجت، فوظفها فيليب في المعمل الكيميائي الخاص بالمستشفى وخلال أربع وعشرين ساعة ظهر البوتاجاز مرة أخرى وكانه مس من السحر.

ثم أردف في النهاية: إن المثل القائل "شيلني واشيلك" يجد له هنا أرضاً خصبة، إنه جزء من تقاليد هذه البلاد.

ثم سألتها: وماذا تفعلان هنا من أجل التسلية والترفيه. فأجابت دوريس: كما تعرف لا يوجد هنا مسرح أو سينما أما التليفزيون فهو شيء مستحيل ولذا فنحن نقوم بتسلية أنفسنا وفي العادة يقام حفل كل يوم خميس ولدينا جهاز استريو يزودنا بالموسيقى.

أمسك فيليب بطرف الحديث وسرد عليَّ تفاصيل حفلات الخميس وأخبرني أنهم يقومون بإحضار كميات من "صديقي" وهو يقابل "الجن" المصنع ذاتياً وهو بلا طعم أو رائحة ولا أحد يعرف على وجه الدقة من هو الي يقوم بتقطيره ولكنه هناك دائماً من تحصل منه سراً على زجاجة في قرطاس من الورق مقابل اثني عشر دولاراً. وذكر لي فيليب اسم أحد الفنيين بالمستشفى يستطيع أن يزودني بزجاجة في أي وقت ــ ولكنه نصحني بأن أخبئها لأن المشروبات الروحية محرمة في السعودية ومن يضبط بها فإنه يرحل على الفور أو يوع في السجن. والسعوديون لا يفتشون البيوت مطلقاً ولكن من المحتمل أن يفعلوا ذلك في الفنادق.

"وصديقي" ــ وهذا إسم هذا النوع بالعربية ــ يصير ذا مذاق طيب جداً ــ على قول فيليب ــ إذا مزج بالبوتشي[10] أو عصير الفواكه أو بالتونيك أو بجعة الزنجبيل. وفي حفلات الأمريكان أو الانجليز الذي يقطنون مساكن خاصة، فإن (صديقي) يسيل بغزارة ولكن بالنسبة لأصحاب الحظ السعيد فقط الذين وصلوا إلى السعودية من ستة أشهر ، وكان اللبنانيون مشهورين بحفلاتهم الرائعة ذات الطعام الوفير "والصديقي" والرقص.

أما السعوديين فكانوا كرماء بحق ولكن كانت حفلاتهم عامة يحيط بها الهدوء وكانوا يقدمون به الطعام الجيد، أما الخمر فلا.

---

[10] مشروب ساخن من العرق والسكر والليمون والبهارات والماء المترجم).

أما الحفلات التي كان يقيمها شباب الأسرة المالكة فكان لها عادة جو آخر تماماً فكانوا لا يضنون على أنفسهم بالمشروبات وكانت باراتهم تذخر بالشمبانيا والويسكي والجن وغيرها وقد قال لي فيليب إن العائلة الملكية ــ مرفوع عنها رسوم الجمارك فأنها لا تدخل الدائرة الجمركية، وعلى كل فالبلد بلدهم. ولكني كنت متأكداً أن الأمير يوسف لم يعاقر خمراً من أي نوع ولكن الشباب من العائلة المالكة ــ أولاد الأمير يوسف مثلاً ــ كانوا على ما أظن أكثر تحرراً فيما يخص هذا الموضوع. لم أكن أعرف حينذاك أن هناك من سيدعوني إلى حفلات غير عادية.

وذكر فيليب، الذي كان يعشق الترحال، أن السعوديين لكي يغروا الأطباء بالقدوم إلى السعودية فإنهم يمنحونهم إجازة كل أربعة شهور اضافة إلى إجازتين خاصتين آخرين في السنة للإشتراك في المؤتمرات العلمية.

وقد خطط فيليب لإجازات في إنجلترا، اليابان، أستراليا ونيوزيلندا. وبدأت أرسم في مخيلتي رحلات إلى شرق أفريقيا وهونج كونج واليابان، كم كان التفكير في هذا الأمر يثيرني. إنني وصلت منذ قليل وها هي أحلام تطوف برأسي: "إن السعودية تمثل منطلقاً مثالياً بالنسبة للرحلات إلى جميع أنحاء العالم".

وسرعان ما أعادتني دوريس إلى أرض الواقع وسألتني: هل لاحظت الرجل الذي يقف أمام بابنا، إنه مصري وله زميل آخر يقفان هنا أربع وعشرين ساعة في اليوم وهما ينامان على سرير "سفري" صغير ويأكلان في حجرة الكواء.

فالزوار الأجانب يتم مراقبتهم في هذا البلد طيلة الوقت حتى لا يجلبوا نساء أو خمراً إلى غرفهم. وفي كل طابق يوجد خادم، وهم في العادة رجال متقدمون في السن غالباً ما يكونون مصريين أو سودانيين لأن السعوديين يأبون على أنفسهم القيام بالاعمال الوضيعة، مثل تنظيف الغرف أو تغير الفراش.

ضحكت دوريس في صوت خفيض وقالت: إنهم لا يقومون بتغيير الفراش ولا يحضرون مناشف نظيفة الا إذا أعطيتهم بقشيشاً.

ثم استطردت: عندما وصلنا إلى هنا طلبت مناشف نظيفة فأفهموني بالإشارة أنه لا يوجد مناشف (ما .. في) وبعد أن كرروا نفس الرد (ما في) خمسة أيام اعطيتهم خمسة ريالات، فظهرت المناشف كما لو كانت الأرض قد أنشقت عنها ونحن الآن نعطيهم البقشيش بانتظام وأصبح كل شيء يسير على ما يرام.

وفي الفندق الذي أسكنه يقبع رجل في نهاية الممر ولا غرو في أنه لا يوجد عندي الا منشفة صغيرة وان فراش سريري لم يتغير منذ أسبوع. فقالت دوريس مشفقة: الفندق لا يدفع أقل القلي لهؤلاء المساكين. عندما هممت بالذهاب عرض عليَّ فيليب أن يصطحبني بعربته اللاندروفر في الصباح إلى المستشفى ثم قال: في الثامنة الا ربع تماماً، إن الفندق يقع على مسافة خمسة عشرة دقيقة فقط من هنا ومشي هذه المسافة سوف يعود عليك بالنفع؟. شكرت الإثنين بالرغم من أنني لي بعض التحفظات على هذه الاندروفر.

كان الظلام قد حلَّ عندما غادرت الفندق واتجهت ناحية اليمين لأتخذ الطريق القصير إلى اليمامة.. كانت الرمال والحطام في كل مكان، وعلى بعد ثلاثين متراً تقريباً صادفت كومة تراب ضخمة تسد الطريق. فاعتقدت أنه ليس من العصب الالتفاف حولها.

فنزلت الشارع ودرت ببساطة حولها وفجأة أنثنت ساقي اليمنى فشعرت بألم حاد كالنار في ساقي من ركبتي حتى كعبي، فلقد تعثرت في الظلام بفتحة خاصة بأعمال الطريق ــ في وسط الرصيف بدون تحديدها بعلامات أو إحاطتها بسور. كان همي الأول أن تكون ساقي قد كسرت. ولكن بعد أن خرجت من الحفرة لاحظت أن الألم لا يزداد حدة عندما كنت ادوس بثقلي على قدمي.

وقبل أن أصل بقليل إلى الفندق اكتشفت وجود محل "بقال" وفي الداخل وجدت أقفاص فاكهة وخضار مفتوحة وصغيرة هنا وهناك. وعلب كرتون متناثرة مفتوحة بها معلبات لحم وسمك.

وكانت توجد على الأرض أجولة تحتوي على أنواع من الجوز.

وتكومت على الأرفف صفوف الخبز وبجوارها علب القراقيش والبن. وكانت تحوم أسراب الذباب مطنطنة حول البيض الذي تكسر بعضه ويسيل منه البياض. ها هو إذن "السوبر ماركت" النظيف الذي عنته دوريس، لأن صاحبه يرتدي ثوباً أبيض ناصعاً ويقف عند بابه على الخزينة ويحرس خلفه علب السجائر والسيجار. فسألت نفسي عن حال المحل الذي وصفته بالقذارة.

كان في الخلف توجد ثلاجة ولكني لم أشأ التقدم الى هذا الحد وقررت أن أشتري شيئاً من التفاح من قفص كان في المقدمة ثم دفعت ثمنه إلى صاحب المحل وعرجت إلى الفندق.

كان الخادم ما زال ــ كالعادة ــ يقف في نهاية الممر نوبة حراسة فأفهمته بالإشارة أن عليه أن يدخل وأشرت إلى المنشفة الوحيدة المسكينة ثم أشرت بيدي موضحاً بأربعة أصابع وطلبت أربع مناشف، وأثناء ذلك كنت أضع خمسة ريالات في يده فشكرني في فيض من الحماس ثم عاد في الحال وهو يحمل صفاً من المناشف وصابونة.

فإنتهزت الفرصة وأشرت إلى الفراش الذي أصفر لونه وعلته الرطوبة وقلت: "بكرة"

فهز رأسه دلالة الفهم.

كانت ساقي ما زالت تؤلمني وكانت مغطاة بالدم والتسلخات مما جعلها تبدو مجرحة وقبيحة: منظر نادر.

ولما كنت أستطيع معالجة نفسي فأنني خلعت ملابسي بحرص وقمت بغسل ساقي بالماء والصابون ــ كمطهر ممتاز ــ ولقد كان أي مضاد للتقيح سيفيدني في هذه الحالة ولكنه لم يكن يتوافر لدي شيء منه.

وقد تم تحذيرنا من جلب أنواع الكحول بما فيها كحول التطهير ولذلك لم يعدّ لي الاخيار واحد هو إستعمال "ماء كولونيا بعد الحلاقة"

والذي يحتوي على كحول. وقد كانت له لسعة كالنار.

ثم ربطت الجرح برباط شاش كان في حقيبة الإسعافات الأولية الخاصة بي. بعد ذلك سألت نفسي إن كان الكحول بالفعل ضروري، على كل حال فإن عطر ماء الحلاقة فواح على نحو رائع رحب به هذا المسكن.

كان منظر التفاح الأحمر فاتحاً للشهية وهو يناسب تماماً الجبن الذي أهدتني ياه دوريس.

أما "صديقي" الذي تحدث عنه فيليب فكان سيكون من دواعي فرحي حتى أستطيع به تخفيف الالم.

ذهبت إلى السرير واضعاً وسادة تحت قدمي المصابة المؤلمة. ولم أبذل جهداً في إفراغ حقائبي.

الفصل الخامِس

غزو البدو

في صباح اليوم التالي ذهبت إلى "الشرق"، حيث سرت في دائرة واسعة لكي أتجنب فتحات القناة المفتوحة. وعلى المدخل قابلت فيليب،ثم انضم إلينا أحد نزلاء الفندق، وكان إختصاصياً في أمراض السرطان من ولاية "أوهايو". لقد كان سورياً يدعى نايف البراس، ذهب إلى الولايات المتحدة ليدرس الطب هناك ولم يعد مرة ثانية.. وقد قال لي في لكنة عريضة: إنهم يطلقون علي "آل" وأنا من مواطني الولايات المتحدة وانا أكره السوريين والحمر[11].

بدا وكأنه تعلم الإنجليزية الآن فقط وأن ما قاله كان نفس الكلام الذي يستعمله دوماً.

كان ممتليء ذا بشرة سمراء وشعر أسود فاحم وكان حليق الذقن ذا أسنان ذهبية وكان مرحاً على الدوام.. ثم سألني في ود كيف تعجبك لكنتي .. كان لا ينطق الحروف الحلقية ويخلط الأفعال ببعضها أو لا يستخدمها مطلقاً ولكنه كان بالطبع يتكلم العربية وكان ذك أهم.

إلتفت "آل" إلى فيليب وسأله ما هو الطريق الوعر الذي سنسير فيه اليوم؟. فقال فيليب لم أخطط لذلك بعد، أنا لا أريد أن أسقط في الروتين اليومي كما أن حول المدينة شيء أكثر إثارة.

---

[11] يقصد الشيوعيين (المترجم).

فاختار في البداية طريقاً ترابياً وعراً ضيقاً.. ثم اخترقنا شوارع مليئة بالأنقاض وممرات قذرة لنصل إلى الطريق الرئيسي.

وقد كانت حاسة الإهتداء لدى فيليب هائلة.

وقد بدا عدد سيارات النقل المقلوبة والعربات المهشمة وأعمدة النور المحطمة وكأنه زاد عن ذي قبل.

فقال آل: سيحدث ذلك لنا يوماً ما.

فرد فيليب: لن يحدث أبداً.

وها نحن قد وصلنا إلى المستشفى في ميعادنا تماماً.

ولما كانت الكلينيك تقوم ــ مثل المستشفى ــ بخدمة كل المواطنين السعوديين بغض النظر عن حالتهم المادية.

وكانت المصاريف منخفظة جداً بسبب الدعم الذي تقمه الحكومة للمستشفى.

ونحن لم نرفض قط علاج أي مريض بسبب عدم قدرته على السداد، لأنه كان يوجد دائماً أمير يقوم بذلك نيابة عن المريض.

وكل هذه المشاكل المالية الحادة كانت توجد لجنة خاصة تجتمع بانتظام لتحسم هذه الأمور. كما كانت الحكومة تقوم دائما بتسوية متأخرات السداد.

وبالرغم من ذلك كان المستشفى لا يستطيع توفير الرعاية الطبية المثالية. فلم يكن هناك العدد الكافي من الأطباء أو الأسرة الذي يتناسب مع العدد المتزايد لمرضى المستشفى.

ولهذا قمنا بتطوير نظام نقبل بمقتضاه هؤلاء المرضى الذين لم يستطيعوا دخول أي مستشفى آخر في المملكة.

وكنا نطلب من المرضى الذين قبلنا هم خطاباً من الطبيب يتضمن الحالة الصحية للمريض وسبب تحويله إلى المستشفى.

ولم يكتب لهذا النظام أن يستمر الا لفترة وجيزة.

وبعد ذلك تدفق على العيادة الخارجية طوفان من مرضى السرطان والرئة والأمراض الغريبة.

وبدأ السعوديون في رشوة أطبائهم ليزيفوا لهم خطابات التحويل حتى يستطيعوا دخول المستشفى.

فإذا كان المريض مصاباً مثلاً فيقول خطاب التحويل بأنه مصاب بورم في المخ وإذا كان مصاباً بالبرد نص الخطاب على أن المريض يعاني من إلتهاب رئوي.. إلخ.

وفي النهاية تم إنشاء مركز للعلاج الأولي والصحة العائلية في مبنى خاص بجوار المستشفى،حيث يتم فحص المرضى قبل تحويلهم إلى المستشفى.

****

كانت أول مريضة فحصتها في العيادة الخارجية بدوية في ثياب رثة أتت مع زوجها من المنطقة المحيطة بمكة على مقربة من الحدود الغربية للسعودية، أي من على بعد 800 كيلو متر.
وطبقاً لشهادة بيانها كانت هذه المرأة من قبيلة قريش الشهيرة،التي تزعمت مكة ذات يوم وينتسب إليها الرسول.
فقد كانت إستمارة التحويل والتي تحرر في قسم إستقبال العيادة الخارجية تحتوي دائماً على إسم القبيلة بالإضافة إلى البيانات الأخرى.
كان مترجم العيادة الخارجية شاباً لبنانياً يدعى نبيل ويعمل فنياً في القسم الطبي وكان صديقاً حميماً لكمال. عرفني نبيل بالمريضة وزوجها، التي كانت تجلس وكأن على رأسها الطير. بينما كانت تغطي وجهها بحجاب سميك للغاية وترتدي ثوباً تقليدياً أسود اللون مهلهلاً باهتاً.. وكذلك كانت تضع في قدميها صندلاً.
لم أستطع أن أرى شيئاً من وجهها ولم أستطع حتى تحديد عمرها وبمساعدة نبيل شرحت لها أن معرفة ظروف مرضها مهم جداً وأن الفحص سيتم في حضور إحدى الممرضات ولن يتواجد أي رجل غير زوجها.. ثم بدأت في التعرف على ظروف مرضها فأخبرت نبيل بصوت رفيع عال ورقيق أنها تبلغ خمسة وثلاثين عاماً من عمرها، وتشعر من عدة سنوات بآلام في بطنها ازدادت بسبب شربها للبن الجمال، وبعد أن استجوب بيل المرأة بدقة والتي كانت غالباً ما تلجأ إلى زوجها طالبة المساعدة عرفنا أنها تعاني من آلام في الربع اليمين أعلى بطنها لتصل بعض الأحيان إلى ظهرها والى كتفها الأيمن.
بعد قليل أكتشفت أن الحصول منها على سرد أمين لظروف مرضها شيء صعب يتطلب وقتاً طويلاً.
فطريقة التعبير السعودية اختلفت عن اللبنانية لذلك كانت إجابتها تأتي غير واضحة تماماً.. أما زوجها فكان أحياناً لا يعرف عنها الكثير وكان ما حصلت عليه هو معلومات غير واضحة زودني بها مترجم لا يتقن اللغة التي يترجم منها. أعتقدت أنه من المفيد أن أنظر إلى تعبير وجه المريضة أثناء الإستماع لظروف مرضها.. فقلت لنبيل: حاول أن تجعلها تضع عنها الحجاب فأجابت بحسم "لا" وهزت رأسها ولجأت إلى زوجها طالبة المساعدة.
فأصررت على موقفي وقلت: قل لزوجها أنه لابد من فحص عينيها وأنفها ورقبتها أيضاً.

فأكد لها برقة أن خلع الحجاب في مثل هذه الظروف الغير عادية ليس فيه إساءة أدب وفي النهاية قامت بنزع حجابها كارهة وبمنتهى التردد.

وبالنسبة لها كان إرتداء الحجاب مصلحة. وسألت نفسي إن كان ترددها بسبب العادات والتقاليد فقط.. فهي كانت تبدو في الخمسين من عمرها تماماً في عمر زوجها.. وقد علت بشرتها التجاعيد والجدب أما أسنانها فكانت على حالة سيئة وبدى عليها الكبر والإجهاد كان بياض عينيها ضارباً إلى الصفار مما يشير إلى إصابتها باليرقان الخفيف.. مرة أخرى سألت عن عمرها فأجابت مرة أخرى إنها في الخامسة والثلاثين وصدق زوجها على كلامها وقال إنه تزوجها وهي في الخامسة عشر ولكني بقيت على ارتيابي. فكانت تبدو أكبر من ذلك بعشرين عاماً.. كان جلياً أن المرأة قد عانت في حياتها.. فهي تتذكر أنها حملت 14 مرة و4 مرات إجهاض ولها ستة أطفال على قيد الحياة وتعتبر بعض القبائل البدوية أن المرأة التي تبلغ الخامسة والثلاثين من عمرها "عجوزة" وهم يدعون ذلك لتحليل الزواج من إمرأة أخرى.

وكما شرح لي نبيل فإن عدداً كبير من نساء ورجال البدو يبدون أكبر من سنهم الحقيقي بعشرة أو خمسة عشر عاماً ولكنهم من الطبيعي ألا يوجد تاريخ ميلاد أمين في حالات كثيرة أو إمكانية الإستدلال على صحته.

وحالما انتهيت من فحص عينيها ورقبتها تنفست هي الصعداء ووضعت الحجاب بسرعة على وجهها.وعلى نحو ما كان الحجاب بالنسبة لها كالغطاء بالنسبة للأطفال في بعض الأحيان.. ثم طرحت سؤال: كيف سيكون رد فعلها إذا اضطرت لخلع ثيابها لإجراء فحص دقيق؟

فقالت الممرضة التي أحضرها نبيل: ليس هناك مشكلة على الإطلاق في ذلك إذا سمح لها بتغطية وجهها.. ولما كانت الممرضة لا تعرف العربية فأنها قالت لنبيل أن يخبر المرأة بأن تتجرد من ملابسها تماماً وأن ترقد على منضدة الفحص وتغطي نفسها بالملاءة المخصصة لهذا الغرض. وقد طلبت من زوجها البقاء في الحجرة ثم سحبت الستار المعلق بالسقف حول منضدة الفحص حتى أخفيتها تماماً وجعلتها في مكان أمين.

انسحبنا نحن وتركنا الرجل مع زوجته وحدهما.. وعندما عدت بعد عشر دقائق كانت المريضة ترقد على منضدة الفحص عارية تماماً إلا من حجابها الذي يغطي وجهها وبدا عليها الهدوء والإرتياح، أما الملاءات البيضاء فكانت مطبقة بجانبها على المنضدة لم تلبسها كان واضحاً أنها حافظت على ماء وجهها.

بعد ذلك أخبرتني إحدى السعوديات أن النساء لا يعترضن على التجرد من ملابسهن بشرط الا يعرف أحد شخصيتهن. وعند الفحص فإنهن يتجردن من ملابسهن بلا تردد بشرط الإحتفاظ بالحجاب حتى يخفين هويتهن.

كان بطن قدم المريضة وكذلك كتفها مخضبة بالحناء التي استعملتها من أجل التزين لزيارة الرياض.. وكما أخبرتني الممرضة فأن بعض النساء يتحملن بطلاء أظافرهن وشعورهن بالحناء.

ورأيت على صدرها وبطنها خاصة في الناحية اليمنى خمس أو ست دوائر بنية اللون قطرها يصل إلى 6 سنتمترات وكما عرفت فيما بعد كانت هذه الدوائر عبارة عن أثار حروق ناتجة عن كي الصدر والظهر والبطن بالجمر.

لتخفيف الآلام أو النزيف.. إن الوسم بالحرق طريقة مألوفة للعلاج يستخدمها البدو أيضاً لعلاج الأطفال الصغار منهم والكبار وكانوا أحياناً يستخدمون فوهة الزجاجة لعمل الوسم فيتم وضعها فوق النار حتى تحمر وكان كل العاملين بالعيادة الخارجية يعرفون هذا الوسم ولكن لا أحد يتكلم عنها بينما كنت أنا أنظر إليها في حيرة.. وفيما عدا آثار التقدم السابق لاوانه في العمر والحساسية والتقلصات في أعلى يمين البطن ويرقان خفيف لم يثبت الفحص شيئاً آخر.

قامت الممرضة بتغطية المريضة بالملاية وطلبت منها بالإشارة أن ترتدي ملابسها. ثم طلبت أنا من نبيل أن يخبرها أن إجراء بعض الإختبارات والأشعات أمر ضروري. وأن سبب هذه الأعراض يمكن أن يكون حصاة صفراوية، ثم أوضحت لها أنني أنصح بإجراء عملية.

وبالرغم من أن نبيل كان يتحدث إلى المرأة الا انها فضلت الصمت وتركت زوجها يرد بالنيابة عنها.

بعد عشرة أيام غادرا المستشفى عائدين إلى البيت.

****

ولما كان هذا هو أول يوم لي في العيادة الخارجية فإنني تعمدت تقصيره، فكشفت على أربعة مرضى فقط، كان بينهم فتاة مصابة بإلتهاب في الكبد ناتج عن فيروس وكذلك باليرقان الذي كان شائع الإنتشار في السعودية وينشأ وينتشر هذا المرض عن طريقة اختراق الفيروس للكبد، وهو ينتقل عن طريق الشراب أو الطعام وينجم ذلك عن طريق التقصير في إزالة المياه القذرة وكذلك النقص في النظافة .

وكذلك كان التليف الكبدي كمضاعفات الإلتهاب الكبد وسرطان الكبد مرضاً شائعاً.

أما المريض الثاني فكان في الستين من عمره وكان مصاباً بسرطان الكبد. وقد تم نقل على محفة من قريته الصغيرة الواقعة خارج الرياض. وقد قمت بتحويله إلى المستشفى.
وكان هناك مريضتان أخريان تعانيان من آلام في البطن يصعب تحديد مكانها، وقد عللتا ذلك بالإصابة بالطفيليات، كانت هاتان المريضتان مثالاً لهؤلاء المرضى الكثيرين الذين يذهبون إلى الطبيب لمجرد الإطمئنان والذين يشكون من آلام لا حصر لها ولا صلة لها بأي مرض من الأمراض، ويسافرون من مستشفى الى أخرى حاملين ملفات شاملة تمتليء بالمستندات والتقارير وصور الأشعة والتحاليل الكثيرة التي لا تشير إلى شيء غير عادي.
وكانت هاتان المريضتان قد حصلنا بالفعل على خطابات من أطباء الرياض، قامتا برشوتهم حتى يحولوهما إلى مستشفى الملك فيصل الخاص.
وكان ذلك يعني بالنسبة لهما مظهراً اجتماعياً يفتخران به أمام معارفهما..
وعلى نحو أو أخر احتالتا في مركز العلاج الاولي على الطبيب المختص بالتحويل إلى المستشفى عن طريق الخديعة أو تقديم الأعذار...
وفي الحقيقة كانت هاتان المريضتان تتمتعان بصحة جيدة..
وكانتا فقط تزهوان بمجموعة التشخيصات الطبية التي جمعتاها من سائر أنحاء العالم: لندن، باريس، زيورخ، القاهرة..الخ أما هذه التشخيصات فقد كانت تشهد بأسلوب علمي عال على تمتعهما بحالة صحية ممتازة..
أما ما كانتا تحتاجانه حقاً فهو أخصائي اجتماعي أو طبيب نفساني جيد ليعرفهما بمشاكلهما: ملل، فقدان الثقة، علاقة جنسية غير مرضية، حياة زوجية تعيسة،مجتمع منغلق..
ولم يمر وقت طويل حتى عرفت أن أمراض التوتر العصبي تنتشر بوفرة في السعودية..
بعد الساعة الواحدة بقليل أتاني إتصال عاجل.
ــ فرانك تايلور:
ــ د. جراي، هل كشفت الآن على الأمير يوسف؟
ــ لا. ولكني رايته صباح اليوم وقد احرز تقدماً كبيراً.
ــ إذا كان الأمر كذلك فأنه سوف يصاب في أي لحظة بانتكاسة، وإذا لم يصب هو فسوف اصاب أنا بذلك.
ــ سألته بلا اهتمام:
ماذا حدث؟

فصرخ تايلور الذي أصيب بواحدة من نوبات غضبه.. ما حدث هو أن قطيع من البدو قد هجم على عنبر (ب ــ 2) وأربعون منهم على الأقل قد أتوا لزيارة الأمير. وقد أتت القبيلة.. كلها.. وفيما عدا الجمال فأنهم قد أحضروا معهم كل شيء.

كيف عبروا جميعاً من المدخل؟

ــ إن الأمير يا سيدي رجل عظيم جداً.. أنسيت هذا.. إن البدو يحتفلون بشفاءه واحتلوا بذلك العنبر كله. كانت طبيعة تايلور المتأججة ونوبات غضبه تتلاءم مع صفات المدير الكبير الناجح الطموح، كان هم فرانك الأكبر هو مكانة المستشفى بالنسبة للأثرياء السعوديين... وفي النهاية فأن وضعه يتوقف على إرضاء العائلة المالكة.

وكان لذلك ما يبرره بلا شك.. ولكنه كان يعمل أيضاً بكل جهده للإحتفاظ برعاية المرضى على أعلى مستوى ممكن، "سوف ارى ماذا أستطيع فعله" قلت ذلك وانا أحاول أن أبدو متفائلاً..

فاستطرد هو: إن الممرضات يكدن يقدمن إستقالتهن وأنا أيضاً. أما العنبر (ب ــ 2) فقد كان تحول إلى مستشفى للمجانين.. فلقد هجمت القبيلة على العنبر واحتلته وكانوا يجلسون في مجموعات ويتحدثون وبعضهم يقف في الممرات.. وبعضهم احتل بلا اهتمام الغرفة المخصصة لزيارة النساء.. ثم إن مجموعة أخرى كانت تقبع في غرفة الأجهزة. كانوا جميعهم يرتدون الثياب البيضاء أو الرمادية "والغطرة" الأبيض. كما كنا نراهم في الأعياد وكانوا جميعاً أيضاً ينتعلون الصنادل في أقدامهم العارية.

كانت الممرضة آن تبكي وهي تقول: إننا عاجزون عن تزويد المرضى بالدواء ولا نستطيع في هذه الظروف أن نفعل أي شيء.

حاولت أن أبدو نافعاً وقلت: إنني سأبذل قصارة جهدي ولكن على ما يبدو أن ذلك سوف يحتاج وقتاً. أما في حجرة الأمير فكان هناك عشرة أشخاص على الأقل يقدم لهم الفطير والشاي وكان معم الرجال واقفين يتجاذبون في صوت خفيض اطراف الحديث ويرتشفون الشاي. وكان الأمير سعيداً ومجهداً وقام بتعريفي بأصدقائه فصافحت الجميع وأخذت كمال جانباً وقلت له: قل لهم خلال خمس دقائق أن يتكرموا ويغادروا الغرفة حتى أستطيع فحص الأمير وإحضار المزيد من الدواء.. وحتى هذا الحين فإنني سوف أشرب الشاي وأعاين المكان.

كان البدو على درجة من الجمال وكانوا متوسطي أو فارغي الطول مفتولي العضلات نحفاء ذوي أكتاف عريضة قوية.. كانت رؤوسهم طويلة تزينها لحى مهذبة وكان لونهم إما خمري أو أسمر، أما البشرة فكانت مجعدة وصارت بفعل الشمس كبشرة الصيادين. أما عيونهم السوداء

فكانت متيقظة نافذة ذات فضول. وكانت شفاههم ممتلئة.. وأنوفهم كأنف الأمير والأسرة المالكة.. الأنف السامية التقليدية.

أما ما كان يلفت النظر بصفة خاصة فكانت وقفتهم المعتدلة المتباهية التي تكاد تقترب من العناد.

أدى كمال مهمته وخلت الغرفة من الجميع إلا من الخادم الموجود دائماً والذي كان يتكور في أحد الأركان.

نجح الأمير في تحمل هذا العذاب بالرغم من الإجتهاد البادي عليه.. كان ضغط دمه عادياً ولكن نبضه كان لا يزال سريعاً وكانت سرعة ترسيب دمه قد اخذت في التحسن تدريجياً. طلبت من كمال أن يحضر سالم وأخويه اللذين كانوا يقومون على خدمة سرب البدو في الغرفة المجاورة.

وبعد أن دخلوا جلسنا جميعاً وحاولت أن أوضح لهم أن ما حدث اليوم يشكل خطراً وضرراً على صحة الأمير ففي المرحلة الحالية كان الأمير ما زال يعاني من فقر الدم كما أن النزيف لم يتوقف إلا من 24 ساعة فقط..

قال سالم: إن أبي كان سعيداً برؤية أصدقائه، إنهم رفقاؤه في رحلات الصيد وأقاربه.

فقلت في جدية: إننا نسمح بزائر أو إثنين في اليوم ولكن لقد أتت القبيلة كلها أو الأقل يبدو الأمر كذلك.

ــ إنك تبدو قلقاً عليه للغاية.

ــ إن الانفعال الزائد مهما كان سعيداً فإنه يؤدي إلى عودة النزيف مرة أخرى. يجب علينا الحد من عدد الزوار. فوالدكم يحتاج إلى الهدوء.. فاعتذر هو قائلاً لقد أتوا من بعيد، من إقليم الحجاز،الواقع في الشمال الغربي للبلاد.

ــ نحن نحتاج إلى مساعدتكم.. فأصدقاؤكم يسببون الإضطراب في العنبر كله.. فهم لا يعترفون بالتعليمات، والممرضات غير قادرات على أداء مهماتهن.. كما أن المرضى الآخرين يعانون من ذلك. سكت برهة وفكر لعدة ثوان وقال: لقد فهمت. ثم وقف وأردف: لنذهب إلى الغرفة المجاورة ونرى ماذا سيحدث. ذهبنا جميعاً إلى الغرفة المجاورة والتي كانت لا تزال تعج بالزائرين وأتفقنا على أن ينزلوا جميعاً إلى بهو الاستقبال الكبير في الطابق الأرضي حيث توجد المقاعد الكافية وحيث يقدم الشاي والقهوة ومراعاة لصحة الأمير فأنه سوف يسمح لثلاثة فقط منهم في وقت واحد وقصير بالزيارة على أن يراقب كمال ذلك. ثم تصافحنا وشكرتهم بالعربية ثم ذهبوا.

جلست أنا وسالم حيث بدى الرضا على الخادم الذي كان يقدم لنا الشاي. قال سالم معجباً: إنهم أناس رائعون، إنهم أصل العرب كلهم. وهم يمثلون العمود الفقري والقلب لهذه البلاد.

ماذا تعني بهذا؟

ــ هؤلاء البدو هم من قبيلة عنزة، أعيان الصحراء، وهم يتمسكون بانتسابهم إلى إسماعيل جد العرب، وعائلتنا من هذه القبيلة وكذلك كل عائلة الملك عبد العزيز بما فيها الملك خالد وولي العهد فهد.

ثم أخبرني سالم أن البدو فاخرون بأصلهم وبأسلوبهم في الحياة حيث تجد ذلك موصوفاً في الشعر والأساطير التي تنتقل من جيل إلى جيل عن طريق الرواية.

وهم ينظرون إلى الحاضرة كأناس من الدرجة الثانية ويترفعون عن أعمال الزراعة والأعمال اليدوية.

ــ كنت أعتقد أن البدو فقراء للغاية أميون وجوعى ويقطعون الطريق على المسافرين والقبائل الأخرى وينهبونهم.

ــ إنهم البدو من الدرجة الثانية أي القبائل التي لا تنتسب إلى الشريف وهم يختلفون عنا تماماً. فهم لم ينهبوا كل ما وقع تحت بصرهم ولكنهم نهبوا بعضهم البعض..وكذلك المستعمرات والقرى وطلبوا الجزية من القبائل الضعيفة.

وأخبرني سالم أن هذا الوضع هو الذي كان سائداً قبل أن يوحدهم الملك عبد العزيز في مملكة.. وحرم السطو والسلب، لقد كان تأثيره عظيماً..لأنه كان واحداً منهم لأنه تزوج من كل القبائل الهامة ولكي يضمن ولاءهم فإنه منحهم دعم الحكومة الذي ما زال يصرف لهم حتى الآن..

وبينما كان سالم يشرب الشاي قال في صوت خفيض: وبالرغم من أن كثيرين من سكان المدن اليوم ما زالوا ينظرون باحتقار إلى البدو وبسبب فقرهم وجهلهم.. فإننا كلنا كنا ذات يوم بدواً ثم روى لي أن البدوي يمثل على نحو ما الإنسان المثالي وبالتحديد في البسالة والقوة الجسدية والرجولة والإقدام في القتال ضد الغزاة وإكرام أقاربهم واصدقائهم المختارين.. والولاء والإخلاص للإسلام. وهم يريدون الحفاظ على أسلوب الحياة في كافة صوره كما كان على أيام الرسول.. مما سيثير في إعتقادي متاعب جمة يوماً من الأيام.

ــ كم عدد البدو الرحل اليوم في السعودية؟

ــ لم يبق منهم إلا أربعمائة ألف ولكنهم يمثلون الأساس للعائلة المالكة، والملك وولي العهد يخطبان ود البدو ويعتبران أنهما منهم.. إنهم جزء من تراثنا.

بعد كوب الشاي الثاني شكرته وذهبت لأتصل بتايلور وأخبره أننا توصلنا مع البدو إلى حل وسط وأن الهدوء قد حل على عنبر (ب ــ 2) مرة أخرى.

الفصْل السّادس

الشرق والغرب: يداً في يد

غالباً ما كنت أثور عندما أتخيل حياة الرهبان والقسيسين.
ولكن الأسبوع الأول في المملكة العربية السعودية جعلني أمر بهذه التجربة وقد بدأت أعيش بالفعل حياة الرهبان فلم تكن أياً من مستلزمات الحياة المتحضرة قد وصلتني بعد، اللهمَّ إلاَّ جزء من كتبي ومن متعلقاتي الشخصية وصلتني بعد شهر. أما الجرائد أو الكتب أو المذياع أو التلفزيون فلم يوجد شيء منها.ولقد أدركت الآن فقط قيمة وسائل الاعلام. كنت أعيش في حجرة وحيداً بدون أصدقاء، وبدون شيء يسري عني هم العمل أو حتى يزعجني. كنت أستيقظ في الصباح ثم أقضي كل الوقت في المستشفى ثم أتناول عشاءً بسيطاً ثم أذهب لأنام مجهداً وراضياً. ولقد وجدت في أسلوب الحياة هذا راحة البال والهدوء.
لم يستمر هذا الحال للأسف إلاّ عدة أشهر فقط، ولكني لن أنساها فلقد كانت تجربة لصفاء النفس. وكان وجودي يتركز فقط على حياة الآخرين.
وكانت حياتي بسيطة متحررة من حب التملك خالية من التنافس والاضطرار إلى إظهار القدرات والأهداف البعيدة والمسائل المالية. كان واجبي الوحيد هو مساعدة الناس ومحاولة شفاء المرضى. وطيلة هذا الوقت كانت هذه تجربة رائعة تمنحني شعوراً لا يمكن وصفه من السلام ومن الرضا عن النفس. وفي وقت لاحق قال لي طبيب صديق أنك تبتسم على الدوام ولكني لم أكن أعرف عن هذه الابتسامة أي شيء على الإطلاق. إنها تشع من داخل الإنسان. ولما كنت قد فقدت الإحساس بالوقت فإنني كنت غالباً ما أنظر إلى التاريخ في ساعة يدي لكي أعرف في أي يوم من الأسبوع نحن. ولما كانت لا توجد هناك عطلة أسبوعية بمفهومها الذي نعرف فقد فقدت أيام السبت والأحد معناها، لأنها تعد هنا من أيام العمل، وقد كان يوم الجمعة هو يوم الإجازة الوحيد، ولكنه كان يمضي كبقية الأيام. وغلباً ما كنت أقضيه في المستشفى في رعاية المرضى الكثيرين وأهتم بشؤون مرضاي في العيادة الخارجية. فقد كان الناس الذين أعالجهم في حاجة حقيقية لجهدي، وكان ذلك يمنحني شعوراً بالرضا، ولأول مرة في حياتي أشعر أنني شخص لا يمكن الاستغناء عنه. ولما كانت كل الأيام متشابهة فإنني كنت لا أعرف فأحياناً كنت لا أعرف بالتاكيد في أي قرن من الزمن نحن نعيش وفي بعض الأحيان حين كنت أنشغل تماماً بحياة سكان الصحراء وهم يعودون بي إلى الماضي كنت أفقد كل شعور بالزمان والمكان. ولقد سألت نفسي عما إذا كنت أحيا في القرن العاشر أو القرن العشرين. فقد بديا لي وكأنهما تشابكا مع

بعضهما البعض، فالاعلام الخارجي كان يدل على القرن العشرين أما هؤلاء الناس فكانوا يعيشون قبل هذا الزمن بألف عام.

وفي صباح يوم جمعة عندما كنت أقوم بعيادتي اليومية للأمير يوسف في غرفته وقع نظري صدفة على منظر جدير بالتسجيل. لقد كان هناك رجال لم أرَ من في أناقتهم طيلة حياتي. فكانت ثيابهم وعباءاتهم البيضاء من أرقى أنواع النسيج. وكانت بالطبع مشغولة بالذهب، ثم ألقيت نظرة خاطفة على أحذيتهم فوجدتها مصنوعة حقاً من أفضل أنواع الجلود وعلى ما أعتقد فإنها كانت مصنوعة في إنجلترا وإيطاليا.وكان معظمهم يحملون ساعات من البلاتين. أعتقدت أنهم قد وصلوا الآن فقط لأنهم كانوا يتبادلون القبلات على الخد والجبهة وطرف الأنف وحتى على الفم. ولقد كانت قبلات حانية ولكن مقصودة وحقيقية.

ولما لاحظ الأمير وجودي أشار لابنه أن يقوم بتعريفي لزائريه. وقد كانت أسماء البعض منهم قد سبقت لي معرفتها.

مثل سلمان، نايف، عبد الله، سلطان. وقد كانوا بين الخامسة والثلاثين والخامسة والأربعين من عمرهم. وكان لهم لحى ويتشابهون لدرجة تجعلك تخلط بينهم. فكانت هاماتهم هيفاء رشيقة معتدلة وكان لهم هيئة ملكية. ولقد كانوا من الطبقة العليا من عائلة بن سعود أخوة وأشقاء وأولاد عم، ارتبط بعضهم ببعض بصلة الدم وارتبطوا بابن عمهم الشريف الأمير يوسف. خطر ببالي فجأة أن الأمر هنا متعلق باجتماع عظيم غير عادي لأفراد العائلة المالكة، الذين يتحكمون مصير السعودية. لقد كان العالم الأصغر للسلطة في السعودية: صلب المجلس الملكي. وهو في بعض النواحي أقوى بكثير من أعضاء مجلس الرئاسة في الولايات المتحدة الأمريكية، وهو أغنى بلا شك. ولقد تحادثوا فترة بينما كان بعضهم يلتف حول سرير الأمير يوسف وبعضهم كان يضحك وبعضهم كان يمسك يده بيد الاخر، وقليل منهم كان جالساً على المقاعد بجوار الحائط. وبعد حين اتجهوا الأمير يوسف يطبعون القبل مرة أخرى على أنفه وعلى خده أو جبهته ويحتضنونه ثم يودعونه. وقبل أن يذهبوا مدوا إليَّ أيديهم يصافحونني في أدب وشكرني بعضهم باللغة الإنجليزية. كان الجو الذي أحاطهم جو صداقة بلا شك يحيط بجماعة أقران متحابة.وكانت الطريقة اللطيفة والودودة التي قبل بعضهم البعض بها وتشابكت أيديهم بها، تشير إلى صداقة حميمة عميقة حقيقية إلى رابطة إخلاص وحب واحترام بين الرجال فلم يكن هناك شيء أنثوي. كانت جماعة الرجال هذه أكثر ارتباطاً والتصاقاً بسبب العلاقة المقتصرة على الأزواج. ولقد عرفت أن العلاقة بين أقرب الأقارب والأصدقاء تكون عميقة وشخصية ولكنها تقتصر على نفس النوع إما الرجال وأما النساء. فالرجال والنساء لا يقيمون علاقات اجتماعية مع بعضهم البعض.

والرجال يرقصون في جماعات مع الرجال الآخرين والنساء لا يرقصن إلاَّ لأنفسهن ومع بعضهن البعض.
فالرجال لا يراقصون ابداً النساء، وفي حفلات الاعراس يحتفل الرجال في مكانهم منفصلين عن النساء بعدة كيلومترات. إن الارتباط العائلي قوي ولكن الفصل بين الجنسين أقوى. أثناء الأسابيع اللاحقة لما ردت إلى الأمير يوسف قواه ازدادت أحاديثنا وأصبحت أكثر شخصية وقد شعر الأمير يوسف باهتمامي به كإنسان وباهتمامي برؤيته للحياة وللمجتمع والحضارة التي يعيش فيها.
وبدأ يتحدث معي بصراحة أكثر وكالعادة كان كمال المترجم بيننا. وقد كان الأمير يجسد الجيل القديم للطبقة ذات الامتيازات. والتي حصلت من خلال المبالغ الكبيرة الممنوحة لها من الحكومة على إرث عظيم. وقد علمت أنه لكل امرأة من زوجاته الأربع قصراً في الرياض وجدة والطائف والمدينة. وحسب العرف الساري في السعودية فان القصر في الحقيقة ما هو إلاَّ فيلا كبيرة ذات عشرين أو ثلاثين حجرة، تحيط بها قطعة أرض كبيرة، تكون في الغالب ذات منظر طبيعي خلاب ويقيم الخدم عادة في مسكن منفصل على قطعة الأرض هذه. أما الخدم الخصوصيون والوصيفات فيكونون غالباً عبيداً أعتقوا، ويسمح لهم بالنوم على الأرض بجوار أسيادهم. وإقراراً للحق فإن هذه الفيلات لا تماثل قصر باكنجهام ولكن الأمير يملك أربعة منها متشابهة. في كل مدينة. وهو يملك بالإضافة الى ذلك مزرعة كبيرة على بعد ثمانين كيلو متراً من الرياض وحيث يربي الخيول العربية وجمال السبق. كما أنه له في شمال البلاد أملاكاً ذات قيمة عالية جداً. وعندما كنا نتباحث ذات يوم في أمور مالية قال لي: إنه مشترك في أعمال بناء. ولأن السعودية تنمو بسرعة فإننا نحتاج إلى الشوارع والمساكن. فقلت له: لابد أن يكون لك مشاريع ناجحة جداً. فالحكومة تصرف الكثير من المليارات على العمران. أما الشركة التي يملكها هو وحده فقد درّت عليه ربحاً إجمالياً يقدر بحوالي ثلاثمائة مليون دولار في السنة. ولديه أربعة آلاف عامل الكثير منهم من الأجانب.
ولقد أخبرني أن دخله السنوي يبلغ حوالي ستين مليوناً من الدولارات لا يدخل فيها مخصصاته التي تدفعها الحكومة فقلت بصوت مخنوق:
وهذا مرفوع عنه الضرائب أليس كذلك. فقال هو بصبرك نعم فالمواطنون السعوديون لا يدفعون ضرائب على الدخل لأن هذا لا يتفق بنحو أو بآخر مع تقاليدنا.
ولكن يوجد في السعودية فقراء كثيرون فماذا تفعل الحكومة من أجلهم؟
فقال سالم:

إن حكومتنا سوف تصرف لتنمية البلاد مائة وأربعين مليار دولار في خلال الخمس سنوات القادمة. يخصص منها ثلاثون ملياراً للإسكان والطرق والمدارس والمستشفيات ولتحديث مدننا، وهذا المال هو من حصيلة البترول، كما أن كل مواطن سعودي يستطيع الاقتراض من الحكومة ليبني بها بيوتاً وطرقاً ولا يدفع المواطن فوائد على هذا القرض.

قال الأمير إنه لا يدفع أي فوائد ، فهذا يخالف تعاليم الدين وهو يستطيع أن يرد هذا المال للحكومة في خلال عشرين عاماً، إذا شاء هذا ولكن الحكومة تعتبر أن القروض منحة للمواطنين الذين يساهمون في تنمية البلاد ولا تنتظر ردها، ويقتصر ما يستطيع المواطن اقتراضه على ستين ألف ريال وهذا ليس بالكثير ولكنه يكفي في البداية لرجل فقير. ثم سألته عن خدمه وبعد أن تحدث مع سالم قال إن عددهم يبلغ حوالي ثلاثمائة يعملون في القصور ويقومون على خدمة زوجاته ورعاية أولاده وكان الكثير منهم عبيداً قرروا بعد عتقهم في عام 1962م أن يبقوا في خدمة الأمير وأشار إلى الرجل ذي الخنجر المقوس والذي يحرس بابه وقال لقد اشتريت أمه الأثيوبية من سوق العبيد في الرياض عندما كانت في الخامسة عشرة من عمرها ثم اردف في فخر وهو له الآن خمس نساء وعشرة أطفال. وقد علمت أن الأمير قد تزوج الكثيرات وهو يحتفظ بأربعة دائماً على ذمته في وقت واحد. وهكذا بلغ مجموعهن أربعاً وثلاثين مضافاً إليهن عدداً غير محدود من الجواري وقد كان فخوراً بأبنائه الخمسة والعشرين. ولم نتحدث مطلقاً عن نسائه أو عن أي نساء أخريات فلم يكن من اللياقة أن أسأل عليهن أو عن صحتهن لأن ذلك سيعتبر تدخلاً في الشؤون الخاصة لحياة الأمير، فعلى سبيل المثال يسمح هنا بأن يسأل الأصدقاء كيف حالك وحال أبنائك ولكن لا تذكر النساء بأي كلمة. أما الأصدقاء الذين قضوا طيلة حياتهم معاً فإنه يجوز لهم السؤال. كيف حال من وراءك. وهذا تقريباً هو اقصى ما يسمح به للمقربين من الرجال بالسؤال عن الزوجة أو الزوجات.

***

أصبحت صحة الأمير تتقدم بصفة مستمرة فأخذ يجلس عدة ساعات كل يوم في المقعد. ويتمشى بمساعدة أحد الأشخاص في الحجرة وقد تكررت الفرص لنتحدث في حرية. ولكنه كان يجعلني بطريقة مؤدبة أشعر أنني ليس الا موظف من ضمن الموظفين ولقد لاحظت أنه لا جدوى أن أروي له عن هارفارد ودرجة الدكتوراه مع أني قد ذكرت له قبل ذلك،فقد أدركت بعد أن رأيت إيماءاته غير المعبرة، أنه لا يريد سماع شيء عن هذه ولا تلك، أما لقب البروفيسور فكان لا يترك أيضاً انطباعاً لديه. لان بعض الأطباء اللبنانيين في السعودية يطلقون على أنفسهم غير مبالين لقب البروفيسور ولقد حاولت أن أحدثه عن أبحاثي خاصة عن الكروم المشع والذي له

علاقة مباشرة بمرضه، عندما استخدمناه لنتتبع حالة النزيف التي أصيب بها. ولكنه كان يراني كأمين معمل يتهالك على أخذ دم منه للإختبارات المعملية.ولقد حاولت تفهم موقفه هذا فقد كانت العائلة الملكية تستورد أطباء من لبنان أو مصر يعملون لديها لمدة سنة وهم لا يعتدون بتلك المكانة الفائقة لوظيفتهم فمعظمهم يعاني من متاعب في بلاده، أو أن المال قد أغراهم وهم يكونون رهن أقل إشارة للأسرة المالكة. أما في الحالات الجادة فإنهم يقومون بتحويل المريض للأطباء المتخصصين. وقد كان هذا الوضع محيطاً من القدر ولكنه (أكل العيش). فبعض هؤلاء الأطباء يسكنون في أماكن بسيطة في حرم القصر ويقومون على خدمة العائلة المالكة عدة سنوات تماماً كالمحامين الخصوصيين. مع مرور الوقت أصبح أسلوب الأمير المتعجرف يحيرني وحيرني كذلك عدم قدرتي في إقامة علاقة أكثر قرباً معه.

وذات مساء خطرت لي فكرة رائعة. فقد كان في حقيبتي بعض الصور الملونة التي التقطت لبيتي في الربيع ظهر فيها زهور الليلك والجليزين المتفتحة تماماً. وشجر الزان الاحمر في أروع وأجمل صوره.

وكان منزلي بيتاً عتيقاً كبيراً مبنياً على الطراز الإنجليزي وتبلغ مساحته أربعة آلاف متر، كما جرت العادة بالنسبة لمنازل كثيرين في نيو إنجلاند.

وكانت توجد صور مشابهة التقطت في أكتوبر عندما كانت الأشجار المحيطة بالمنزل تمنح البيت منظراً رائعاً وصور أخرى التقت بعد هطول الثلج وكان اللون الأبيض يسطع بالبهجة.

ابتسمت عندما دخلت في اليوم التالي إلى غرفة الأمير ثم تحادثنا لعدة دقائق حتى شعرت أن اللحظة المناسبة قد حلت لأريه الصور فقلت:

أخ على فكرة، ثم سحبت الصورة من الحقيبة وأعطيته إياها أما التأثير فكان عظيماً. لأن الصور بالطبع تجمعان أكثر من ألف كلمة. فسألني وقد علت الدهشة وجهه بينما كان يشاهد الصور:

هل هذا منزلك؟

وقبل أن أستطيع الإجابة، هزَّ رأسه وقال: إنه أجمل من كل قصوري.

ــ ولكنك تملك ستة عشر.

فتمتم هو: الأرض، الأشجار، البساتين، .. رائع أتركت هذا كله لتأتي إلى هنا؟

ــ إن عالمنا يحتاج إلى بعضه البعض، فأنتم تملكون البترول ونحن نملك المعرفة العلمية والفنية.

ــ إن لي أبناً يدرس في بلادكم. وبعد استراحة طويلة استطرد قائلاً: بعد خروجي من المستشفى لابد أن تأتي لزيارتي في القصر وسوف يصطحبك سالم أو ناصر إلى هناك. لقد اختفى أسلوبه المتعالي المستهين، ولقد صرنا متساويين تقريباً.

وفي الأيام التالية تحدثنا كثيراً وقد كنا رجلين من مجتمعين مختلفين يحاولان تضييق هوة يبلغ مداها ألف سنة من خلال التفاهم المتبادل واحد منا ينتسب إلى أكثر بلاد العالم تقدماً في التقنية والآخر من بلد مجهولة بالنسبة لباقي العالم. واحد منا ينتسب إلى بلاد مفتوحة على مصراعيها للآخرين والآخر من بلاد مغلقة من جميع الجهات تحاول يائسة مواصلة إحكام إغلاق الأبواب على نفسها لتحمي شخصيتها وقد قال لي الأمير إنه لم يعبر حدود السعودية اللهمَّ إلاَّ في رحلته ضمن قافلة إلى مصر من سنوات بعيدة.

وما كسب في رحلته هذه كان كبير الطهاة المصري الذي أحضره معه من هناك والذي ما زال يعمل في خدمته.

كان من الواضح للغاية أن الدين هو أهم شيء في حياته. ففي صباه كان يحفظ القرآن عن ظهر قلب أما كل ما قرأه بعد ذلك في حياته فكان له علاقة بالقرآن وتفسيره أو بالشريعة الإسلامية التي تقوم أساساً على القرآن ثم استطرد بعد ذلك مقتنعاً كل الاقتناع: إن مجتمعاتكم تجهل أهمية الإسلام بالنسبة للحياة اليومية في السعودية وطالما لم تفهموا ذلك فانكم لن تفهمونا أو تفهموا تقاليدنا أبداً، إن الإسلام في عقولنا وفي قلوبنا كل لحظة. ثم اضاف مؤكداً: في كل لحظة.

فقلت: إنه يوجد فرق بين الدين المجرد في العالم الغربي وبين الاندماج الكامل بالإسلام كما هو الحال في السعودية. ثم أخبرته بالانطباع الذي تركه عندي منظر عمال الميكانيكا في ورش التصليح وهم يفرشون سجادة الصلاة على الأرض الملطخة بالزيت بين الأتوبيسات ثم يخرون ساجدين، وسفرجية الفندق كانوا يفعلون نفس الشيء في صالات الطعام، والمضيف الذي صلَّى في المطبخ الصغير، وبواب الفندق وهو يفرش سجادته ليصلي في طريق السيارات غاضاً البصر عن المرور والأجانب، وسائق التاكسي الذي خلع غطاء رأسه ووضعه على الأرض ليصلي فوقه، وربما كان منظر العبد السابق حارس غرفة الأمير الأجدر بالتسجيل، عندما أخذ ابن الأمير "ناصر" من يده ودخلا إلى البستان ليصليا معاً.. السيد والخادم كان ذلك منظراً مؤثراً...

وقبل أن يغادر الأمير المستشفى بوقت قصير كان قد اعتاد أن يتمشى في الممر أمام غرفته. وذات عصر يوم انضممت إليه. وبينما كنت أسير بجانبه وأتحدث معه أخذ يدي في يده. ففوجئت بذلك وجزعت في البداية ولكني تذكرت ان ذلك عادة مألوفة بين الأصدقاء الحميمين، وفي هذا

المجتمع الرجالي فإن تأبط الرجل الذراع صاحبه دليل على الصداقة الحقيقية. كان هنا الأسلوب هي الإشارة التي اراد أن يعبر بها عن اعترافه بالجميل. إن الشرق والغرب والذي يفصل بينهما ألف سنة في الحضارة والعلم والتطور الاجتماعي، كانا يسيران هكذا في الممر: يداً في يد ولم أعرف قط إجابة أكيدة لسؤالي عن من هو المتحضر أو الراضي حقاً. ولكني كنت أحاول أن أتخيل الأفكار التي تدور في رأس الأمير في هذه اللحظات.

فمن المحتمل أن يفكر الأمير: يحزنني حال هذا الكافر المسكين الذي لا يعرف الله مثلي ولا يعرف القرآن وعظمة وإخاء الإسلام وحب الله والرضا عن النفس بعد الصلاة والسلام والسكينة التي تنعم بها مكة والجزاء يوم القيامة.

ومن الجائز أنه يشفق عليَّ لأنني لا اسلم مصيري لله الذي يحرسني ويقودني إلى الخلود. أو يسأل نفسه هل يعرف هذا الرجل سكون الصحراء وسموها في الليل عندما يمد المرء يده فيكاد يلمس النجوم أو تلك اللحظة التي يهوي فيها الصقر من السماء وفي مخالبه فريسته. أو يسأل نفسه: كم أنا غني ببناتي الخمسة وعشرين وزوجاتي الكثيرات اللاتي تمنحني المتعة، كم أنا غني بحرمة عائلتي المصونة وبالفضيلة التي تتمتع بها بناتي.

ونحن لا نقبل القتل أو الزنا. وبيوتنا ومدننا آمنة وخالية من الجريمة وحياتنا آمنة. ونحن شعب بسيط ولكننا شعب راض.

أما أنا فكنت أفكر أن هذا الرجل الذي يمسك بيدي لم يذق طعم ثمار المدنية الغربية: موسيقى بيتهوفن وموتسارت وأدب شكسبير وميليتون وبريق الأوبرا.

الصوت الساحر لكالا وسوثرلاند أو كاروزو، أو اللوحات الخيالية للباليه وكلما يبعث الحياة في الرجال والنساء لينطلقوا بمواهبهم بلا عوائق. أما عبقرية رمبرانت أو سيزان وفلسفة أرسطو أو أفلاطون أو سقراط فهي لا توحي إليه بشيء بالمرة.

لا شيء من هذا موجود لديه، إنه سعيد وراض لأنه لا يعرف قيمة ما فاته.

إن الحركة لا يكون لها صوت إلاَّ إذا كان هناك من يسمعها فلابد أن يمسك الإنسان بناصية العلم حتى يصير حراً ولا بد للإنسان أن يعرف كل الفنون حتى يشعر برقيه. مضينا في سيرنا صامتين يمسك كل منا يد الأخر.

ثم فكرت أننا نحن شعوب الغرب ورواد التقنية:

الكهرباء والسيارة والتليفون وجهاز التكييف والتليفزيون والطائرة ورحلات الفضاء ونحن رواد الطب، نبذل جهدنا للاهتمام بصحة الشعب، بحياة أطول، بنسبة أقل في وفيات الأطفال وبالوقاية الطبية والبيولوجيا الجزئية، فلقد خرج من بيننا عظماء الفيزياء ونحن رواد في الاشعاع (الذري)

والطب النووي وأشعة الليزر، نحن الذين جزّءنا الذرة واخترعنا القنبلة الذرية وطورنا الطاقة الذرية والميكروسكوب الالكتروني والتلقيح الصناعي والناس عندنا أحرار والنساء عندنا يتمتعن بالحرية وننعم بأعلى مستوى معيشة في العالم ونحن الرجال الخوارق بلا حدود. ولكننا في الولايات المتحدة نعاني من الاضطرابات العنصرية وجرائم السطو وإشعال الحرائق والقتل في الشوارع وتدنيس الكنائس والمعابد، والاغتصاب. والنساء عندنا يتمتعن بحريتهن، ولكن هناك إفراطاً في الحرية الجنسية، ولدينا مشاكل مع المخدرات والخمر وكذلك أعلى معدل للجريمة في العالم وما زال عندنا أحياء بائسة.

والانتخابات عندنا حرة ولكن عندنا أيضاً "ووتر جيت" ورجال سياسة مرتشون فاسدون يتقلدون أعلى المناصب، والاضطراب العصبي تفشى عندنا والصحة العقلية نفتقدها ويوجد إنحلال جنسي.

فمن منا إذن أوفر حظاً من الأخر، من يشعر بالكمال أكثر من الآخر: لست متأكداً.

ابتسم لي الأمير وضغط على يدي ثم سألني.

"جوود".

فرددت عليه بابتسامة مقتضبة وقلت: "كويس".

الفصْل السّابع

سباق الجمال

بعد ذلك بقليل غادر الأمير المستشفى وبعد عدة أسابيع اتصل بي ناصر، كما وعدني، ليدعوني إلى سباق للجمال ثم أتى واصطحبني من المستشفى في سيارته المرسيدس.

كانت حلبة السباق والأستاد الرياضي يقعان في شمال شرق الرياض غير بعيد من الطريق المؤدي إلى المطار.

وقد بنيت حلبة السباق من وقت قريب وكانت واسعة وتستحوذ على الإعجاب أما مدرجات المتفرجين فكانت صغيرة الحجم جداً ولكنها كانت مبنية بذوق رفيع، سقفها المنحدر يرتكز على أعمدة بيضاء وفي الأمام يوجد صفان من المقاعد الجلدية الكبيرة والعميقة وعلى ما أظن كانا مخصصين للعائلة المالكة. وكان عدد المقاعد يبلغ حوالي خمسمائة فقط.

كان الأمير يرتدي الثوب الأبيض وعباءة ملكية زرقاء رائعة مشغولة بالذهب وكان بصحبته اثنان من إخوته حديثي السن. أصغرهما كان في السادسة عشر تقريباً وكان أجرد الذقن أما الأخ فكان يكبره بعدة سنوات، وكان له شارب خفيف. جلسنا في الصف الأول، الذي كان محجوزاً للعائلة الملكية.

ولكننا لم نجلس في وسط الصف لأنه كان يبدو محجزاً للملك وولي العهد. وكان هذا الجزء مميزاً بعدد من السجّاد الكبير ذي الألوان البراقة وعليه مقاعد مخملية كبيرة زرقاء. أما حلبة السباق فكانت محاطة بسياج خشبي أبيض. وفي الحلبة كانت تقف الجمال وحيدة السنام وبجوارها الحداة.

قام أحد الأشخاص بتوزيع أربعة أوراق منسوخة تحتوي بنهايات تفصيلية عن كل سباق ففي البداية سباقان للجمال يتبعها بأربعة للخيل وكذلك بيان المسافات والجوائز لكل سباق.

وكانت الجائزة المخصصة للسباق الأول جائزة هزيلة تبلغ حوالي الفين وخمسمائة ريال أما المسافة فكانت أكثر من الفين وثمانمائة متر..

قال لي ناصر: على نحو ما فإن البدو كانوا مثل الهنود الحمر عندنا فقد كانوا مقاتلين شرساء وقناصين وقد كانوا في كفاح دائم مع الطبيعة فالبرغم من الشمس الحارقة في الصحراء وقلة الماء فإنهم يستطيعون أن يعيشوا لزمن طويل على لبن الجمال وبعض التمرات.

ــ لقد قرأت في موضوع ما أن البدو ــ كالهنود الحمر ــ سيملكون الحاسة السادسة للاسترشاد بظل الشمس على الرمل وبالنجوم وبالريح.
ــ لا شك في ذلك، فهم يعرفون طرق الصحراء بدون بوصلة فإذا ضلُّوا فإن ذلك يعني نهايتهم، كما أن حياتهم تتوقف على الجمال.
فالجمل كان أكثر أهمية للبدوي من الحصان للهندي الأحمر. ثم القى ناصر محاضرة عن الجمال علينا:
ان الجمل وسيلة الانتقال الوحيدة للبدوي في الصحراء وكان أيضاً في معظم الأحيان مصدر غذائهم الوحيد. فكان لا يمكن الاستغناء عنه، لأنه كان يستطيع تحويل الماء غير الصالح للشرب إلى لبن مغذ، وأعشاب الصحراء إلى لحم، وكان جلده يمنح المأوى والملابس للبدوي وكان زبله يستخدم كوقود للطهي أو للتدفئة في ليالي الصحراء الباردة، وكان من الطبيعي أن يستخدم في النقل، وكما ترى فأن الجمل كان يمثل أهم أسس الحياة للبدو لمئات السنين، وإحلال سيارة النقل محل الجمل يعني كارثة بالنسبة لهم.
بدأ العمال بسحب الجمال هنا وهناك من أجل الإحماء وقد كان منظر الجمال غريباً بلا شك بالنسبة لي: "كيف يستطيع المرء امتطاءها بدون أن يسقط؟ وقد كانت تعطي إحساساً بالبلادة.
ــ هل عرفت يا دكتور جراي أن الجمل يستطيع أن يخزن في بطنه مائة وخمسين لتراً من الماء دفعة واحدة. وأن له سناماً سميناً يتقلص إذا أسرفت في إجهاده. وهو يماثل مؤشر البنزين بالنسبة للحداة.
والسنام يخزن دهوناً لوقت يحتاج فيه إلى الطاقة إنه نوع من خزانات البنزين الطبيعية.

***

بدأ السباق الأول في الخامسة عصراً ــ لم يكن هناك شريط بداية ــ ووقفت الجمال السبعة في صفوف وبعد إعطاء إشارة بدء السباق انطلقت الجمال تتبختر.
كان منظر في البداية مضحكاً جداً فالفارس يجلس على سرج خلف السنام مباشرة بينما ثوبه الطويل يرفرف في الهواء.
ولم تكن هناك رُكُب وقد حمل كل جمل سلسلة ملونة على رقبته مثبتاً فيها الزمام.
وتستطيع جمال السباق أن تركض لاكثر من عشرين كيلو متراً في الساعة بينما الفرسان يتأرجحون عليها.
لقد كان مشهداً ممتعاً.

كان يبدو ذلك معجزة أن الفرسان استطاعوا أن يتماسكوا ولم يسقطوا. وقبل النهاية كان جملان يركضان سباق الموت. كان واحد منهما ملكاً لناصر فوقفت وأردت أن أشجع"جملنا" بهتافات تحمسه ولكني لاحظت أن الصمت التام يخيم على المنصة منذ البداية وحتى هذه اللحظة الحاسمة.

وقد كان ناصر وأخوه يشاهدان السباق صامتين غير مبالين حتى أنه لم يهتز لهما جفن ولم يبديا أي حركة ولم يظهرا أي بادرة ضئيلة من الإنفعال.

أنهى جمل الأمير هذا السباق القصير للغاية وحصل على المركز الثاني ولكن وجه ناصر بقي جامداً. فلم أستطع أن ألحظ أي علامة لخيبة الأمل. كانت مسافة الساق التالي تبلغ ألف وأربعمائة متر، مسافة أصغر بكثير من مسافة السباق الأول. أما الجائزة فكانت ثلاثة آلاف وخمسمائة ريال.

وعاد الصمت يخيم مرة أخرى.

فسألت ناصر إن كان هناك رهان..

فرد: إنه ضد التقاليد.

ظننت أنه ملتزم بالصمت لأنه لم توحد إثارة حقيقية ولوجود مائة وخمسين متفرجاً فقط.

ثم قال ناصر: إن معظمنا هنا أصدقاء ونحن نهتم بالتربية بالدرجة الأولى والجائزة تمنح للفرسان وخدم الأسطبل.

وبعد إنتهاء السباق أخبرني عن حدث رائع أصرَّ على حضوري إياه:

"ماراثون الجمال" والذي يشترك فيه عادة أكثر من ستمائة جمل وفارس وتبلغ مسافة السباق حوالي أربعين كيلومتراً. وقد خصصت جوائز مالية للفائزين الذين يحرصون على المراكز الثلاثة الأولى. وعلاوة على ذلك فإن كل مشترك ينهي السباق يحصل على مكافأة تعادل مائة وخمسين ماركاً مما يمثل إغراءً حقيقياً للبدو المشتركين في السباق.

ولما رويت ذلك لويستبروك قرر بفرح حضور الماراثون وجهز قافلة من أربع عربات.

****

ركبت اللاندروفر الكبيرة مع فيليب وماندا ودوريس وآل.
أما الإشارات الوحيدة التي حصلنا عليها لمعرفة الطريقة إلى الماثون فكانت منشورة في جريدة المستشفى "صحيفة الرمال". ففي ذلك الحين لم تكن هناك لافتات طريق. أما تحديد الطريق فكان يتم عادة باستعمال العلامات المألوفة على الطريق منها مثلاً: مصنع تعبئة البيبسي كولا، أو مبنى التويوتا أو عربة نقل مقلوبة، كان نص الإرشادات هكذا:
ــ "سر على الطريق المؤدي إلى الظهران حوالي ثمانية كيلو مترات بعد مبنى التويوتا ثم انحرف إلى اليسار وواصل سيرك لمسافة أربعة كيلو مترات حتى تجد تل من الرمال فانحرف يميناً، واتخذ الطريق الترابي حتى تصل إلى عربة نقل مقلوبة وعند أول مفترق طرق بعد عربة النقل إنحرف إلى اليسار"... أما نهاية الماراثون فكانت إحدى الواحات التي تقع على بعد، حوالي ثلاثين ميلاً من شرقي الرياض.
وقد عثر عليها فيليب بسهولة، وعندما اقتربنا منها رأينا نصف دائرة من الأعلام الخضراء البراقة على كل منها شعار السعودية ترفرف على الهواء.
كان الصباح صحواً ومشمساً ولطيفاً.
وكان هناك مئات العرب في ثيابهم التقليدية وبعض الأجانب في الملابس الإفرنكية يتزاحمون للفوز بافضل الأماكن.
بينما كان أعضاء الأسرة المالكة يجلسون على مقاعد وثيرة، موضوعة على السجاد ملون أمام خط النهاية.
وكان بينهم الأمير عبد الله القائد الاعلى للحرس الوطني والذي يقال عنه أنه المرشح القادم لمنصب ولي العهد.
وكذلك الأمير سلطان وزير الدفاع والقائد الأعلى للجيش .
أما الملك وولي العهد فكانا يجلسان في الوسط على مقاعد خاصة تشبه العرش وكانت أكبر وأفخم من كل المقاعد الأخرى.
أما خط النهاية فكان محدداً برايتين صغيرتين وعلى الجانبين كان يقف صفان من الحرس الوطني في الزي الكاكي.
كان المارثون قد بدأ، وكل بضع دقائق كان الميكروفون يعلن خبراً في صوت مكتوم وعلى وتيرة واحدة.

فقام "آل" بإخبارنا أن الجمل في المقدمة يملكه أحد أبناء الملك خالد. ثم سألنا وهو يبلع الحروف الحلقية كالعادة: هل يراهن أحدكم عليه. ولكي أجعل الأمر مثيراً إلى حد ما قلت: أراهنك بعشرة ريالات.

فقال: أنت مجنون، لأنه لا يوجد من يحاول أن يسبق جمل الملك.

فقلت: لا أحد يعرف فقد يسقط جملة في الطريق.

نظر إلي مبتسماً وهو يفكر في الأمر.

وبعد نصف ساعة استطعنا أن نرى جملاً على بعد مسافة بعيدة وعندما تخطى الفارس خط النهاية رمى نفسه على الأرض من الأعياء الشديد. فقبض أحد الجنود على زمام الجمل.ولم يصفق أحد.

وبعده بقليل ظهر جملان آخران وكانا أيضاً من جمال العائلة المالكة ــ على حد قول آل ــ الذي كان يضع بفرح في حافظة نقوده العشرة ريالات التي كسبها مني بينما كان المذيع يهنيء الفائزين الثلاثة الأوائل. ولاحظت أن أحد الحكام يكتب أسماء الفائزين الذين أخبره عنهم الجنود على خط النهاية.

بعد دقائق ظهر طوفان من الجمال كانت تتخطى خط النهاية في مجموعات تتكون من أربعة أو عشرة جمال وفي بعض الأحيان أكثر من ذلك ولم تتح الفرصة للتعرف على الفرسان أو الجمال، ولم نستطيع التمييز بينهما من خلال اللون أو العلامات. وكان الفرسان الذين يضعون الكابات على رؤوسهم يعقدون ثيابهم الطويلة فوق الركبة ويترنحون خلف سنام الجمل ممسكين بالزمام كما لو كانوا يقبضون على حياتهم، وعندما يعبرون خط النهاية يسلمون الزمام لأحد الجنود ويذكرون أسماءهم للحكام، الذين يقومون بتسجيلها.

وكان كل منهم يتسلم مكافأته على إنهاء السباق.

ثم ظهر شبح فجأة على بعد ثلاثين متراً في النهاية: كان أحد البدو، سقط من جمله ويمسك بزمامه لينهي المارثون على قدميه.

كان هذا منظراً مثيراً للشفقة.

كان ثوبه قذراً وممزقاً وكان قد فقد فردة من صندله وكان وجهه وركبتاه داميتين ومتسختين. وكان بذراعيه جروح دامية. ثم عرج على خط النهاية بينما كان يقبض على زمام مله الذي أثار أيضاً هو الشفقة. ولكنه كان يرفع رأسه ويمشي فخوراً. كان شيء من الغرور يوجد على هيئته وعندما ذهب إلى الحكام ليملي عليهم إسمه، رفض هؤلاء الإعتراف بإنهائه القانوني للسباق: فاستشاط غضباً وتطاير من عينيه الشرر وصرخ أريد التحدث إلى الملك فأنا أعرف حقوقي.

تجمع سرب صغير من بعض الجنود وصحفي يتكلم بالإنجليزية، قام بترجمة الأحداث لي، ثم ظهر واحد من حاشية الملك وبيده مفكرة، وكان يرتدي زياً رسمياً.
وبينما كان البدوي يمسك بجمله كان يردد بغضب يتأجج: أطلب الحديث إلى الملك.
وشرح لي الصحفي: ان المجلس "هو أحد التقاليد البدوية العريقة وهو يسمح لكل مواطن بتقديم احتجاجه أو التماسه إلى الملك مباشرة أو إلى ولي العهد أو لمسؤول حكومي كبير.
وكانت المجالس تعقد بانتظام بين حين وآخر والكل يستطيع أن يشارك فيها ويقدم احتجاجه.
ثم استطرد في سعادة:المجلس يعقد في سباق الجمال، إنها قصة رائعة آمل في نشرها...
كان الملك يقف على مسافة في الصف الأول ويحادث أصدقاءه والموظفين الكبار بينما كان الرجل ذو الزي الرسمي والمفكرة يقترب من الملك خالد ويتكلم معه قليلاً ثم يعود البدوي ويقول له: تفضل الملك سمح باستقبالك.
أعطى البدوي اللجام لاحد الجنود ثم اتجه ناحية الملك وهو يعرج. وشرح له أنه سقط من على ظهر الجمل على مقربة من خط النهاية وأنه هو والجمل قد أنهيا السباق بالرغم من أنه لم يكن ممتطياً الجمل، لقد كان مقتنعاً بحقه في مكافأة إنهاء السباق.
فكر الملك ثم أعلن موافقته، ثم كلف معاونه بتسجيل اسم البدوي في قائمة المكافأة.
ولكن البدوي المختال المغرور لم يشكر الملك واستدار وذهب ليسترد جمله، ثم اختفى بين الجموع.
آه.. لو سنحت لي فرصة محادثة رئيس الولايات المتحدة لبرهة قصيرة جداً في سباق كنتاكي دربي!!

الفصلُ الثامِن

بل أنت

مضى شهران وأخذت حياة الرهبان التي كنت أعيشها تقترب من نهايتها. لقد كانت عودة تدريجية كدت لا أشعر بها، عودة إلى الحياة الطبيعية. لقد وصل صندوق كتبي من بوسطن وبدأت أقرأ مرة أخرى في المكتبة الصغيرة القريبة مني كانت تباع جريدة "عرب نيوز" الجريدة الناطقة بالإنجليزية وكذلك جريدة "انترناشيونال هيرالد تربيون" وقد كنت أهجم على الجريدتين ألتهمهما. وقد لاحظت أنه شيء كالإدمان: كنت كائناً اجتماعياً لا يريد أن يبقى منعزلاً.

ذات يوم، بعد اكتشافي لهذه المكتبة لاحظت أن أول نسخة لجريدة "تربيون" الموجودة في اعلى الصف، كان بها ثقب في الصحفة الأولى. فقلت: شيء غريب. ووجدت نفس الثقب في النسخة الثانية، كانت كل النسخ مثقوبة في صحفتها الأولى والتي كان مرسوماً عليها خريطة للشرق الأوسط.

لقد قام الرقيب بقص دولة إسرائيل من الخريطة. لان إسرائيل حسب رأي العرب ليس لها وجود.

كانت زوجتي ستطير من لندن وتأتي اليَّ في الرياض وقد كنت مسروراً للقائها مرة أخرى. ولكني تذكرت بفزع حجرة اليمامة التي لا أحسد عليها والتي ستكون منزلاً لنا. وقبل وصولها ــ حسب خريطة الرحلات ــ اتصل بي فيلب ويستبروك ليخبرني أن هناك جناحاً يشبه الذي يسكنونه، سيكون خالياً قريباً ونصحني بأن أسجل حقي في هذه الشقة بأن أقوم بإحضار عدداً من حقائبي إلى هذا المسكن قبل أن يتركه المستأجر الحالي وقد أكد لي فيليب أن هذه هي الطريقة المتبعة. أما المستأجرون الذين كانوا سيغادرون الجناح في القريب العاجل فقد كانوا متفهمين جداً فلقد استعملوا نفس الأسلوب من قبل. استقبلت الجماعة الإنجليزية زوجتي "روث" بكل ترحاب مما جعل حياتي بعد وصولها تتغير فجأة، إنه شيء مدهش هذا الذي تستطيع المرأة أن تفعله. فقد غيرت معالم الشقة بأن لصقت على كل الجدران تلافيع بشريط لصق.. ولكنها كانت تسقط من حين لأخر..لكننا كنا نملك كمية كافية من الشريط اللاصق، ولدى روث كميات كبيرة من التلافيع الجميلة. ولأنه لم يكن عندنا صوان فاننا علقنا ملابسنا على يد المقشات التي قمت بتركيبها في الركن في حجرة النوم.. تماماً مثل فيليب . وبالرغم من أن حياتنا في "الشرق" كانت

مختلفة عنها تماماً في بيتنا في بوسطن فإن روث تأقلمت عليها بصورة مدهشة وكنا غالباً ما نضحك من كل هذه المتاعب فكنا نعرف أنها فترة مؤقتة وكنا نخرج بأفضل النتائج.
كانت زوجتي رسامة وقد قامت قبل عدة شهور بإرسال كل الألوان والفراشي والمواد الأخرى عن طريق البحر إلى الرياض وبعد وقت قصير من وصولها بدأت في الرسم مرة أخرى أما المشاكل الحقيقية الوحيدة فكانت تتلخص في الإنتقال والتقاليد التي تحرم على المرأة مغادرة الفندق الا في صحبة إمرأة أو إمرأتين أخريين .. فحاولت أن أعثر على سيارة وسائق ولكن اتضح أن هذا مستحيل. وكنت أدفع لهم ما يطلبون فيجيئون يوماً أو يومين ثم يختفون بلا أثر وفي النهاية لجأت النساء إلى التاكسي والذي كان وسيلة آمنة بشرط ركوب أكثر من إمرأة معاً وكانت أتوبيسات المستشفى تتوقف مرتين في الأسبوع أثناء رحلاتها أمام المحلات التجارية أمام الفندق. وذات يوم وضعنا أنا وناصر خطة وهو أن نرجو روث أن ترسم صورة للأمير يوسف ثم نقدمها له في القصر كمفاجأة.
ثم أعطاني ناصر صورة لوالده بعد أن أخذ مني وعداً بألا أبوح لأي شخص عن اسم من أعطاني إياها.

***

كانت روث أيضاً ترى أن رسم أمير سعودي أمر شيق ولقد أعجبت بالصورة للغاية.
يتطلب رسم صورة منها عدة شهور وبمساعدة إحدى الصديقات الفنانات استطاعت أن تحصل على إطار ذهبي جعل الصورة رائعة.
رتب لنا ناصر لقاء في القصر حيث نكشف عن الصورة.
ولم يعرف الأمير السر الحقيقي لهذه الدعوة ولكنه كان يعلم أنني سأصطحب زوجتي معي.
قبل أيام قليلة من الزيارة اتصل بي سكرتير الأمير في المستشفى وأخبرني أن الأمير بحاجة إلى مزيد من الدواء. وعندما قابلت السكرتير ذات الخمسين عاماً في المستشفى حدثني على نحو غير مباشر عن موضوع الدعوة وقال:
إن الامير سيسعد بزيارتك يوم الجمعة وكان من الظاهر أنه لا يعرف شيئاً عن الصورة.
ــ نعم ونحن أيضاً سنسعد بذلك وسوف أصطحب زوجتي معي بهت الرجل وبدت عليه إمارات التعاسة وقال سيدي الدكتور جراي، لست أدري إن كنت ستتفهم ذلك ولكن الأمر سيكون محرجاً لو ذهبت زوجتك إلى لقاء رجلا.
وحاول السكرتير أن يفهمني على نحو مؤدب الا أقدم على فعل يتسم بالحماقة.

ــ إني أفهم ذلك تماماً ولكنها ليست سعودية إنها أمريكية، ولسوف أشعر بالضيق لو لم تأت معي لقد حكيت لها الكثير عن الأمير فقال مؤكداً: إن ذلك ضد التقاليد.

لقد كان هذا هو السبب الحقيقي الذي اتى من أجله ولم يكن عندي النية على الإطلاق أن أحتج بأن زوجتي هي التي رسمت الصورة للأمير وعلى هذا السب قامت الدعوة. ولذلك قبلت المغامرة وقلت للسكرتير: قل للأمير أنه من دواعي سعادتي أن أنزل ضيفاً على الأمير ولكني أجد من غير اللائق أن لا آخذ زوجتي معي.. فأصر السكرتير على موقفه وقال بنبرة حادة إن ذلك ضد التقاليد، ولسوف يقابلك الأمير بالرغم من ذلك يوم الجمعة ثم تصافحنا. وعندما غادرت المستشفى كانت التعاسة تبدو على وجهه.

عندما أتى ناصر يوم الجمعة ليقودنا إلى القصر كنا قد شرعنا في وضع الصرة الذهبية في قطعة قماش كحلية اللون لينة النسيج. ثم حملت الصورة بحرص ووضعتها في السيارة وعرفت ناصر بزوجتي.

فقال باحترام "مرحباً" ومد يده يصافحها ثم استطرد آمل ألا يسبب لقاؤك بأبي أي ضيق فهو لم يتعود أن يكون في حضرته نساء في مثل هذه المواقف، ولكنه من الطبيعي أن تكوني موجودة في هذه المناسبة الخاصة. قاد ناصر سيارته بجنون فوصلنا بسرعة فائقة إلى القصر ففتح أحد الخدم بوابة ضخمة ظهر خلفها فناء محاط بأسوار ضخمة لنشق طريقنا إلى حيث يسكن الأمير يوسف وسار بنا ناصر في فناء به أربع فيلات تتشابه كلها تماماً وعلى ما أظن فإن هذه الفيلات تخص زوجاته كانت الفيلات تتخذ شكل المربع ولكل منها "تراس" وحديقة خاصة بها.

وبدت المساحات الخضراء والمعتنى بها عناية فائقة وكان جمالها يمنعك من أن تطأها وكانت شجيرات مقلمة بطريقة جميلة تظهر كخلفية لأحواض الزهور العليلة الغنية بالألوان.. فمضينا إلى الفيلا يسار المدخل واخترقنا بهواً ذا سقف عال على نحو غير عادي ليبقي على الطقس بارداً ومع أن الفيلات كانت في حجم القصر إلاَّ أنها كانت تفتقر إلى الذوق فلم يكن هناك أثاث تقريباً.

اصطحبنا خادمان إلى غرفة معيشة كبيرة، حيث كان ينتظرنا سكرتير الأمير الذي كان يقف متصلباً مبهوتاً وتملكني شعور بأن هذا اللقاء سيكون فاتراً لأن روث قد أتت معي برغم التحذيرات.

أصابنا الذهول لما رأيناه من افتقار إلى الذوق في بيت هذا الأمير الثري ثراء خيالياً.

كانت أرائك مخملية وثيرة ذات لون بنفسجي باهت تحتل جانبي الحجرة أما الجدران، المعلق عليها ستائر سميكة، فبدت جرداء مقبضة، فلم يعلق عليها صور أو لوحات تبعث الحياة في هذا

الجمود (حتى المرآة فهي محرمة على بيت المسلم المتشدد). وكانت هناك سجادة صينية ذات لون صارخ تغطي الأرض، اما الزينة الوحيدة على الحاطئ فكانت عبارة عن إطار ذهبي لشجرة العائلة. كل شيء هناك كان يعطي إنطباعاً بالسأم والكآبة.

كان الأمير يجلس في ركن إحدى الأرائك ويلبس ثوباً أبيض طويلاً وغطاء رأس ذا كاروهات حمراء وبيضاء ولقد أعجبنا لاحتفاظه بهيئته الملكية وسحنته الكريمة حتى وهو جالس. ولكنه عندما رأى روث بدا عليه الإندهاش والذهول، وحاول أن يخفي ضيقه فوقف وأحنى رأسه عدما قدمت له روث. وقد بدا عليه أنه طويل عن ذي قبل. ثم اغتصب ابتسامة عندما نظر الي وكأنه نسي الصداقة الحارة التي قامت بيننا، وتأبط الذراع عندما كنا نسير في الممر ونتحادث وكذلك المناقشات الطويلة عن حضارتينا. فها هنا يتصادم الشرق والغرب وجه لوجه لأنني أحضرت امرأة إلى بيته وإن كانت زوجتي، وفوق ذلك إمرأة جذابة. وقد كان يرغي ويزبدْ: "ماذا تفعل هذه المرأة هنا". تبادل ناصر مع أبيه بعض الكلمات بالعربية وكان من الظاهر أن الموقف كله يسبب الضيق للأمير فقد كانت نظرته حزينة وظهر الهول على ملامح وجهه المتألمة ولم يفهم الذي يحدث، وعلى ما أظن أنه كان يفضل أن تنشق الأرض وتبلعه.

إن وجود إمرأة في قصره شيء لا يطيقه، وبدون أن ينبس ببنت شفة رفع سماعة التليفون بجواره وطلب كالعادة القهوة بالحبهان والشاي.

وأثناء ذلك كان الخدم قد أحضروا اللوحة بغطائها الأزرق ووضعوها على المنضدة، وبعد أن تم تقديم القهوة،وأشار الأمير إلى اللفة الزرقاء العريضة وسأل: ما هذا يا ناصر؟

فرد ناصر: إنتظر يا أبي ثم ذهب إلى المنضدة وسحب الغطاء عن اللوحة بحرص وكأنه يرفع الطرحة عن وجه عروس ثم وقف بجوارها وقدم اللوحة المدهشة إلى الرجل صاحب الصورة.

نظر الأمير شاخصاً مشدوهاً إلى اللوحة ولكنه لم يظهر أي انفعال ثم أبعد نظره عنها غير مصدق.

ثم أخذ ينظر متأملاً الصورة مدققاً. فلاحظت أنه يقدرها وبالرغم من أنه لم يقو على الإبتسام ولم يطرح أي سؤال إلا أنه كان يعرف أنها جيدة.

كسرت حاجز الصمت العميق وقلت حاسماً الموقف: "أمير يوسف" ثم سكت برهة عن عمد ثم رجعت إلى الوراء وابتسمت وأردفت الجمل، لم يستطع الأمير أن يصدق هنا. فأتسعت حدقتاه ونظر الي وقال في غضب: لا، بل أنت.وحتى يؤكد عليَّ ما قاله كرر: بل أنت الذي رسمها.

ــ سمو الأمير، أنا لا أستطيع أن أرسم، إن زوجتي تشتغل بذلك منذ سنوات طويلة. لقد درست هذا الفن وأنا لا أستطيع أبداً أن أفعل مثلها. هل فهمت الآن إصراري على إصطحابي لها.. إنها هي التي رسمت لك هذه التحفة.

ولكن الأمير لم ينظر إلى روث بالمرة. واستمر يرشف قهوته ببطء ثم قال بإصرار: بل أنت الذي رسمها.

****

لم يكن هذا المساء مملاُ، لسبب واحد وهو أنني كنت مفتوناً بمراقبة الأمير لضيقه لوجود إمرأة في حضرته. ولقد كان الموقف غير معقول بالنسبة لي تماماً وبالنسبة له.

وكانت روث سعيدة مبدئياً برد فعله. . وهي لم تكن بحاجة الى اعترافه لتدرك أن الصورة كانت تشبهه على نحو هائل. أما هو فكان لا يستطيع أن يصدق أن امرأة هي التي أنجزت هذه الصورة الرائعة.

ثم إنني قابلت الأمير بعد ذلك في عدة مناسبات وفي خلال ثلاث سنوات كانت الأمور تسير على نفس المنوال وبدلاً من أن يقوم قائلاً في حرارة "مرحباً" كان الآن يبتسم فقط ويقول مؤكداً أنت الذي رسمتها.. فهو ما زال غير مقتنع...

الفصْل التاسع

حديث مع الأميرة

منذ منتصف ديسمبر أصبحت حياتي تسير على نظام، كان حسب المقاييس الأميركية مغرياً جداً ولكنه كان مريحاً وقريباً من نفسي.

ولاحظت أنني قد تعودت ببطء على الإنطباعات الخارجية والروائح الخاصة بالشرق الأوسط: فقد تعودت على الحجاب الأسود للنساء وغطاء الرأس الفاخر الملون للرجال، والعطور النفاذة التي يغرق فيها الرجال والنساء.

****

اصبح جو الرياض أكثر برودة وانخفضت حرارة الظهيرة الخانقة ــ والتي كانت الخمسين ــ الى اثنتين وثلاثين درجة يستطيع المرء تحملها، وقد لطف الهواء الجاف الآتي من الهضبة العالية من جو أوقات العصر في هذا الشتاء، فكنت أقوم بالتنزه طويلاً في المدينة خاصة وقت الغروب عندما يتحول لون الشمس إلى برتقالي ناري رائع.

وكذلك كان عملي في المستشفى قد انتظم وأصبحت احتمالاته معروفة، فالمرضى ليسوا مخلوقات غريبة من عصر آخر ولكن بكل بساطة سعوديين، كل منهم يشبه المئات التي وقعت تحت يدي في المستشفى. ولأنني كنت أحتفظ بعلاقات مع أفراد العائلة المالكة فقد زال عني هذا الشعور بالرهبة، والذي تملكني عند لقاءاتي الأولى بهم، وحلَّ محلها التقييم الموضوعي.

وعلى حد معرفتي كان هناك ثمانية آلاف شخص تقريباً يطلقون على أنفسهم لقب الأمير أو الأميرة، مما أدَّى إلى أن يفقد الاسم الملكي بريقه.

ولقد لاحظت أنني أفضل علاج البدو على رعاية أفراد البيت الملكي لأنه كان هناك شيء من الغرابة والسحر في البدو.. سكان الصحراء.

وكانت النساء البدويات ــ على وجه الخصوص ــ يثرن دهشتي، ففي كل مرة كانت تأتي فيها واحدة منهن إلى العيادة الخارجية كنت أجد نفسي في مواجهة مع نظام اجتماعي مختلف.. ولقد عرفت قبل ذلك ــ مما آثار استغرابي ــ إنهن كن لا يعارضن في التجرد من ملابسهن تماماً مع الإبقاء على الحجاب وكن كل مرة يدخلن فيها غرفة الفحص يابين بشدة نزع الحجاب أو سفر الوجه..

وكنت بدوري أحاول إقناعهن، بضرورة فحص عيونهن وآذانهن ورقابهن فكن يسألن أزواجهن، وبعد أن يحصلن منهم على الإذن كن يسفرن كارهات عن وجوههن.
بينما يظهر عليهن إمارات الحيرة المؤلمة.
وعلى النقيض كان بعض نساء مدينة الرياض (المتفرنجات)..
فكن على استعداد على نزع الحجاب، على الأقل في حضرة طبيب أميركي.
أما في العلن أو في حضرة رجل سعودي فكانت حتى هؤلاء النسوة (المودرن) يحرصن على ستر وجوههن. أما ما كان يثير دهشتي فهو أن النساء السعوديات كن يشعرن بحرية في حضرة طبيب أمريكي لا يشعرن بمثلها في وجود واحد من أبناء بلدهن وكنت كثيراً ما اسأل نفسي عن تصرفهن أمام طبيب سعودي.
ولكنني كنت أعتقد في قرارة نفسي أنهن سوف يتمسكن بارتداء الحجاب وللأسف لم تسنح لي الفرصة لاختيار صحة هذا الاعتقاد لأنه لم يكن يوجد حينذاك أطباء سعوديون يعملون في المستشفى..
وبكل معنى الكلمة كان المستشفى يعتبر ملجأ للنساء يتحررن فيه من عادات وقيود مجتمعهن.
في عصر أحد أيام شهر ديسمبر اتصل بي أحد افراد العائلة المالكة المشهورين وأخبرني أن ابنته مريضة جداً وأن عربة الإسعاف تحملها إلى المستشفى..
بعد قليل وصلت الأميرة سلطانة بنت مساعد السديري وقد ظهر عليها أعراض الإصابة بالتيفوس.
وفي الحال أمرت بحقنها بالسوائل وأرسلت عينات من دمها لتحليلها بسرعة حيث ثبت أنها فقدت كميات كبيرة من الماء والملح.. وقد أثبتت اختبارات الدم ومزرعة البكتيريا أن الأميرة غير مصابة بالتيفوس وإنما بدوسنتاريا حادة، قد تكون نشأت نتيجة تناول طعام أو ماء ملوث .
وللتغلب على عدوى البكتريا قمت بعلاج الأميرة بالمضاد الحيوي وحقنتها بالسوائل للوصول إلى تعادل الملح والماء في الجسم..
وفي خلال أيام قليلة بدأت يظهر عليها إمارات التحسن فانخفضت درجة حرارتها وأظهر تحليل الدم عودته إلى حالته الطبيعية، كما أخذت علامات الصحة ترتسم على وجهها. إلاَّ أنها كانت لا تزال تعاني من فقدان الماء،كما كانت ضعيفة جداً..
ولقد نصحت ببقائها في المستشفى حتى تستعيد قواها وحتى توجد تحت الملاحظة الدقيقة في حالة إصابتها بانتكاسة..

وأثناء فترة نقاهتها كنت أقوم كل يوم بزيارتها وأسألها عن حالها، وأرعى صحتها ثم بدأت ألاحظ أن الأميرة شابة جميلة بل إن جمالها خلاّب.

وبالرغم من أنها كانت في التاسعة عشرة من عمرها إلاَّ أن ملامح وجهها كانت تنم عن قوة ونضوج يتعديان سنها.

كانت لها بشرة بيضاء، تقريباً كالأوروبيين وكان شعرها على النقيض.. أسود لامع وكذلك عيناها النجلاوين السوداوين. كانت ملامحها سويةً، ذات بشرة ناعمة وأنف أرستقراطي وفم ممتليء يكشف عن أسنان ناصعة البياض لما تبتسم، كانت تمتلك الجمال المثير المحير الذي لا يوجد إلاَّ في الشرق الأوسط وتملك الجاذبية المغربية التي يتخيلها المرء غالباً مكنونة خلف الحجاب الغامق المليء بالأسرار.

بالإضافة إلى جمالها كانت الأميرة أنيقة وظريفة بطريقة تفحص عن أصلها الأرستقراطي.

عرفت بعدئذٍ أن الأميرة "سلطانة" من عائلة السديري عائلة عريقة تكون مع أخريات أصل العائلة السعودية.

وكان أبوها وجدها يعدان من أهم الرجال في المملكة... وكانت لها صلة قرابة مباشرة مع كل أعضاء العائلة المالكة المهيمنة وإذا بحثنا عن نخبة مختارة في عائلة سعود لوجدنا عائلة السديري.

كنت أعرف أن الأميرة ليست مريضة عادية حتى بالنسبة للمقاييس الملكية.

وأثناء إحدى زياراتي، دخلت إلى جناح الأميرة الخاص فوجدتها جالسة في مقعد حاملة مرآة في يدها بينما كانت خادمة تمشط لها شعرها.

فظهر بوضوح أن الأميرة قد عرفت الطريق إلى الشفاء ولأول مرة أثرت جاذبيتها وجمالها عليّ.

نظرت الأميرة اليَّ ببسمة خلابة ثم قالت: طاب يومك يا دكتور.

ــ طاب يومك أيتها الأميرة، هل تحسنت حالتك اليوم؟

فقالت في انشراح: إنَّ حالتي ممتازة.

وهكذا وجدت في مرح الأميرة عزاءً لين لأن البوادر الطبية الإيجابية لا تشجع كضحكة خالية من الهموم. ثم بدأت ألقي على الأميرة بعض الأسئلة باللغة الإنجليزية وأجابت عليها بلسان طلق وبسهولة وبالرغم من أننا تحادثنا معاً في مواضيع مختلفة إلاَّ أن فضولي استيقظ الآن.

بعد أن انتهيت من الفحص قلت لها هنا: إنك تتكلمين الإنجليزية على نحو جيد جداً.. أين تعلمتها؟فردت: في كاليفورنيا.

ــ ماذا؟ ماذا فعلت في كاليفورنيا. ثم ذكرت الرسم البياني الطبي.
ــ لقد نشأت هناك ــ قالتها في موضوعية ــ لقد عشت هناك حتى بلغت السادسة فإن أمي أميركية.
نظرت بدهشة إلى الأميرة، فلم أجد شيئاً في مظهرها يدل على أنها أميركية..اللهمَّ إلاَّ بشرتها البيضاء، أما فيما عدا ذلك فكانت ملامحها عربية أصيلة وكنت أعرف أن العائلة الملكية لا تستحسن الخلط في الأنساب إن لماضي عائلة الأميرة قصة غير عادية بلاشك.
ــ كيف صار ذلك، لقد كنت أعرف أن أعضاء الأسرة المالكة ممنوعون من الزواج بأجانب.
ــ كان ذلك قبل 20 عاماً، كان ذلك حينئذ شيئاً غير عادي ولم يكن ممنوعاً كما هو الحال الآن. وكنا نحن العرب نتطلع حينئذٍ إلى الأمريكان بشيء من الرهبة.
وكإجابة على اهتمامي الظاهر قصت الأميرة أن والدها ابن أحد الأمراء السعوديين البارزين كان يدرس في أواخر الخمسينات علوم الاقتصاد بجامعة ستانفورد.
وأثناء الأسبوع الثاني لبدئه دراسته في الجامعة قابل فتاة أمريكية زميلة له فوقع في غرامها ثم تزوجها في نهاية العام الدراسي الأول ثم عاشا معاً بعد ذلك سبع سنوات في كاليفورنيا، حصل الأمير أثناء ذلك على الدكتوراه، وفي النهاية انجبنا ثلاثة أطفال، كانت سلطانة أكبرهم، كان أخوها سلطان يبلغ سبعة عشرة عاماً وأختها خمسة عشر عاماً.
ثم قالت الأميرة لي: هل تعرف أنني ولدت في بالوالتو في كاليفورنيا وعشت هناك حتى العام السادس من عمري، كنت حينئذٍ أمريكية أصيلة هل فهمت!
ثم انتقلنا إلى الرياض وعندما بلغت الحادية عشر عدنا إلى كاليفورنيا وبعد عامين رجعنا إلى الرياض.. ومنذ ذلك الوقت وأنا أعيش هنا، عموماً فنحن نقوم غالباً بقضاء عطلتنا في أوروبا وأمريكا.
توقفت سلطانة عند ذكريات طفولتها وقالت بشوق: إن الحياة في كاليفورنيا كانت ممتازة حيث كان مسموحاً لي بلبس الميني جيب وسماع الراديو طوال اليوم..إن أبي لا يحب أن يسمع الأسطوانات ولكن أنا وأختي نشتريها بالرغم من ذلك.
لقد كانت أحب فرقة إلى نفسي هي فرقة البيتلز.. لقد كنت أحب باول مكارتني بجنون.
ــ هل يعيش والدك في السعودية؟
هزت رأسها وقالت: لقد طلبت أمي الطلاق من سنين لأنها لم تقوَ على الحياة هنا.
ــ هذا شيء أستطيع فهمه.
فقالت الأميرة: لا! لا تستطيع فهم ذلك..بامرأة.

لقد أتت أمي إلى السعودية عندما كنت في السادسة وتعايشت بصورة طيبة هنا وقد اعتنقت الإسلام وتحدثت العربية بطلاقة.

وفي البداية فإن نساء عائلتنا الأخريات لم تقبلن أمي، بعضهن لأنها أمريكية والبعض الآخر لأنها تزوجت أبي.

لا بد أن تعرف أن أبي رجل مهم. وابن رجل مهم ومن تقاليدنا أن يتزوج أعضاء الأسرة من بنات عمهم وخالهم.

كان أمل كثير من النساء ان تزوجن ابي يوماً ما، وبدلاً من ذلك عاد هو من أمريكا مصطحباً ثلاثة أطفال وامرأة، امرأة أمريكية، ولكنهن في النهاية أحببن أمي.

فقد كانت تتبع تعاليم الإسلام وتفعل كل ما يطلب من امرأة طيبة.

لقد عرفن أنها لكونها أميركية فهي لا تستطيع أن تعيش دائماً كالسعوديات ولكنهن عرفن أيضاً أنها فعلت ما عليها.لقد كان الجميع حزانى عندما طلقت أمي من أبي.

ــ إذن لماذا طلبت الطلاق، بعد أن تعايشت بصورة طيبة مع المجتمع السعودي.؟

رفعت الأميرة كتفيها وقالت: لقد تعلمت أمي كيف تحترم المملكة السعودية ولكنها لم تستطع قط أن تكون جزءاً منها.. ففي كل عام كانت تسافر إلى أوروبا وأمريكا وكانت العودة تصير دائماً أصعب.

وفي مرة بقيت هناك مدة طويلة فقد لاحظت أنها لن تستطيع الحياة هنا مرة أخرى.

ــ أين تعيش هي الان؟

ــ في لوس أنجلوس.. لقد زارتها أسرتي كلها منذ عامين.. وقد أخذ أبي زوجته الجديدة معه "زوجة أبي" وبالرغم من أن أمي لم تقابل زوجة ابي من قبل إلاَّ أنهما صارتا صديقتين حميمتين.

ــ لحظة، هل كان أبوك متزوجاً عندما تزوج أمك؟.

ــ لا ، لقد كان يعرف أن ذلك سيؤلمها.. لقد تزوج بعد طلاقه من أمي وزوجة أبي تكبرني بسبع سنوات فقط، وقد نشأت بيننا علاقة حميمة وصرنا كالأخوات إني أحب زوجة ابي جداً.

ــ أليس ذلك غريباً.. أن يكون لأمير امرأة واحدة مع أنه يجوز له أربعة.

ــ لقد تمتع أبي بتعليم أمريكي وله أفكار جديدة كالتي تقول بأن يكون للرجل امرأة واحدة.

وعندما أردت توجيه سؤال آخر إليها نظرت إلى الساعة ولاحظت أنني تأخرت عن موعد عملي.

قلت كارهاً: يجب أن أذهب.. هل نستطيع أن نتحدث مساء اليوم أكثر يا سمو الأميرة؟

قالت الأميرة بفرحة بادية: طبعاً، إنني أتحدث بسرور عن بلدي إنه لشيء جميل عندما أتحدث مرة مع رجل غريب، فمن الطبيعي أن أتكلم فقط مع رجال من عائلتنا.

ــ إذا كان كذلك فسوف أمر عليك مساء اليوم بعد العشاء.

ابتسمت الأميرة ابتسامة خلابة وقالت: ممتاز.

خرجت من حجرتها أهز رأسي واقول:

ممتاز! إن هذا البلد يصير أكثر عجباً دائماً. وفي هذا المساء قمت بزيارة الأميرة بحجرتها في المستشفى فالأميرة تسكن في أحد الأجنحة المحجوزة للعائلة المالكة. والذي يتكون من حجرة نوم تجاورها غرفة معيشة صغيرة ولكن مريحة وترافقها خادمة أربع وعشرين ساعة في اليوم وتنام على الأريكة في غرفة المعيشة لتكون جاهزة لخدمة الأميرة في أي وقت.

كانت دائماً موجودة معنا لتسمع وترى كما تحتم تقاليد السعودية عند لقاء رجل بامرأة. عندما قرعت الباب مرتين نادت الأميرة: إدخل يا دكتور جراي، كانت الخبطة الثانية إشارة للأميرة حتى لاتكون بحاجة إلى تغطية وجهها بالحجاب.

دخلت الحجرة فوجدت الأميرة مستلقية على سريرها وأمامها التليفزيون.

اعتدلت الأميرة على الفور وأطفأت الجهاز بآلة التحكم عن بعد.

هتفت الأميرة.. إنني سعيدة بقدومك، ثم أشارت إلى التلفزيون وقالت ممتعضة: إن التليفزيون السعودي ممل وإنني لأتمنى أننا نستطيع التقاط بعض البرامج الأميريكية.. وحيث أنني كنت شاهدت التليفزيون السعودي أكثر من مرة أدركت ما تعنيه الأميرة تماماً.

فالبرامج مراقبة بدقة، والمواضيع الغير ضارة والمتفق عليها هي فقط التي تظهر على شاشة التليفزيون.

وكانت أحب الحلقات هي مناظرة يتحاور فيها العلماء حول القرآن ويفسرونها.

قلت لها بعد أن أنهينا شكوانا من التليفزيون: إحكي لي لماذا بقيت في السعودية بعد انفصال أمك عن أبيك؟

فردت قائلة: لأن ذلك ما تنص عليه الشريعة الإسلامية.. فإذا طلَّق الرجل المرأة فإن الأطفال من حق الرجل. وتعود المرأة إلى ذويها.

ــ الم ترغبين في العودة إلى أميركا؟ . ترددت الأميرة لحظة.. ثم قالت بصوت خفيض: لا، إنني أميرة سعودية واتصرف حسب رغبة أبي فأنا أسافر بسرور إلى أميركا وأزور أمي ولكن هنا وطني، وهذا بلدي.

ــ لماذا تولد لديك هذا الشعور القوي بأنك سعودية مع أنك عشت الست سنوات الأولى من حياتك في كاليفورنيا.

ــ لست أدري.. لا أستطيع شرح ذلك.. فأنا أحب أميركا جداً ولكنها ليست بلدي إنني أحس أنني سعودية.

شعرت أن مسألة انتماء الأميرة يمثل لها مشكلة حرجة فقررت تغيير الموضوع.

ــ فلتحك لي كيف كانت نشأتك في السعودية، فإنه شيء نادر أن ينتقل المرء من كاليفورنيا إلى الرياض من الميني جوب إلى الحجاب.

ضحكت الأميرة وقالت: كان عمري حينذاك إثني عشر أو ثلاثة عشر عاماً عندما انتقلنا إلى السعودية وكنت طويلة جداً بالنسبة لعمري وأنا أتذكر كيف كانت تجحظ عيون كل الرجال السعوديين عندما ينظرون الي.. لم أفهم ذلك. فالرجال في كاليفورنيا كانوا ايضاً ينظرون اليَّ أحياناً ولكنهم لم يجحظوا هكذا كالسعوديين.. إنني وجدت ذلك شيئاً مخيفاً حقاً.

بعد ذلك عندما عشت في السعودية مدة أطول عرفت أنه شيء طبيعي أن تتزوج الفتاة وهي في الخامسة عشر من عمرها.

فالفتاة التي في عمري والتي تخرج وتتنزه مسافرة وتظهر ساقيها كان أمرها يثير الحفيظة للغاية كما لو كانت تسير عارية في أمريكا.

ــ هل ارغمك والدك على لبس الحجاب؟.

فقالت مؤكدة: لا.. إن أبي ليس كذلك.. فبعد أن انتقلنا إلى السعودية كنت لشهور طويلة أرتدي ملابس الأوروبيين العادية فقط وكنت أخرج من المنزل بالبنطلون القصير وحذاء التنس وكان كل الرجال يجحظون لرؤيتي..

ولكن بعد فترة عندما كنت أقترب أكثر لأصير مواطنة سعودية أصبحت لا أشعر بالراحة وانا في ملابسي الغربية.

ــ كيف؟

ابتسمت سلطانة وقالت؟

إن النساء "العواجيز" في السعودية صريحات جداً.. فقد كن ينظرن اليَّ ويسألنني أين عباءتك.. أين "قطوتك".. لقد تركنني أدرك أنني أفعل الخطأ.. وأخيراً تعبت من المضايقة الدائمة وبدأت أرتدي الحجاب وأصبح لا يخطر لي ولا في الأحلام أن أخرج بدون الحجاب.

ــ في أي سن تبدأ النساء السعوديات في ارتداء الحجاب؟

ــ لا يوجد عمر بعينه فإننا نبدأ ارتداء الحجاب عندما تصير الواحدة منا امرأة.. أي في حوالي الرابعة عشر تقريباً، حالما نصير نجذب نظرات الرجال.. حتى نلاحظ أن الرجال تنظر إلينا بشهوة.

تحدثنا لبضع دقائق عن الفصل بين الجنسين في المجتمع السعودي وكما تقول الأميرة فإنه محرم على المرأة الاختلاء بالرجل إلاَّ إذا كان محرماً والمحرم تعني به أقرب الرجال إلى المرأة مثل أبيها وعمها وخالها وأخوتها ــ وكذلك زوجها.

والمرأة ممنوعة من مغادرة البلاد بدون محرم.. قالت سلطانة: إن الرجل ينظر إلى المرأة كأحد أملاكه لا ينبغي ذكره أو التفاخر به امام الرجال الآخرين.

ولا يوجد أي علاقات اجتماعية بين الرجل والمرأة إلاَّ في أضيق الحدود العائلية.. فعلى سبيل المثال، لا يذهب أبداً رجل مع زوجته إلى المطعم، ولا يرقص ابداً معها لا في العلن ولا في حضور الأقارب.. إنه محرم.

وكما ترى سلطانة فإن الثقة تختفي بين الرجال عندما يتعلق الموضوع بالمرأة فلا يستطيع الصديق مجرد محاولة الاقتراب من زوجة صديقه في العلانية.

في هذا المضمار فإن النساء تعتبر مخلوقات ضعيفة سلبية تستسلم لمحاولات الرجل.

وللقضاء على مثل هذه الاحتمالات في المهد فإنه تمَّ حرمان المرأة من كل الأنشطة الاجتماعية التي يشترك فيها الرجال وقصر نشاطها على الواجبات المنزلية فقط.

سالت الأميرة: "سمو الأميرة هل من المناسب أن نتحدث أنا وأنت كأصدقاء؟"

ــ لا.. إنه أمر عادي أن أحادث طبيبي ولكن في المسائل الصحية فقط ومن الطبيعي أن أرتدي على الأقل الحجاب، إذا تحدثت مع أي رجل ليس محرماً.. ولكني للأسف لا أستطيع ارتداء الحجاب الآن لأنني ما زلت مريضة ثم أغرقت في الضحك.

وعندما انتهت من ضحكها سألتها: ماذا يفعل النساء بوقتهن؟

ــ في الأوقات العادية لا يفعلن شيئاً إن معظم النساء يقبعن في البيوت يقتلهن الملل وأحياناً يزرن ذويهن حيث يتسلين بالحديث ويلعبن الورق أو يجربن الفساتين.

هذه هي الأشياء الثلاثة المهمة.. الرغي ــ لعب ورق ــ الملابس. وفي بعض الأحيان تقام حفلات ــ بالطبع للنساء فقط ــ وتحضر كل منهن أكثر من فستان لترتديه في الحفل لتعرضه على الأخريات.

وكما ترى الأميرة سلطانة فإنه من سخريات القدر في السعودية أن الثراء الهائل الذي جلبه البترول جعل من النساء سبايا. فعندما كان السعوديون بدواً رحلاً في الصحراء كانت النساء ما زالت تلعب دوراً مهماً وكان لهن واجبات وحريات معينة.

فكان يجب عليهن جلب الماء من الآبار والمساعدة في إقامة الخيام ورعاية الأطفال والان.. عندما ارتفع المستوى على هذا النحو أصبحت النساء لا عمل لهن.

سكتت لحظة ثم نظرت من النافذة وقالت بصوت خفيض وكأنها تتحدث مع نفسها: إن التفرقة بين الرجل والمرأة صارمة جداً متزمتة جداً فلا دور سينما ولا خمر ولا رقص ولا موسيقى في العلن. إن النساء محجبات لا يظهر منهن شيء وهن أسيرات المنازل ولا يوجد أي تسلية على الإطلاق.. فقط الصلاة خمس مرات في اليوم وصوم رمضان وحج مكة ودفع الزكاة.. وهذا هو كل شيء.

خيم الصمت المحير بعد هذا التعليق المتقضب ثم قالت الأميرة في صراحة تامة: لقد كان من الأفضل للنساء أن تظل السعودية فقيرة فبعض النساء ــ بسطاء الناس ــ الذين يعيشون في أكواخ من الطين يستطيعون على طريقتهم أن يعيشوا حياة مسلية أكثر منا، من الجائز أن يضحكوا لأتفه الأسباب ــ مثل المصريين على سبيل المثال ــ فكل شيء يعجبهم وينظرون إلى كل شيء بسخرية، من الجائز أن يكونوا هم السعداء أما نحن السعوديون فننتقد ونراعي الأصول.

كما أن نظرتنا للأمور تجعلنا لا نسر لشيء.

ــ هل توجد مواقف تجمعك بالرجال الآخرين؟

ــ نعم في الزيارات الأسرية، أو الاحتفالات العائلية فعائلتي كبيرة جداً ولنا مجالس تنعقد بانتظام يشترك فيها الجميع بما فيهم ولي العهد.

فكلنا من الأسرة السعودية ولكن ضمن هذه الأسرة توجد عائلات، وعائلة السعودية السديري عائلة مهمة جداً ونستطيع أن نقول إننا من بطون العائلة الأصلية.

ــ وهل يختلط الرجال بالنساء في هذه المناسبات العائلية؟

ــ نعم.. ففي هذه المجالس وفي الاحتفالات الأسرية أستطيع التحدث إلى اولاد عمي. والمجالس الأسرية لطيفة جداً، تفرح بها النساء كل النساء، وفيما عدا ذلك، فنحن مرابطون في المنازل.

وبالرغم من أنه كان لدي أسئلة طويلة ولكن الوقت قد أزف والأميرة أصبحت متعبة قلت لها كارهاً: لقد حان وقت رحيلي.

فاقترحت عليَّ: فلنفعل ذلك غداً مثل اليوم.. فقلت: بكل سرور إذا شئت آتيك مساء الغد..

ــ أعتقد أنني في المرة القادمة سألتزم بارتداء الحجاب.
ثم سحبت الغطاء حتى عينيها ثم سألتني في نبرة مكتومة: كيف تراني؟.. فقلت متهكماً تبدين كبدوية عجوز.. كنت أريد أن أمدح جمالها ولكن قررت ألاَّ أفعل.
قمت بزيارة الأميرة في اليوم التالي لأكشف عليها ثم عدت إليها في المساء لإجراء واحد من أحاديثنا الطوال.
ولقد تحسنت صحتها كثيراً وأصبحت في كل يوم تصير في أكثر صحة ونشاط. بينما كنت أهم بالجلوس في مقعدي بجوار سريرها سألتها: أين الحجاب؟ نظرت إليَّ بجدية ثم قالت: لسوء الحظ فإن صحتي لم تتقدم بما فيه الكفاية.
ضحكنا ثانية على هذا الحوار الذي لا يفهمه غيرنا.. ومرة أخرى سحرتني بسمتها..خسارة أن تخفي هذه البسمة طوال الوقت. التزمت الجدية مرة أخرى وقلت: أيتها الأميرة.. لقد حكيت النزر اليسير عن قصة طلاق أمك.. ماذا تقولين عموماً عن الطلاق في هذه البلاد..
عادت بي أفكاري إلى الأميرة سانوا وإلى قصة طلاقها الغير إنساني من زوجها السعودي في بوسطن من سنين طويلة.
قالت الأميرة في نظرة حماسية: إن الطلاق في الإسلام شيء بسيط للغاية وبدت وكأنها تتلذذ بإخباري عن أمور بلادها، تعرف أنني أستغرب لها.
ــ إذا رغب الرجل في الطلاق فإنه يجب أن يقول لزوجته: أنت طالق.. فتصير المرأة بعد ذلك طالقاً وتضطر للعودة إلى ذويها. ولكن هناك شيء.. فإذا غير الرجل رايه في خلال ثلاثة أشهر فإنه يستطيع إعادة المرأة مرة أخرى إلى عصمته بكل بساطة وليس عليها إلاَّ الطاعة. بعد مرور ثلاثة شهور يصير الطلاق غير رجعي ويستطيع الرجل أن يطلق زوجته ثلاث مرات. ويستطيع إرجاعها ثلاث مرات إلى عصمته.. بعدها تكون محرمة عليه. وتوجد إمكانية ــ أخرى وهو أن يكرر الرجل: أنت طالق ثلاثاً فيصير الطلاق بلا رجعة. وتعود الزوجة إلى أهلها. إن كل شيء يتوقف على كلمة فيكون الطلاق لا رجعة فيه.. هل فهمت؟
ــ وإذا رغبت المرأة في الطلاق؟
ــ لا تستطيع ذلك إلاَّ إذا كان لها أسباب قوية جداً.
ــ نفترض أنه ضربها..
ــ إذا ضربها يكون من حقها الطلاق ولكن هذا صعب للغاية بالنسبة للمرأة في أغلب الأحيان. وتوجد أسباب أخرى تستطيع من خلالها المرآة طلب الطلاق.. على سبيل المثال: أن يمتنع الرجل من الإنفاق عليها أو يهجرها في الفراش زمناً طويلاً، أو إذا رأت المرأة زوجها تخلى

عن دينه تماماً أو مس ذلك ــ ولو من بعيد ــ بالدين مثلاً: أن يهمل الزوج دينه أو يرتكب معصية فإن ذلك يساعدها على الحصول على الطلاق. كأن يشرب الزوج الخمر أو يتعاطى المخدرات ولكن لابد أن تثبت ذلك،ولابد من وجود أدلة.

فإذا طلقت المرأة من زوجها عادت في الغالب إلى أهلها لتعيش بينهم وانه أمر عادي أن تجد عمات وخالات يعشن مع العائلة بعضهن أعزب والآخر مطلق.

ــ وماذا يحدث بعد ذلك؟ هل ينفق الرجل على زوجته؟

ــ لا.. ولكن ينفق على الأبناء.فالبنت تستطيع أن تكون في حضانة أمها لمدة سبع سنوات، ثم تعود بعد ذلك إلى أبيها لأنه من الصعب أن تعيش فتاة صغيرة مع أبيها، فإذا بلغت السابعة عادت الى أبيها، أما الطفل الذكر فإنه يبقى في حضانة أمه سنتين أو ثلاث ثم يعود إلى أبيه بعد الفطام.

ــ كنت أعتقد أن الرجل ينفق على مطلقته.

ــ لا أعتقد، إلاَّ إذا كان ثرياً جداً أو عظيماً. والساري اليوم هو أن يعلن الرجل استعداده لذلك ولكنه ملزم فقط بالإنفاق على أطفاله.. أما المرأة فتعود إلى منزل أبيها ولا أعتقد أنها تحصل على نفقة إلاَّ إذا كان مطلقها رجلاً غنياً أو ينتمي إلى الأسرة المالكة.. ولي ابنة عم تزوجت وطلقت في خلال شهر واحد.. كان عمرها حينذاك خمسة عشر عاماً.

وما حدث أن زوجها سافر بعد الزواج مباشرة وعند عودته عرفت بأنه دخل إلى إحدى زوجاته الأخريات قبل أن يزروها هي. فغرقت ابنة عمي في الدموع فغضب الرجل جداً وطلقها على الفور وأعادها مباشرة الى أهلها.

ولكنه بعد ذلك أرسل إليها كمية من المال وخمسة وعشرين عبداً. وقد حدث ذلك من عشرين عاماً.

ثم أردفت الأميرة:

غالباً ما يهدي الأثرياء مطلقاتهم بيوتاً وذهباً وسيارات لأنهم يملكون المال. ولسوف يضر بسمعتهم لو تركوا زوجاتهم في حالة مادية سيئة.

وأحياناً لمَّا تشعر إحدى الزوجات المتقدمات في السن أن زوجها سيتركها بسبب امرأة أصغر سناً فإنها تقوم بنفسها بالبحث لزوجها عن فتاة في الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من عمرها وتطلب منه مبلغاً محدوداً من المال في مقابل أنها عثرت له على زوجة جديدة مقايضة.

ــ هذا رائع.. إنها صفقة.

ــ قد تعتقد أن ذلك شيء بشع، فنساء العائلة المالكة يحصلن على مبلغ من المال من الحكومة، وبنت عمي البالغة من العمر ثلاثين عاماً ــ كما تعرف ــ تحصل من الحكومة منذ كان عمرها خمسة عشر عاماً على راتب شهري يبلغ حوالي ستة آلاف ريال.

ــ من الحكومة؟

ــ أرأيت أن الكلام في ذلك لا يسر أحداً، وأنا نفسي لا أفهم ذلك تماماً، ولكن توجد ميزانية تدفعها الحكومة شهرياً لأفراد الأسرة المالكة.. نوع من أنواع الإعانة الحكومية.

ــ لكل أفراد العائلة؟!!.. إنهم يقدرون بالآلاف.

ــ نعم للعائلة المالكة كلها.. فهم يحصلون على الإعانة عندما يبلغون الخامسة عشرة وكلما يتقدم العمر بهم كلما يزيد الدعم.

سألت الأميرة في فضول: وهل لك نصيب في ذلك؟

فردت ببساطة وهي تمسح بيدها على غطاء السرير: بالطبع نحن آل سديري نحصل على نفس الحقوق.

ــ وبعد أن تتزوجين.. هل تحصلين على ذلك أيضاً؟

ــ نعم.. بعد الزواج أيضاً.

ــ هل هذا من مال الحكومة مباشرة؟

ــ لست أدري إن كان هو كذلك أم لا، ولكني أعتقد أنه مال يخص عائلة سعود العربية ولا أحد يعرف مصدره، واصلاً فإن الحكومة وكل أموالها ملك لأسرة آل سعود وعلى نحو ما فإن الحكومة عبارة عن شركة كبيرة كل أعضائها من العائلة المالكة.. إنها جزء من أسرة آل سعود، ولذلك فإن العائلة تحصل على نصيبها المحدد كل سنة من الأرباح.

ثم قالت سلطانة في حماس: كل منا يحصل على نصيبه وهذا لا يعجب بعض الناس.. وفي يومنا هذا يعترض العامة من الشعب ويقولون: "ماذا فعل هؤلاء ليحصلوا على هذا المال؟" "كيف يستطيعون تعليل ذلك؟".. إنهم يحتجون، ومع أنني أمثل نفس الرأي.. ولكن لابد من التفكير في عائلة سعود، في اقاربنا، ولا بد أن يفكروا هم أيضاً فينا، لقد استفادوا منا في الماضي،وسوف يكون الأمر مؤسفاً لو تركونا نعيش في وضع لا يسر، وبالذات النساء غير المتزوجات فإنهن لا يملكن المال، سوف يقفن على الأبواب يطلبن المساعدة وخاصة العجائز.

وسوف يسبب ذلك حرجاً لهن وللعائلة.. هل فهمت.

***

أصبح الوقت متأخراً مرة أخرى وآن الأوان لفض المجلس وعندما وقفت رمتني الأميرة بنظرة فيها خيبة أمل وسألتني:

هل أنت ذاهب؟

ــ نعم قد تشعرين بالتحسن ولكنك ما زلت بحاجة إلى الهدوء.

زمت الأميرة شفتيها وقالت: آه.. كان حديثنا سيدور عن تعدد الزوجات وعن العائلة المالكة.

لكني رفعت أكتافي وقلت: لكنك في حاجة حقيقية الى الراحة، إننا في منتصف الليل تقريباً.. تصبحين على خير يا أميرة.

لم ترد ولكني غادرت الغرفة وأنا أحس بالذنب وقد خطر لي أن الأميرة رغم كل ثقتها بنفسها وكل سلطانها الملكي تكون أحياناً شخصاً غير ناضج على نحو يثير الدهشة. ولكني أرجعت تصرفاتها الصبيانية إلى أن القائمين على تربيتها كانوا يدللونها. وقد حرمت من التجارب الاجتماعية التي تؤدي إلى النضوج.لم أدرك سر تقلب مزاجها ولكني كنت أفهمها، فهل بوسع أميرة سعودية أن تكون غير ذلك؟.

في اليوم التالي عندما كنت أقوم بزيارة الأميرة للكشف عليها وجدتها منشرحة بعد أن نسيت ما حدث بالأمس وكانت أيضاً تنحني على قطعة كرتون وتشخبط عليها بجنون.

سألتها:ماذا تكتبي؟

أخفت الكرتون عني وقالت: إنها مفاجأة سوف أريك إياها في المساء.

وعندما عدت في المساء كانت الأميرة تجلس معتدلة في سريرها ومدت اليَّ قطعة الكرتون في حركة مسرحية.

قلت لها وأنا أحاول شحن صوتي بنبرة العرفان: شكراً.

كانت قطعة الكارتون مكتوباً عليها أسماء كثيرة تتصل ببعضها.. قالت الأميرة متباهية: إنها قصة عائلتي، إنها شجرة عائلة السديري.

الآن فقط فهمت مغزى الهدية العميق وتأثرت لذلك جداً.

كانت بعض الأسماء المدونة على قطعة الكرتون مجهولة بالنسبة لي وكنت أعرف البعض الآخر.. منهم بعض عظماء المملكة.. أما ما أضحكني هو أنني رأيت أنها كتبت أسماء الرجال فقط.. ولكنني أدركت فجأة أن تدوين أسماء النساء كان مستحيلاً لأن كل واحد من هؤلاء تزوج في المتوسط عشرة أو أكثر من النساء. وبدأت سلطانة تشرح لي الصلة التي تجمع بين هذه الأسماء:

ــ إن عائلتنا، "عائلة السديري" تنتسب إلى شيخ قبيلتنا أحمد السديري الكبير والذي أنجب من نساء مختلفات خمسة عشر إبناً وإحدى عشر بنتاً ولقد تزوج الأحفاد والحفيدات من الجيل التالي فيما بينهم بصورة جعلت شجرة العائلة معقدة للغاية.

ــ بكل تأكيد فنحن اليوم بحاجة إلى كمبيوتر لنتعرف على صلة القرابة.

ضحكت الأميرة وقالت: إنك لم تسمع كل شيء بعد، إن أشهر اطفال السديري كانت ابنته حصاة التي تزوجت الملك عبد العزيز (ابن سعود) كان الملك يحبها جداً ولكنها للأسف لم تهبه أولاداً ولذلك طلقها وبعد ذلك تزوج الملك من سلطانة أخت حصاة.. أما حصاة فقد تزوجت أخا الملك .. وهنا تتشابك الخيوط لان حصاة بعد زواجها من أخي الملك أنجبت منه طفلاً.

ولما كان الملك يريد إعادة حصاة إلى ذمته على الفور فقد تمَّ طلاقها من أخيه وتزوجت الملك مرة أخرى وأخيراً أنجبت للملك خمس بنات وسبعة أولاد.

ــ هل هم هؤلاء السديريون السبعة المشهورون؟

ــ نعم ومن بينهم ولي العهد "فهد" ووزير الدفاع سلطان وآخرون.

قلت: إنه أمر غريب، ثم هززت رأسي وأردفت:

ولكن ما حدث لأخت حصاة لما عادت الأخيرة لعصمة الملك مرة أخرى؟

ــ لا شيء.. لقد بقيت على ذمته.

ــ هذا يعني أن الملك كان متزوجاً من أختين في وقت واحد.

ــ نعم.. وكان الملك متزوجاً من بنت عمهما أيضاً.

وبينما كانت الأميرة تشرح الصلات المتشابكة بين أفراد عائلة السديري والفروع الأخرى لعائلة الملك.. كنت أنا أفكر في أن ألقي عليها سؤلاً كان يدور في رأسي منذ حين.. فمن عدة أسابيع كان قد أرسل لي صديق تقريراً نشر في أحد الجرائد اللندنية. وكان يدور حول أميرة سعودية تم إعدامها لاتهامها بالزنا.

وقد كنت أحمل قصاصة الجريدة في حافظتي ولكنني ترددت في عرضها على الأميرة لأنني كنت لا أستطيع التنبؤ برد فعلها ولكني شعرت أن اللحظة المناسبة قد حانت لكي أذكر التقرير.

فقلت لها بحذر: لقد أرسل صديق لي هذه القصاصة من صحيفة لندنية وهي تتحدث عن إعدام أميرة شابة اتهمت بالزنا ولقد سألت نفسي إن كنت تعرفينها..

أخذت سلطانة قصاصة الجريدة من يدي ونظرت إليها باهتمام شديد وكذلك صورة الأميرة "مشاعل" بنت عبد العزيز التي رآها العالم كله، ولكنها لم تبذل أي مجهود لتقرأ الموضوع.

ــ لا .. إنني لا أعرف هذه الفتاة.. فهي تنتسب إلى أحد فروع آل سعود التي تسكن جدة ونحن لا نقابلهم على الإطلاق.. إنه أمر محزن أن أسمع أنها قتلت.

سألت في اندهاش تام: أتعنين أنك لم تعرفي أي شيء عن هذا الأمر.

فردت:لا..إن هذه الأمور يحتفظ بها سراً.. أحياناً نسمع عن مثل هذا ولكن صحفنا لا تنشر شيئاً عن ذلك.

ــ هل حالات الإعدام هذه شيء غير عادي.. أم أنها تحدث غالباً؟

رفعت الأميرة كتفيها وقالت: كنا نعرف أن مثل هذه الأمور تحدث، فمن المألوف أن ترجم المرأة الزانية أمام أعين ذويها حتى الموت.. حتى ترى ذلك النساء الأخريات ويكون ذلك لهن عبرة.

إن الزنا في السعودية ذنب عظيم لانه يجلب العار للعائلة أن شرف العائلة دونه الموت خاصة بالنسبة للعائلة المالكة.

فقلت: ولكن هذا وحشي. لقد قررت هذه القوانين من زمن بعيد والسعودية لا تستطيع ان تبقى أسيرة القرون القديمة.

رمقتني الأميرة بنظرة كما لو كانت تريد التعبير عن شيء كالحزن ثم قالت:

لا أحد يستطيع أن يفهم أهمية الدين والعائلة في السعودية.. إنهما أهم من كل شيء آخر.. أهم من الحياة ذاتها.. لقد حكيت لك أن الجميع حتى ولي العهد يحضرون مجالس العائلة.. وحتى لو كان لديه شيء أهم.

وحياتنا الاقتصادية والسياسية تنظم من خلال صلة القرابة حتى الحكومة تشكل على أساس عائلي.

الدين والأسرة ــ هما كل شيء نمتلكه ــ كل شيء نكونه..

في النهاية تحدثت مع الأميرة سلطانة بعض الوقت عن مقاييس تقييم الجنس في السعودية بالمقارنة بمثيلها بامريكا.

سرت الأميرة لهذه الفكرة أن يعيش الشباب في أمريكا في الغالب معاً وان تكون وجهة النظر السائدة ألاَّ يشتري المرء سمكاً في ماء.

ثم سألت الأميرة في فضول، إن كانت تعرف شيئاً عن الشذوذ الجنسي ولكني لم أتوقع رد فعلها!

ــ آخ... يوجد منه الكثير.

ــ الكثير؟

إنه شيء مؤسف أن يحدث ذلك كثيراً سواء بين الشبان أو الفتيات.

فانفجرت قائلاً: بين الفتيات؟ صرت مندهشاً تماماً ــ احتمال من سذاجتي الشخصية.

قالت سلطانة: نعم حدث ذلك كثيراً في مدرستي بدرجة أزعجتني حتى أن البعض حاول ذلك معي.

ــ وكيف كان رد فعلك؟

ــ أخبرتهم بأنه لا فائدة من محاولاتهم ولقد قلت لهم ذلك بطريقة مهذبة، وصرنا صديقات وإن كنا نختلف.

ــ هل علاقات الفتيات، أعني علاقتهن تستمر طويلاً؟

ابتسمت وقالت: إنهن يفضلن التغيير، لأن مثل هذه الأشياء تعتبر ذنوباً عظيمة، إن ذلك شيء عجيب وأنا أستطيع أن أحكي لك قصصاً غريبة.

وككل فتيات السعودية التحقت سلطانة بمدرسة للبنات فقط ولم يكن من المستغرب أن يجد شيء من الشذوذ مرتعاً له في هذا المكان نعم فعندما يقرر التزمت الديني، منع ممارسة الجنس قبل الزواج، تكون مثل هذه الأشياء هي البديل الوحيد الممكن.

تذكرت الأميرة ثم قالت باشمئزاز، لقد كانت مدرستي فظيعة كنا نقضي كل الوقت في دراسة الدين، لانهم لا يريدون تعليم الفتيات شيء آخر أنهم لا يريدون أن نعلم أي شيء عن عالم الرجال.

ولقد كان معلمناً شيخاً أعمى ولم يكن يعرف حتى القراءة أو الكتابة. وكان كل ما يعرفه هو الدين والقرآن. وكان يسقينا ذلك حتى كنا نصاب بحرقان في المعدة كنا ببساطة نحفظ غيباً ثم نردد مرة أخرى لقد كرهنا هذا الشيخ.

بعد ذلك مباشرة قصصت على الأميرة حديثاً دار بيني وبين طبيب، بروفيسور مصري مشهور، كان حينذاك في الخامسة والسبعين من عمره لقد ذكرت في حضرة هذا السيد النبيل أن معظم الأساتذة في كلية طب البنات كانوا رجالاً متقدمين في السن، ولهذا لم أفهم سر أن المدرسة كانت تجبر المدرسين على التدريس من خلال شاشة عرض، لقد كان المدرسون في النهاية رجالاً مسنين فما الذي كان سيحدث؟

نظر الرجل في احتقار ثم اعتدل في وقار وقال منفعلاً: لا يوجد رجال مسنون في السعودية.

لما انتهيت من حكايتي قالت الأميرة: هذا صحيح، فالرجال لن يعترفوا ابداً بأنهم يشيخون بالنسبة للجنس، فالجميع يريدون إنجاب الأطفال حتى ولو كانوا قد بلغوا الثمانين أو أكثر، إنهم يتزوجون فتيات صغيرات عندما يتقدمون في العمر، وهم يحاولون دائماً وأحياناً ينجحون.

ــ بتعبير آخر، فالمتوقع من كل الرجال أنهم يشتهون النساء.

ــ هل هذا هو السر في أن يدرس الفتيات رجال عميان فقط؟

ــ من الجائز أن يكون هذا شيئاً غريباً، ولكنه يبدو في السعودية ببساطة شيئاً عادياً. وأنا أعرف أن الرجال والنساء في أمريكا يذهبون معاً إلى الجامعة.. ولما أكون خارج السعودية أرى ذلك شيئاً طبيعياً للغاية، ولكن في السعودية يكون إثماً أن نخالط بعضنا البعض.. إن ذلك جزءاً من استراتيجية عزلنا.

ثم أردفت: إنه من العصب في أيامنا هذه أن يكون المرء سعودياً، نحن لا نعرف بالضبط من نكو،، لا نعرف رأسنا من أرجلنا.. إنه نوع من انفصام الشخصية. فهناك رجال ونساء يعودون للوطن حاملين أفكاراً جديدة: طائرة.. راديو.. تلفزيون.. من الجائز أنهم يرون التقدم في مثل هذه الأشياء ولكنهم يدمرون مجتمعنا. هل تعرف أن الوهابيين سيصبحون أكثر تزمتاً عن ذي قبل لأننا أصبحنا مهددين من خلال الأفكار المستوردة. فالحجاب سيصير أكثر إحكاماً والأكمام ستصير أكثر طولاً، أما صور النساء في الصحف والمطبوعات فتطمس بالسواد وهم يحاربون الخمر بشراسة.

ــ هل تعتقدين.. أو هل يعتقد الوهابيون أنهم سيمنعون المؤثرات الخارجية.. هزت رأسها مستسلمة وقالت: أعرف أنني لن أستطيع منعها وهذا شيء مؤسف جداً مؤسف جداً جداً.
عن الشباب هنا يدمرون ببطء فإنهم يتغيرون على نحو فظيع.
فإحدى هذه المشاكل هو الشذوذ كما حكيت لك، والثانية أن كل فتاة سعودية تخبرك اليوم أن لها صديقاً.. صديق كيف يمكن أن يحدث هذا بالسعودية؟ والان يستسلم الكثيرون للمخدرات والخمر، إن الناس يشربون كثيراً في هذا البلد ولكن في السر لن ذلك جريمة في حق القانون والدين. بدت الأميرة الآن وكأنها تنغلق علىنفسها فقررت أن أتركها وحيدة مع أفكارها فوقفت واتجهت ناحية الباب وقبل أن أغادرها توقفت ونظرت إليها ، كانت امرأة شجاعة ذكية وجميلة ولكنها كانت في النهاية ضعيفة أمام المشاكل التي تواجه شعبها. وكأميرة سعودية كانت غنية جداً، ولكنها كانت لا تشعر بالأمان لقد كان من الصعب بالنسبة لها أن تربط بين الماضي والحاضر بدون صراع لقد كانت تخشى المستقبل أيضاً.
وككل السعوديين بدأت تدرك ان الربح من البترول كان له ثمن غال. في هذه اللحظة لم تظهر بمظهر واحدة من أغنى العائلات في العالم وأكثرها تأثيراً. لكنها كانت تبدو وكأنها في الأول أحد الضحايا.
قلت لها: تصبحين على خير يا سمو الأميرة.
فقالت: تصبح على خير يا دكتور جراي.
ثم التفتت اليَّ وقالت: إلى اللقاء في الغد.

الفصْل العاشر

حفل زفاف أغرب من الخيال

بعد عدة أسابيع وصلتني دعوة مغرية من مريضتي التي كانت قد شفيت ــ لحضور حفل زفافها إلى محمود داووق، الشاب الثري والذي ينتمي إلى أسرة محافظة وبالرغم من أن حفل الزفاف ــ بالمقاييس العالمية ــ لا يمثل حدثاُ هاماً، إلاَّ أنه يثير اهتماماً واسعاً في السعودية حيث يقضي الناس أوقات فراغهم في التتبع الدقيق لحياة الأثرياء والعائلة المالكة..
وعلى حد قول معارفي السعوديين كان حفل الزفاف هو الحديث اليومي في الرياض طيلة الأسبوع الماضي تقريباً، حتى الدوائر الأجنبية والتي كانت معروفة أنها لا تفهم الأمور الداخلية للسعودية أو تظهر إهتماماً خاصاً بها أدركت أن في الارتباط بين الأميرة السعودية الجميلة وبين خطيبها الواسع الثراء شيئاً غير عادي.. أما أنا فكنت مشدوداً جداً، لأنني وبإذن من الأميرة

سلطانة دبرت الأمر من مكان صغير خفي في فندق "أنتركونتيننتال" إلى النساء وهن يحتفلن بالزفاف. ولأن هذا الأمر كان محرماً تحريماً قاطعاً على الرجال، فإنه صار أكثر إغراء.

****

في يوم الزفاف وفي الثامنة مساء حضر إليَّ سلطان ومنصور، أخوا العروس والعريس ليقلاني في مرسيدس ــ 450 إلى هناك حيث يحتفل الرجال بالزفاف، كان الشابان في حوالي السابعة عشر من عمرهما كانا ممشوقي القد طويلي القامة وكانت بشرتهما بيضاء وشعرهما أسود فاحم. وقد بذل كل منهما قصارى جهده ليربي الشارب السعودي المعتاد وإن كانا لم يحققا في ذلك تقدماً ملحوظاً.

سألني سلطان هل حضرت حفل زفاف سعودي من قبل؟

فأجبت: لم يحدث قط.

فقال ضاحكاً: إنه شيء مختلف تماماً عن أي شيء في الولايات المتحدة. إنه شيء سوف يدير رأسك.. هززت رأسي مندهشاً لاستخدام سلطان للعامية الأميريكية.

كان سلطان قد عاش السنوات الموثرة من طفولته في كاليفورنيا وها هو يستعمل العامية الأمريكية أقرب ما يكون إلى الاتقان صعد ثلاثتنا أنا وسلطان ومنصور إلى المرسيدس، وسرعان ما كشف الشابان عن علامات مميزة أخرى للشخصية السعودية وهو حبهم الذي لا يقاوم للقيادة الخطرة للسيارات والمغامرة بالحياة نفسها ولأنني كنت اعتدت على ذلك من خلال ركوبي مع ويستبروك وسائقي الأجرة في الرياض لم يفاجئني السير بهذه السرعة. وأثناء مرورنا في شارع الملك عبد العزيز متجهين إلى "شماسي" نظرت برعب إلى زجاجة سعتها ربع ليتر، موجودة على "تابلوه" السيارة.

فصحت: يا إلهي،ثم قلت لنفسي هل يكون الإثنان سكارى أخذت الزجاجة وفتحتها ثم شممتها ولما اكتشفت أنها كولونيا تنفست الصعداء وعندئذٍ انفجر الشابان بالضحك وقال منصور بنبرة اتهام: لقد اعتقدت أنها ويسكي؟

اعترفت بذلك وأضفت: عن طريقتك في القيادة تجعلني أحتاج إلى كأس.. توهج وجه كليهما كما لو كنت أسبغت عليهما مدحاً عظيماً.

بعد حوالي نصف ساعة وصلنا إلى واحة "شماسي"التي تقع جنوب غربي الرياض.

في هذا الوادي الغني بالخضرة على نحو مثير كان يعيش بعض الزعماء السعوديين.

وبالرغم من عدم إعداد المكان إلاَّ أنه كانت تقوم هناك عدة فيلات فاخرة تحيط بها الأشجار والشجيرات الصغيرة ومساحات من الحشائش المهذبة.

وبالرغم من أن خضرة الوادي بهذه الدرجة كانت طبقاً للمفاهيم الأمريكية شيئاً عادياً إلاَّ أنها كانت في أراضي السعودية الجافة منظراً طاغياً

قال منصور وهو يشير إلى فيلا بيضاء تشبه القصر وتلمع في ضوء القمر هذا وهو قصر الأمير عبد الله.

كانت الفيلا محاطة بحدائق ممتدة مضيئة رأينا بوابتها وراء القضبان أثناء مرورنا أمامها.

ثم استطرد منصور وهو يبتسم قائلاً: إن أرض أبي تقع بجواره مباشرة إنه شيء مطمئن عندما تعرف أن جارك هو القائد الأعلى للحرس الوطني.

واتضح أن الجيرة المباشرة عبارة عن ثمانية كيلومترات في الحقيقة حيث وصلنا إلى أرض ذات مساحة شاسعة.

قريا مدينة صغيرة عليها مبانٍ صغيرة، وعدة بيوت تشرف عليها فيلا كبيرة. وعند بوابة الفيلا استقبلنا والدا العروسين بالترحاب، والد سلطان الذي كنت أعالجه ــ شدَّ على يدي بحرارة ثم عرفني على السيد داووق.

ومع أن الوالدين كانا في نفس العمر تقريباً إلاَّ أنني أحسست أنهما يمثلان مجتمعين وأسلوبين في التفكير مختلفين.

كان والد سلطان ينتمي إلى السلالة الملكية العريقة، لبق الحديث، اجتماعياً ومثقفاً. وهو من الطبقة التقدمية في السعودية وكان قد تعلم في الخارج.

وبالرغم من أنه يطبق التقاليد السعودية في مجموعها إلاَّ أنه كان رحب الصدر. أما السيد داووق فكان يبدو عليه أنه من ماضي السعودية فكان محافظاً، قصيراً ممتليء البدن، مؤمناً متشدداً ، يحفظ التقاليد، ومؤيداً لإغلاق السعودية في وجه الخارج ــ وكان يلبس الصندل ولا يتحدث الإنجليزية وقد بدت عليه إمارات الفظاظة لمجرد حضوري حفل الزواج وقد قدمني والد سلطانة إليه على أنني الطبيب الذي عالجته وأنني قد ساعدت منذ وقت قصير سلطانة في الشفاء من مرضها.

وحاول منصور أيضاً أن يذكر محاسني ولكن بلا جدوى فقبض السيد داووق على مسبحته ومد يده اليمنى في تحفظ. وقد يكون قد سأل نفسه عما قد جاء بي إلى حفل مثل هذا.

وفكرت أنا أيضاً في نفس الشيء. فكان من المستحيل أن تجتاز في بضعة ثوان حاجزاً من ألف سنة.

سرت مندهشاً مع منصور وهو يريني أرض العائلة كانت المساحة المحجوزة لحفل الزواج أكبر من ملعب كرة القدم.

مصابيح ملونة علقت في كل اتجاه، وعربات النقل والماكينات الضخمة التي كانت مخصصة لعمال حفر منطقة الداووق ــ كانت تحيط بجانبي المكان.
وبالرغم من أن المكان لم يكن مثيراً جداً إلاّ أن تأثيره على النفس كان هائلاً. وسألت نفسي عمَّا إذا كان عرض الآلات المعقدة محاولة مقصودة للتفاخر بثراء العائلة.
كانت حوالي مائة سجادة شرقية مزركشة تغطي الأرض الصلدة.
وفي الوسط وضعت المقاعد على هيئة مستطيل كبير. وكانت هذه المقاعد تنقسم إلى مقاعد بسيطة للجمهور ومقاعد كبيرة وثيرة توجد في أعلى وأسفل نهاية الثماني مخصصة للعائلة المالكة، بدأ المدعوون في الوصول وفي مصافحة أصدقائهم وقد دلني منصور وسلطان في إيجاز على إفراد العائلة المالكة وقد تعلمت أن أعرفهم من خلال التطريز الذهبي على عباءاتهم وبالطبع من خلال أحذيتهم الغربية.
ثم أخذت أتطلع لنصف الساعة إلى الناس حولي انتظاراً لبدء حفل الزواج. امتلأت المقاعد بسرعة ووفقاً لمدعوون في مجموعات بينما كان الخدم بثيابهم الطويلة يتحركون بينهم بخفة ليقدموا القهوة بالحبهان.
وكان الرجال يجلسون أو يتحدثون أو يسيرون محيين معارفهم وأقاربهم.
ثم بدأت ألاحظ أن الحفل قد بدأ بالفعل. ومن الظاهر أنها هذه هي طريقة السعوديين التي يحتفلون بها في مثل هذه المناسبات.
أما أنا فكنت قد شعرت بأنني زائد عن الحاجة وأحسست بالملل.
ولحسن حظي عثرت على طبيبين من المستشفى فسرت إليهما فرحاً لأحييهما.
كان أحدهما طبيب نساء أمريكي، أخبرني أنه أعطى كثيراً من النساء السعوديات حبوب منع الحمل وأن النساء المثقفات ايضاً يأخذونها، أما البدويات أو المؤمنات المتشددات فلا يفعلن ذلك.
أما الآخر فكان جرّاحاً مصرياً وأحد أصدقاء عائلة داووق القدامى. وأخبرني أن مضيفنا ثري ثراء هائلاً وقد وصل إلى الكثير باجتهاده ولكنه لا يعرف ما الذي يفعله بماله.
وقد زعم الطبيب المصري أنه سمين أكثر من اللازم ويشرب أحياناً أكثر من اللازم بسبب إصابته بالسكر.
وقد كان الطبيب أيضاً سميناً ويبدو أنه أيضاً يشرب أكثر من اللازم.
وقد باح لي منصور بسر أثناء ما كنا نمشي قائلاً: إن الدكتور نديم صديق لوالدي ولسوف يسكران الليلة بعد أن يذهب الجميع.

فقلت: إن لهما حق، فأنا لا أتخيل أن يمر حفل زواج بدون أن يشرب فيه أحد وفي الحفل بالذات الذي يضم رجالاً فقط.

فقال منصور جاداً: إن ذلك ضد ديننا.

فنظرت إليه لاعرف إن كان يهزل ولكنه كان جاداً تماماً. وكمعظم السعوديين فهو لا يستغرب أن يحتفل الناس بالزواج على هذه الطريقة الجافة وبعد أن يخلو الجو من المدعوين يبدأون في الشراب.

بعد التجول المتخبط عثرنا على بوفيه الحفل والذي كان في أحد الأركان في الحفل. كانت المفارش البيضاء موضوعة على امتداد طول الحفل وعرضه. وكان الخدم منشغلين بإعداد صحاف البرتقال والتفاح والموز والعنب والتمر ولكن لم ألمح اثراً للملاعق أو السكاكين أو الملاحات.

وخطر ببالي أن السعوديين لا يضعون على الطعام الجاهز الملح أو الفلفل بل عصير الليمون. وهم لا يستعملون في طهي الطعام إلاَّ القليل من الملح والفلفل بل يضعون عليه الطماطم والزبيب وقشر البرتقال أو الجزر.

وعلى حد قول منصور فإنهم كانوا يعدون الوجبة الرئيسية المسماة بالكبسة وقد وصفها لي بأنها تتكون من الضان والأرز عليه قطع الدجاج والطماطم والبصل والجزر مخلوطة بالزبيب واللوز محاطاً بالبيض المسلوق، شيء يفتح الشهية. جعلتني عصافير بطني المزقزقة أتذكر أن السعوديين يتناولون طعامهم في وقت متأخر.

وأخيراً آن الأوان، ففجأة بدأ الجميع كما لو كانت تحركه الغريزة في الاتجاه إلى البوفيه وبهدوء أخذ السعوديون أماكنهم، حيث جلسوا قابعين على السجاد أو واضعين سيقانهم وأقدامهم تحتهم. واندهشت كثيراً لأنني لم أسمع طقطقة ركبة أي أحد منهم. وبعض من جلس منهم في وضع مريح بجواري كان في حوالي السبعين أو الثمانين من عمره إلاَّ أن أعضاء جسده كانت مرنة بصورة أكبر من أعضاء جسمي أنا.

ولما أنني حسدتهم على هذه المرونة الجسدية حاولت أن أقلد الطريقتين في الجلوس مما آثار طرب منصور وسلطان، فوضع القبع اتضح أنه مغامرة غير مثمرة فلم استطع أن أجلس على فخذي والبقاء على هذا الوضع. ولما ربعت وجدت أن هذا الوضع غير مريح أيضاً. وفي البداية لم أستطع أن اثني ساقاي تحتي وبمساعدة صديقاي كل من جانبه أنجزت الأمر أخذت ساقاي في التنميل ثم فقدتا الاحساس.

وفي النهاية توصلت إلى حل وسط وهو أنني أتخذت وضع الرومان القدامى بأنني تمددت على جانبي مرتكزاً مرفقي.

وعند التئام شمل الجميع أخذت عربات النقل الصغيرة تسير بين المبنى الرئيسي والبوفيه، وحمل الخدم صوان كبيرة عليها الكبسة الساخنة يصعد منها البخار ليضعوها أمامنا على الأرض وبدأ الضيوف يأخذون الطعام بايديهم من هذه الصوان. كانوا يأكلون في اعتدال وببطء ويسر وتؤدة بينما يتحادثون بنبرة مكتومة.

كانوا يستعملون دائماً يدهم اليمنى ليأخذون قطع الضأن والدجاج.

وأحياناً كانوا يكورون الأرز في كفوفهم لياكلونه وكانت كل صينية قد أعدت بطريقة تجعل أربعة أفراد يأكلون منها بوضع مريح كل اثنين منهم يجلسان على طرف. والسعوديون يستخدمون أصابعهم بمهارة في استخلاص بقايا اللحم من العظم.

كان اللحم جامداً ولكنه كان طيب المذاق. أما لحم الدجاج فكان شيئاً عظيماً. وأما الأرز فكان لزجاً، ربما لأنه سوي أكثر من اللازم. ثم قدموا لنا الحلو الذي كان يتكون من فاكهة طازجة، وشيء يشبه البودينج بالثمار. وقد كان التمر حلواً جداً وغضاً. ختام طيب لوجبة مرضية جداً. وقد كنت سعيداً لأن أحداً لم يتعثر في ساقاي الممدودتين.

عندما انتهينا من الطعام سألني سلطان: هل أعجبك؟

فقلت: إنه مدهش ومع أنني حضرت حفلات زفاف كثيرة إلاَّ أنها المرة الأولى التي أحضر فيها حفلاً لا يضم امرأة واحدة، إنها تجربة جديدة.

ابتسم سلطان وقال: سيصبح الحال أفضل .

****

كان قرع طبول يصل إلى مسامعي من بعيد.
قال لي منصور: تعال معي. لقد بدأ الرقص.
فذهب ثلاثتنا نقطع الحقل، بينما كان الصبية يقفون في الطريق لتحية أفراد الأسرة والأصدقاء.
وفجأة ظهر محمود واتجه ناحيتي ليصافحني، ومع أنه كان يبتسم إلاَّ أن التوتر كان بادياً عليه ثم سألني في أدب: هل يعجبك حفل الزفاف؟ فقلت: إنه شيء فريد أما زلت عند وعدك بدعوتي لمشاهدة احتفال النساء؟
فقال: بالتأكيد، إنني سوف اذهب بالليل ولسوف يطلعك سلطان ومنصور على الأمر.
وبينما كان محمود يختفي بين جموع المهنيئين، كنت أنا وسلطان ومنصور نمضي قدماً تجاه الطبول.
وهناك تحت أكاليل المصابيح الملونة كانت توجد مساحة كبيرة مغطاة بسجاد أزرق ذهبي يثير الإعجاب، ورأينا صفين من الرجال يقفون في مواجهة بعضهم البعض ويفصل بينهم مسافة تقدر بحوالي سبعة امتار.
كان الرجال في الصف الأول يعلقون طبولاً مستديرة ملونة على أعناقهم بواسطة رباط، وفي مواجهة الطبول كان يقف الصف الثاني من الرجال الذين يقومون بالغناء. كان كل مطرب يحمل قضيباً طويلاً في يده، يمثل رمحاً أو يحمل سيفاً طويلاً مخيفاً.
وكانوا يصدحون بالمواويل وعلى وتيرة واحدة ويتغنون عن مجد البدو وعن معارك الماضي، وعلى إيقاع الطبول كانوا يحكون في غناء رتيب القصص والامثال الكثيرة والتي كانت روايتها تنتقل من جيل إلى جيل، وهي الطريقة المألوفة لتسجيل التاريخ في مجتمع لا يعرف القراءة ولا الكتابة.
ويمتد عمر بعض هذه القصص إلى ألف عام ومعظمها غير مكتوب.
في البداية كان المطربون يقفون مصطفين أما الطبالين. ثم بدأوا يرقصون مع الغناء، واحداً أو اثنين معاً. ولكنهم كانوا في الواقع يتبخترون كما يتراءى لهم، بينما كانت ثيابهم الطويلة تتطاير في الهواء، وكان بعضهم يحمل في يده أثناء الرقص كرات من الريش. ثم اشترك ضاربو الطبل في الرقص ثم انضم إليهم في النهاية العريس والضيوف الذين أخذوا يرقصون بلا نظام معين ولكنهم كانوا يقفزون هنا وهناك ليشاركوا البدو لهجتهم.
كان كل منهم يشعر بالتحدي كل منهم يشعر بالقدرة على الرقص.

وبالطبع شاركت أنا وسلطان ومنصور الجماعة، وطغى علينا الحماس الجماعي فرقصنا بعنف وبلا قيود ولم ندرِ بالذي نفعله ــ ولما لم يكن للرقص بداية فلم يكن له أيضاً نهاية فبدا وكأنه لن ينتهي أبداً.

ثم بدأ الناس يكفون عن الرقص، بعد أن أصابهم الكلل. وبدأت الإثارة تهدأ. كما بدأ المطربون يتوقفون واحداً تلو الآخر. وكذلك الطبول بدأت تخف حدتها تدريجياً، لم ينته الرقص بل انطوى على نفسه. ثم خيم الصمت على الجميع مرة أخرى. وعاد الضيوف إلى أماكنهم واخذوا يتجاذبون أطراف الحديث من جديد.

وعلى نحو ما شعرت بخيبة الأمل والصدمة في هذه النهاية. فقد أكد لي أصدقائي قبل ذلك أن الرقص سيستمر حتى الصباح.

قطع الصمت اصوات مألوفة تأتي من الجهة الأخرى للحفل كان خليط موسيقى من"الروك أند رول" والأنغام الشرقية، فذهبنا إلى هناك نستطلع الأمر فوجدنا حوالي مائة رجل يرتدون الأزياء الغربية، والبنطلونات الجينز والقمصان الملونة. كان هؤلاء الرجال من العاملين الذي يستخدمهم مضيفنا في أعمال ضخ الماء. وكان معظمهم لبنانيين، والبعض منهم فلسطينيين.

وكانوا يقبعون أو يجلسون واضعين سيقانهم تحتهم على السجاد الشرقي الضخم متخذين شكل دائرة كبيرة. وكان بينهم رجل يداعب أوتار جيتار بينما أخذ الآخرون يصفقون على إيقاع الجيتار.

وفي قلب الدائرة كان هناك شابان يرقصان رقصاً شرقياً بديعاً. وكان كلما ازداد التصفيق حدة، كلما ازداد الرقص حماساً، وقد أثر الإيقاع في الجميع، ثم اخذ الشباب يتبادلون الرقص. وكل منهم يحاول أن يبز الآخر. يا له من منظر. كان ذلك يحدث بينما كان السعوديون ينظرون بفضول متحفظين. ولا يشاركون في التصفيق.

فهذا النوع من الرقص يعتبر في السعودية خارقاً للتقاليد ومحرماً.

وبعد عدة دقائق كان المطربون وضاربو الطبل يقفون صفوفاً ليبدأ الرقص السعودي من جديد، ويبدأ التنافس مع اللبنانيين في الطرف الآخر من الحقل.

بعد حين ذهبت مع سلطان ومنصور إلى المبنى الرئيسي في أرض داووق.

كانت فيلا ضخمة محاطة بحدائق بديعة مساحات حشائش مهذبة، ونخيل رشيق محمل بالتمر.

أمّا حمّام السباحة فكان يقع في مكان مخصوص محاطاً بسور، وعلى مقربة كانت تقع عدة منازل صغيرة مخصصة للخدم.

قال منصور: بعد قليل سيذهب محمود إلى فندق "أنتركونتننتال" ليعود بالعروس، وهو متوتر جداً لأنه لا يحب أن يكون وحيداً وسط هذا الجمع من النساء.

ــ أليست تلك النساء من العائلة؟

ــ بالطبع كثيرات منهن. ولكنه بالرغم من ذلك سيكون هو الرجل الوحيد بين ثلاثمائة امرأة.

ــ وماذا عني أنا؟ كيف سآتي إلى الفندق؟

فشرح لي منصور وسلطان الخطة:

ففي منتصف الليل سيتجمع الأقارب والمعارف حول محمود يصافحونه ويقدمون له التهاني. وسيكون ذلك إيذاناً بذهابه، فيركب محمود وابوه سيارة وسلطان وأبو العروس سيارة أخرى ويمضون إلى فندق "انتركوننتننتال"، أثناء ذلك سأكون أنا ومنصور في الطريق.

نصحني منصور قائلاً: لا بد أن نسبق الآخرين حتى تستطيع أن تشاهد احتفال النساء، وأبي لا يعرف شيئاً عن مغامرتك الصغيرة ولو عرف ذلك فإنه سيغضب جداً. ومن المهم أيضاً ألاَّ تراك النساء. وإذا ضبطوك في فندق "أنتركونتننتال" وأنت تنظر إلى احتفال النساء فسوف نقع جميعاً في ورطة ومعنا سلطانة.. هل أتخذت جميع الاحتياطات؟

فقلت له: نعم سوف أقص عليك ذلك فيما بعد.

ــ حسناً، ولا تنسى أن ما تفعله ممنوع منعاً باتاً في مجتمعنا.

كان يبدو أن جملتي: "ممنوع" "حرام" "وإنها التقاليد" تستخدم دائماً. فأكدت له أن سلطانة وأباها كذلك موافقان على ذلك، وقد عرف محمود بالأمر. بعد قليل بدأ الرجال يتجمعون حول محمود فعرفت أن الوقت قد حان للذهاب، وفي الطريق شرحت خطتي لمشاهدة احتفال النساء في إيجاز. فقد كان أحد المرضى الذين عالجتهم يعمل "سفرجياً" في فندق "أنتركونتننتال" ووعدني بأن يوفر لي مخبئاً جيداً لا يستطيع أن يراني فيه أحد، ولكنه يمنحني فرصة ممتازة للرؤية.

****

عندما وصلنا الفندق قال منصور: إن شاء الله حظ سعيد وإياك ان تستخدم الفلاش في مخبئك.

شعرت بالاضطراب لإقدامي على هذه المغامرة ولكني قلت له:

أوعدك بذلك، ولنتقابل بعد ذلك في بهو الفندق.

وفي الفندق كان صديقي حسين "السفرجي" في انتظاري فقادني من مدخل العمال إلى سلم خلفي إلى شرفة صغيرة تطل على قاعة الاحتفال، ثم همس لي قائلاً: ها هو مكانك. ولو وقفت خلف هذه الستائر فلن يراك أحد، ولكن خذ حذرك ثم ابتسم وعاد أدراجة نازلاً السلم بحرص. ومن

مخبئي نظرت إلى المشهد الذي كانت تجري أحداثه تحتي والتي كانت فريدة ومدهشة وغريبة. فكانت تستحضر عرضاً خيالياً
من ليالي ألف ليلة وليلة
مئات من النساء، الطويلات القامة، الإنيقات، في ثياب فاخرة من الحرير والفستان اللامع الملون.
ولما لم يكن هناك رجال، كانت النساء بلا حجاب فأسكرني جمالهن الأخّاذ.وكانت المجوهرات الثمينة تبرق حول أعناقهن الإنسيابية المليحة ومعاصمهن الدقيقة والزمرد والياقوت والماس كان يبدو في أضواء النجف الكريستال لقاعة الاحتفال وكأنه سيشتعل ناراً.
ومع أنني لاحظت في البداية الأناقة الغالبة إلاَّ أنني أدركت بعد ذلك أن جو الحفل كان يسوده الإنشراح والهدوء، تماما مثل الحفل الآخر الذي كان يشترك فيه الرجال فقط.
كان معظم النساء يجلسن أو يقفن في مجموعات ويتحدثن بصوت خفيض وقليل منهن كان يرقص إما فرادى أو اثنتين اثنتين.
وعلى قاعدة مرتفعة في مقدمة القاعة كانت تجلس مجموعة من الفتيات على شكل نصف دائرة وتعزف على آلات موسيقية مختلفة.
أما سلطانة فلم ألحظ لها أثراً في أي مكان، وفي مؤخرة القاعة كانت تجلس مجموعة من المتفرجات المحجبات بإحكام وكان يلفهن السواد فبدين في منظر مخيف.
كانت هؤلاء هن "المتفرجات" اللائي يأتين إلى الأفراح بلا دعوة. ويكن في العادة نساء فقيرات يجدن شيئاً من إرضاء النفس في حضورهن لمثل هذه الحفلات الراقية. وحسب التقاليد في السعودية فإنه يسمح لهؤلاء النسوة بالاشتراك في حفلات الزفاف على شرط أن يبقين محجبات.
بعد عدة دقائق دخلت سلطانة من باب جانبي صغير وكانت ترتدي فستان سهرة باريسي مطعماً باللؤلؤ، وتضع طرحة مثبتة بإكليل من الماس.
وبينما كانت تتجه ببطء مع زوجة أبيها ونساء أخريات من العائلتين إلى القاعدة المرتفعة أخذ الطبل يقرع، وبينما كانت النسوة تجلس إلى جانب العروس ارتفعت "الزغاريط" النشاز.
والزغرودة تنتج عن تحريك اللسان بسرعة بين الفكين فتخرج أصوات رنانة، وتسمى هذه الطقوس "الزفة" وترجع الى العصور الوسطى حيث كانت تخرج المواكب لتطارد الأرواح الشريرة، وبينما كانت سلطانة، بفستانها الفاخر الطويل ذي اللآليء اللامعة، تقترب من المنصة كنت أنا أفكر في الساعات التي قضيتها معها في المناقشة حيث لم يكن يحيط بها مثل هذه

الأبهة. فكانت تجلس مرتدية قميص المستشفى البسيط وتخبرني أن النساء يسعدن بهذه الحفلات حيث يقمن باستعراض حليهن أمام الأخريات وليقضين الوقت في الثرثرة.
والان وهي تذهب تجاه واحد من المقعدين الشبيهين بالعرش والموضوعين على القاعدة المرتفعة فإنها تلتزم أيضاً بهذا النمط من الحياة.
ومن هذه اللحظة سوف تنتظر حدوث مثل هذه المناسبات حيث تستغل النساء الفرصة المتاحة لهن للالتقاء.
هذا هو المستقبل الذي ينتظرها وهي التي قررت أن تعيش حياة أميرة سعودية.
بعد قليل دخل محمود وأبوه قاعة الاحتفال ومضيا تجاه القاعدة المرتفعة بخطوات متروية مختالة، وفي النهاية وقف العريس أمام عروسه، ثم مد يده وأخذ يرفع الطرحة ببطء وبحرس. كان لهذه اللحظة معنى حسي هام فقد كانت هذه هي المرة الأولى التي قد يكون العريس رأى فيه وجه عروسه.
نظرت إليه سلطانة بجمود لعدة لحظات، ثم انفرجت أساريرها وابتسمت ابتسامة، فضحك جميع الحاضرين وصفقوا.
وطبقاً للتقاليد المتبعة في طقوس حفلات الزفاف قام محمود بإلقاء حفنات من العملات الذهبية على الحاضرين وكان بذلك يعبر عن فرحه.
وبعد صراع قصير وعنيف على القطع الذهبية، أتت النساء لتهنئة العروسين. وفجأة ظهر منصور وسلطان في القاعة. فارتفع صخب عال محذر من بين النساء. ولنشر الفرح في الحفل أخذت تلقين عليهما بالقطع الذهبية والبونبون بما يوحي بصورة رمزية للرجم "بالحجارة"، لطرد الرجال والدفاع عن شرفهن. وفي خوف تمثيلي انسحب الرجلان بعد أن جمعا "الحجارة" وأسرعا يهرولان من قاعة الاحتفال.
بقي محمود وسلطانة جالسين لعدة دقائق وبعد أن تقبلا تهاني المدعوين، نهضا واقفين ليذهبا. فغادرت مخبئي وأسرعت أهبط على السلم الخلفي متجهاً إلى بهو الفندق، حيث قابلت منصور وسلطان اللذين كانا يأكلان البونبون ويحصيان القطع الذهبية في سعادة ورضا.
فصافحت سلطان مودعاً ثم ذهبت مع منصور عائداً إلى قصر داووق. وهناك كان الحفل يمتد إلى الصباح بالرغم من أن معظم الضيوف كانوا قد غادروا المكان، وكان ضاربو الطبل والمطربون مازالوا يعملون وبدا أن الراقصين مصممين على المواصلة حتى الصباح، وكان الرقص الشرقي في الطرف اللبناني من الحفل ما زال مستمراً بنفس الحماس السابق.

وبعد قليل قادني منصور إلى "عش شهر العسل" حيث سيقضي العروسان أيامهما الأولى. وهناك رحبت بي الخادمة، والتي كانت في صحبة سلطانة في المستشفى، فابتسمت لي بعد أن تعرفت عليّ وقادتني إلى غرفة المعيشة حيث كان محمود وسلطانة يجلسان على أريكة طويلة وبدا عليهما الارهاق والسعادة. وقد أذهلتني الطريقة التي أمسك بها محمود سلطانة فقد وضع يده على كتفها وكأنه يقول: إنها الآن ملكي.

ومثل هذا الإعلان عن التقارب سوف يثير الاستهجان الشديد لدى المجتمع السعودي، وخاصة إذا حدث أمام الآخرين. ولكنهما كانا يريان بلا شك في شخصي صديقاً خاصاً جداً.

سألني محمود إن كنت أريد أن أشرب شيئاً، كنت أتمنى "الشمبانيا" ولكن كان عليَّ! أن أختار عصير الفاكهة والقهوة فقط.

أخذت قهوتي بينما كنت اسمع سلطانة وهي تحكي ضاحكة عن حفل الزفاف. ومع أنها كانت تبدو مرحة إلاَّ أن حديثها كان متحفظاً بصورة غريبة كما لو كانت تشعر بالحرج في حضور زوجها.

فخطر ببالي أن محمود قد لا يعرف ابداً في سلطانة هذا الجانب الذي حاز بتقديري: سلطانة،المرأة الناضجة، المتفتحة، المتحررة، تلاشت الآن.

الفصْل الحادي عشر

الجنس كأحد التقاليد

إن الرغبة الجنسية لدى السعوديين لا يمكن إرضاؤها... بعد افتتاح المستشفى هجمت علينا موجة من السعوديين يشكون الضعف الجنسي ولم يكن التقدم في السن هو سبب هذه الحالات، لأن معظمهم كانوا فيما بين الثلاثين والخمسين من عمرهم وفوق ذلك كانوا يتمتعون بصحة ممتازة.

عندما بدأت هذه الشكوى تنتشر كالوباء قام قسم الأمراض التناسلية بتقييم التقارير فوجد أن السعوديين يعتقدون أنهم مصابون بالضعف الجنسي إذا لم يستطيعوا أن يمارسوا الجنس مرتين أو ثلاث مرات يومياً.

وبناء على ذلك قمنا بتخفيض كبير في الحالات التي تحول إلى المستشفى للعلاج من الضعف الجنسي.

وقد قال لي أخصائي الأمراض التناسلية، وهو أمريكي، وكأنه يدعو الله من كل قلبه:

إنني آمل، عندما أصل إلى الخمسين، أن أكون أنا أيضاً في مثل هذا الضعف الجنسي.

ثم عرفنا فيما بعد ان الرجال في السعودية لا يشبعون من الجنس في أي مرحلة من مراحل عمرهم.

إن الجنس جزء من التقاليد في السعودية.

فالملك عبد العزيز، مؤسس السعودية الحديثة تزوج لأول مرة وهو في الخامسة عشرة من عمره.

وعلى حد قول مصدر موثوق فيه، فإن الملك عبد العزيز تزوج ثلاثمائة مرة تقريباً. ولكنه كان يحتفظ بأربع نساء معاً على ذمته.

ويضاف إلى هذا العدد، عدد آخر غير موجود من السراري والإماء اللاتي كان يملكهن الملك.

وطبقاً لشهادة مكتوبة، فإن الملك عبد العزيز قد اعترف في عام 1930 للباحث الإنجليزي هاري س ت. جون فيلبي:بأنه تزوج مائة وخمس وثلاثين عذراء وأكثر من مائة امرأة أخرى.

ولكنه قرر أنه سيقصر الزواج في المستقبل على اثنتين فقط في العام.

ولكن الملك عاش بعد ذلك مدة خمسة وعشرين عاماً فإنه يمكن التنبؤ بأن عدد نسائه وصل إلى الثلاثمائة.

وقد استطاع الملك أن يتذكر النساء اللاتي تزوجهن لبضعة أيام ولم يبذل مجهوداً لكي يرفع الحجاب عن وجوههن.

وبمرور الوقت اتضح لي أن كثيراً من السعوديين كانوا على شفا الجنون بالجنس. وقد حاول أحد الجنرالات، وكان يعاني من آثار الخمر، أن يشرح لي هذا الموضع:

كان الجنرال رجلاً وسيماً في حوالي الأربعين من عمره وقد درس في الأكاديمية الحربية في إنجلترا ثم تزوج بعد ذلك من إحدى السعوديات وقد كانت هذه هي زوجته الوحيدة، وأنجب منها اربعة أطفال.

وقد أدخل الجنرال إلى المستشفى بعد إصابته بالتشنج نتيجة حرمانه المفاجئ من الخمر بعد عودته من أحد رحلاته في إنجلترا. أثناء فترة نقاهته أخذ يقص عليَّ مشاكل مع الجنس والخمر باستفاضة. وقد ردَّ معظم المصاعب التي يلاقيها إلى انشغاله الشديد بالجنس.

فسألته: وكيف توضح ذلك؟

ــ إن الفصل بين الجنسين في هذا البلد، تحجيب المرأة والاتصال المحدود للغاية بين الرجل والمرأة فأثناء طفولتي وشبابي كان للجنس وطأة لا تقاوم.

وأستطيع أن أتذكر أن الجنس كان شغلنا الشاغل لأنه كان التابو الدائم[12].

ــ وكيف حال النساء؟وأي دور يلعبنه في ظل التقاليد الجنسية؟

لا يستطعن مقاومة محاولات الرجال، فهن يستسلمن بتلقائية لأي تودد من جانب أي رجل.

إننا جميعاً شهوانيون للغاية ولكن رغبة المرأة أقوى من رغبة الرجل.

كانت هذه نظرية نمطية في السعودية، سمعتها كثيراً.

ثم استطرد الجنرال قائلاً: نحن نفترض أنه من البديهي أن المرأة هي رمز الجنس، وأنه إذا اختلى رجل سعودي بامرأة سعودية فإنهما سيمارسان الجنس، حتى ولو كانا لا يعرفان بعضهما لابعض. كما أن نظرة المرأة وحدها تثير غرائز الرجل.

ولكي أتأكد من الذي سمعته سألته:

هكذا، إنك تعتقد أن هذا الجنس الغير قابل للترويض هو اساس الفصل بين الجنسين في هذا البلد، وقد قلت منذ قليل إن الفصل بين الجنسين هو الذي أدى إلى هذه المشكلة.

هزَّ الجنرال رأسه بإيماءة لها معنى وقال:

نعم، ولكن قد يكون العلاج أسوأ من المرض.

ــ ماذا تعني بذلك؟

---

[12] المحرم (المترجم).

فأخبرني الجنرال بأنه لا يستطيع إرضاء رغباته الجنسية الا مع الأجنبيات اللاتي يعملن في السعودية، على سبيل المثال المضيفات أو الممرضات أو المساعدات الفنيات للأطباء، وإنه يفضل الغير مسلمات، ثم قال:

ــ إنه لا يوجد عندنا مومسات بمعنى الكلمة ولكننا عادة ما نقدم للأجنبيات هدايا ثمينة، ولكن إغراءهن يتطلب وقتاً ومجهوداً كبيرين، وإنني لأفضل السفر إلى إنجلترا، إن ذلك أسهل بكثير، وقد شربت هذه المرة أكثر من المعقول وها أنا ذا أصبحت نزيلاً في المستشفى.

ــ هل مارست الجنس مع إحدى السعوديات؟ فيما عدا زوجتك؟

ــ لا، لم أفعل قط. فهذا أمر خطر للغاية، لأنني رجل معروف، إن ذلك يجلب العار على المرأة ويمكن أن يكلفها حياتها إن انكشف أمرها.

وقد حاولت أن أسدي له النصح فقلت:

إذا كنت بهذه الرغبة القوية فلماذا لا تتزوج امرأتين أو ثلاث أخريات؟

ــ إن ذلك أمر مكلف للغاية، وهو مصحوب دائماً بالمتاعب.

وبخلاف ذلك فإنني احب زوجتي وأولادي. ثم قام بعرض صور لهم عليَّ ثم اضاف:

إنني مضطر لممارسة الجنس مع نساء كثيرات مختلفات وأحياناً أظل أروح وأجيء طوال الليل وأنا أتخيل هذا الأمر.

إن الإسلام يقر تعدد الزوجات بالنسبة للرجل، كما أن الإخلاص لإمرأة واحدة طول العمر أمر ضد طبيعة البشر.

وحتى لو كنت متزوجاً بأربع فإنه يجوز لك إقامة اتصال جنسي بالسراري والنساء غير المتزوجات والمومسات ثم إنني أخبرت زوجتي بأمر علاقاتي الجنسية في إنجلترا مؤكداً على حبي لها هي فقط. ومع أنها حزنت لذلك إلاَّ أنها حاولت أن تفهمني.

ــ ولكنك يا سيدي قلت لي إن السعوديات أكثر رغبة من الرجال السعوديين، فلماذا لا يسمح لهنَّ بالمثل؟

ــ يتحتم على المرأة السعودية أن تكون عذراء عند الزواج ولابد لها من الإخلاص لزوجها فشرف عائلتها مهدد بالضياع بسببها.إن أعظم ذنب ترتكبه المرأة هو أن تسمح لرجل غير زوجها أن يمتلكها جنسياً وإذا زنت المرأة فإنها تكون قد أرتكبت بذلك إثماً. وإذا كانت تريد أن تتخذ لنفسها عشيقاً فلا بد ان تطلب الطلاق من زوجها.

إن العالم المسيحي لا يفهم أن الشريعة الإسلامية أباحت تعدد الزوجات وحرمت الزنا تحريماً قاطعاً.

كما أن العالم الإسلامي لا يدرج التزامكم القانوني بالزواج من واحدة فقط ولا يفهم موقفكم المتسامح جداً مع الزنا.

ــ قد لا تحبون موقفنا اللين هذا تجاه الزنا ولكنكم تستفيدون منه بلا شك.

ضحك الجنرال وقال:

إن الكثيرين منا سيصابون بمرور الوقت بانفصام في الشخصية، فنحن لنا حياتنا الفاضلة والمتعففة في داخل المجتمع المحافظ لدرجة لا نستطيع تحملها.

ثم نسافر إلى إنجلترا والولايات المتحدة، حيث نسكر، ونحصل على النساء اللاتي نبغيها وأحياناً تستمر حفلاتنا الماجنة لعدة شهور.

تذكرت هذه الصورة الماجنة التي صادفتها أثناء زيارتي للملك سعود في بوسطن قبل عدة سنوات وقلت:

نعم، أعرف ذلك وكثيرون منكم ينتهي بهم الحال إلى المستشفى لكي يعالجوا من ذلك.

نظر الجنرال من النافذة متأملاً ثم قال بصوت خفيض: ولكنه شيء يســتأهل .

****

السعوديون القائمون على الإدارة لا ينزعجون إذا اتهمت واحدة من غير المسلمات بالزنا ولكن الويل والثبور للمسلمة التي تقيم علاقة محددة للغاية مع رجل غير مسلم فقد وقعت سكرتيرة مصرية في غرام أحد الإنجليز، كان يرغب في الزواج منها، وكما أكدت هذه السكرتيرة لي، كانت علاقاتهما طاهرة. ولكن الموظفين السعوديين نبهوا عليها محذرين بأنهم سوف يفصلونها من المستشفى ويعيدونها إلى مصر لو أنها رأت هذا الإنجليزي مرة أخرى. وقد قالت لي: إن عائلتي فقيرة جداً، وأنا أرسل إليها الجزء الاكبر من راتبي لكي تستطيع شراء طعام ولهذا فإنني لا أستطيع التنازل عن وظيفتي.

ولقد أظهر موظفو الإدارة السعوديين تفهماً لحالتها ولكنهم قاموا بفصل الإنجليزي وإبعاده بعد أسبوعين إلى بلاده. وعلى معلوماتي فإنها لم تسمع عنه أي شيء بعد ذلك.

****

إن الجنس يمثل المتعة الكبرى في الحياة بالنسبة للسعوديين نساءً ورجلاً على حد سواء.

وفي العادة أن تتمسك العروس البدوية بالأدب في ليلة زفافها ولا تحاول أن تظهر وجهها أو جسدها أمام عريسها. أما إذا حاول زوجها إماطة حجابها أو نزع أي قطعة من ملابسها فإنها تقاوم بكل قوتها..كما يليق ببدوية عفيفة. وترتدي نساء بعض القبائل "البرقع"ويحاولن التمسك بارتدائه لدواعي العفة طوال عشرة أيام، ولكنهن لا ينجحن في العادة.

وفي بعض المناطق يعتبرون من الأصول أن تقاوم العروس عريسها وتدافع عن نفسها لإنقاذ عذريتها، فتصرخ وتعض زوجها وتخمشه حتى يجبرها هو على الاستسلام. ولكما اشتد وطال "الكفاح" كلما صارت عفة وعذرية العروس أكثر مصداقية.

وفي اليوم التالي يقوم الزوج بعرض جروحه الناتجة عن "الكفاح" على الأسرة قائلاً:"الله يبيض وجوهكم"، لقد حافظتم على عذرية ابنتكم..

ولكن البراءة تتطلب أدلة فإن هذا يتسبب في مشاكل لهؤلاء اللاتي فقدن عذريتهن على نحو طبيعي جداً، أو بدون ممارسة الجنس مع أحد. فتساعد الفتاة نفسها في بعض الأحيان بأن تقوم بعمل جرح صغير في جسدها أو تخضب الملاءة بشيء من دم الدجاج لكي ترضي غرور زوجها. لكن الرجال يقابلون هذه الحيل بالحذر، فإذا ضبطت الفتاة..

طردت وقام أقاربها بقتلها حتى يستعيدوا شرف العائلة حتى ولو كانت الفتاة عذراء بالفعل.

وفي بعض الأحيان فإن العريس وعروسه يبالغان في تقديم ما يخدمون به الرغبة الجنسية أو الإغراء.

أما يومهما الثاني فيقضيانه في المستشفى.

وذات يوم حضر عريس، كان وجهه كله مغطى بالخربشة والجروح، إلى قسم الاستقبال بالمستشفى مصطحباً زوجته البدوية.

وكانت علامات الفخر ترتسم على وجهه وذلك لأن زوجته أثناء دفاعها عن عذريتها في ليلة زفافها أو أثناء تمنعها بالخضوع كسر لها ضلعان. وقد رأيت علامات السعادة بادية على الاثنين.

فيما بعد قصَّ عليَّ أحدهم أن الرجل والمرأة يتطهران بعد الجماع طبقاً لتعاليم الإسلام..ويوجد دعاء معين تؤديه المرة الورعة أثناء عملية التطهير هذه.

والجماع محرم على النساء أثناء الحيض لمدة سبعة أيام. ولا بد بعد ذلك من أن يتطهرن تماماً قبل الإقدام على الجماع. وتسمي البدويات ذلك "غسيل الشعر". وأثناء رمضان فإن الجماع محرم بالنهار وحلال بالليل.

****

إن الفحولة الجنسية للرجال السعوديين المسنين لمضرب الأمثال:

فكثيرون ممن تخطوا الثمانين من عمرهم يتزوجون وينجبون.

وعندما بلغ الأمير إبراهيم التسعين كان يشكوا دائماً من الضعف.

الجنسي بالرغم أنه، كما يقال، قد أنجب ثلاثة أطفال بعد أن بلغ الثمانين.

وفي عصر أحد الأيام أتى إلى قسم الاستقبال رجل سعودي مسن مصطحباً معه ابنه.
وقد أثار إعجابي منظر الرجل، فقد كان طويل القامة معتدلها قوي البنيان، أما شعره فكان غزيراً فضي اللون وكان ذا لحية بيضاء وترتسم على وجهه ابتسامة عريضة. وعلى حد قول ابنه كانت مشكلته الوحيدة تتمثل في إصابته بفتاق لا يؤلم، ظهر من ستة أشهر ولم يزدد سوءاً.
ثبت أثناء الفحص أن الرجل يتمتع بحالة صحية ممتازة اللهمَّ إلاَّ الفتاق الصغير الذي كان قطره لا يزيد عن سنتيمترين ونصف ويمكن علاجه بسهولة.
ثم أخبرتهما أنه لا يوجد شيء خطير ويمكن العلاج بسهولة. ثم سألت الرجل:
كم تبلغ من العمر؟
فأجاب وهو ما زال يبتسم: خمسة وسبعين عاماً فصحح ابنه ذلك:
خمسة وثمانين على الأقّل.. فأنا نفسي سأصل الستين قريباً.
أما هذا الابن فكان يبدو في عمر أبيه.
وفي العادة فإن السعوديين يخفضون من أعمارهم بمقدار خمس أو عشر سنوات.
ثم سألت الأبن:هل ما زال ابوك يعمل؟
فقال: طبعاً.. فلديه محل صغير.
قلت: إن الفتاق ينبغي أن يعالج يوماً ما ولكن لأنه لا يسبب آلاماً ولم يزدد سوؤا ًطيلة الستة أشهر الماضية فلا تتعجلوا في ذلك.
ابتسم العجوز وقال: بلى. فلنسرع في ذلك، لابدَّ من التخلص منه حالاً لأنني سوف أتزوج في خلال أسبوعين.
فسألته في فضول: ومن هي العروس؟
فرد ابنه مباهياً: فتاة في الثامنة عشرة.. فهو يحب الفتيات الصغيرات.
فلقد تزوج الرجل ذو الخمسة وثمانين عاماً اثنتين وثلاثين مرة. وله من البنين ثمانية وعشرون ومن البنات ست عشرة.
فقلت: من الجائز أن نتخلص من الفتاق الآن. فقد يزداد سوءاً بعد زواجه.
ثم تذكرت كلمات الدكتور غندور: "لا يوجد رجال مسنون في السعودية".

***

كانت إحدى المريضات في العيادة الخارجية، والتي ما زلت أتذكرها جيداً وكان اسمها "كاشنة" تعمل كمساعدة فنية للطبيب وموظفة في المستشفى منذ افتتاحه في عام 1975.
كانت "كاشنة" امرأة طويلة القامة وجذابة وفي حوالي الثلاثين من عمرها.

وكانت ترتدي فساتين طويلة ملونة وكانت مريضة بالقلب ويجب فحصها بانتظام أما الشيء الغريب فيها هو أنها كانت مسلمة ولكنها شقراء، مزيج نادر في هذا البلد، وقد روت لي أنها ليست سعودية ولكنها من أصل روسي عراقي. فأجدادها كانوا قد أتوا من هذه البلاد بغرض الحج إلى مكة والمدينة ثم استقر بهم المقام في السعودية. وتوجد مجموعة من الأقليات الأجنبية حول منطقة الحجاز، لم تنضو تحت لواء الحضارة السعودية ولم تصبح سعودية في يوم من الأيام.

قالت لي: إنه ينظر إلينا كأغراب مع أننا بالطبع مسلمون وقد كانت المريضة المسلمة الوحيدة التي دعتني إلى بيتها فقد قالت لي ذات مرة:

لابد أن تأتي إلينا لتشرب الشاي.

فأحسست أنها تجاملني ورفضت الدعوة. ولم يكن عندي رغبة أن أذهب إلى منطقة "البعثة" حيث تسكن، حيث قنوات الصرف المفتوحة وحيث من المستحيل العثور على مكان انتظار للسيارات وكما قالت لي فإنها تركب حافلة المستشفى.

بعد عدة شهور دعتني مرة أخرى وألحت: "لا بد أن تتعرف على والِدَيّ". ورفضت للمرة الثانية. وبعد يوم من عودة دلال، أبن الدكتور "غندور" من فرنسا وعندما كنا نمشي في ممر المستشفى أشار إلى كاشنة وقال:

ــ إنها عاهرة ــ إنها تقبض أحياناً أربعة آلاف ريال في الليلة.

فقلت: غير معقول ــ ثم رويت له أنها كانت دعتني إلى مسكنها في "البعثة" حتى أتعرف على والديها.

فرد هو: إن والديها يعيشان في مكة ليس في ذلك شك.

فقلت وأنا أهز رأسي: سوف تفاجأ زوجتي بذلك.. مثلي تماماً.

الفصل الثاني عشر

رأس تطير في ساحة القضاء

كانت الفرصة،التي أتاحت لي العمل مع طلاب الطب السعوديين، من أهم العوامل التي جعلتني أشعر بالرضا عن عملي في مستشفى الملك فيصل.

وكانت الدفعة الأولى من خريجي كلية الطب بجامعة الرياض قد بدأت حينذاك فترة الإمتياز في المستشفى، مما فتح أمامي المجال لكي أساهم في تطوير كفاءة الأطباء في هذه البلاد.

أما الطلاب السعوديون فكانوا أذكياء متعطشين للعلم مما مثل لي تحدياً عظيماً أثناء تدريسي لهم، لا لأنهم كانوا يدرسون الطب بلغة أجنبية (الإنجليزية) فحسب، ولكن لأنهم كانوا يفتقرون إلى المعلومات الأساسية تلك التي تعتبر شرطاً أساسياً في المجتمعات الصناعية.

فعلى سبيل المثال كانت خبرة بعض الطلاب ضئيلة للغاية لدرجة أنهم لم يروا "الحقنة" قبل دخولهم الجامعة.

وبينما كنت أشاهد هؤلاء، وهم يحاولون استيعاب خبرة تسبقهم بمئات السنين كان يخطر ببالي نبوءة بيل طومسون بأن الأمر يحتاج إلى سنين حتى يصبح السعوديون أطباء أكفاء.

وعلى نحو أو آخر صارت هذه النبوءة بمثابة التحدي الشخصي بالنسبة لي وكلما كنت أصاب بخيبة أمل بسبب طول الوقت الذي تحاجه في التلقي، كنت أتذكر بيل فأجدد عهدي مرة أخرى بإثبات أنه لم يكن على حق في مقولته هذه.

***

كان عبد الطاليم واحداً من طلاب الدفعة الأولى بكلية الطب، وكان يتمتع بموهبة عالية ويعمل في اجتهاد كبير ويتقن الإنجليزية لدرجة كافية، جعلته يستوعب المنهج الدراسي بسهولة وسرعة.

وكان عبد الطاليم يأتي اليّ كلما يكون لديه اسئلة فبدأت علاقة صداقة تنمو أثناء العام الدراسي بيننا.

وكنا غالباً ما نجلس في مطعم المستشفى، نشرب القهوة ونتحادث. وفي نهاية العام الدراسي قمت في صمت بمساعدة عبد الطاليم في الحصول على وظيفة عملية في العطلة الصيفية.

وعندما توثقت أواصر الصداقة بيني وبين عبد الطاليم أخذت أحاديثنا تدور بنحو مكثف عن خبراته وانطباعاته عن الحياة في السعودية.

وذات يوم أخبرته بأنني أتطلع لشراء خنجر مقوس من تلك التي تشتهر بها السعودية.

فلمعت عينا عبد الطاليم لانه كان قد نشأ في الرياض وكان يعرف كل محل في المدينة وقال لي مؤكداً:

إنني اعرف مكاناً مثالياً لبيع الخناجر.

وهذا المكان هو سوق "الأنتيكة" الواقع على مقربة من ساحة القضاء. وهناك توجد محلات صغيرة كثيرة تقدم عرضاً كبيراً من السيوف والخناجر، في يوم الجمعة القادم سوف أصطحبك إلى هناك،حتى أكون متأكداً من أن التجار لن يخدعوك.

فقلت: وكانني أرفض عرضه:لا، ليس هذا ضرورياً وفي الحقيقة فإنني كنت سعيداً جداً بعرضه الكريم ولكني طبقاً للتقاليد العربية فإنني جعلته يتصور أنني أرد مساعدته.

وكان كلانا يعرف أن هذا أمر من أمور اللياقة وأنني موافق جداً على اصطحابه لي إبتسم عبد الطاليم وقال: بالطبع سوف آتي معك.

ــ لا، لا فإنني لا أريد أن أجشمك مشقة وأنا أستطيع أن أفاصل معهم فضحك وقال: مثلما فعلت عند شراء الساعة.

فضحكت أنا أيضاً وتذكرت أنني في الشهر الماضي كنت ذهبت إلى السوق لكي أشتري ساعة ,اخذت أفاصل في سعرها حتى أعتقدت أنني وصلت للسعر المناسب.

وعندما عرضت الساعة على عبد الطاليم بعد ذلك وأخبرته بسعرها، أصابته صدمة بسبب سذاجتي.ولما كنت أعرف أن عبد الطاليم يجيد الفصال فإنني كنت متأكداً أنه سيضغط السعر إلى كسر من الرقم الذي ذكرته له.

فقلت له مسلماً: إتفقنا، يشرفني أن تصحبني ولكن دعني أنا أقود السيارة.

ــ لا، أنت ضيف على بلادنا ولابد..

اختلفنا برهة في هذا الأمر ولكني استسلمت في النهاية ولم نكن نحتاج في أمريكا لإنهاء هذا الأمر إلا لخمس ثوان فقط. ولكن هنا يستلزم نفس الأمر خمس دقائق. ولكنه في النهاية أمر يدعو إلى المرح.

صباح يوم الجمعة حضر اليّ عبد الطاليم راكباً سيارة "سبور" قديمة. ركبني الخوف في البداية لما اعتقدت أن عبد الطاليم سيكون واحداً من هؤلاء العرب الذين يقودون سياراتهم بصورة انتحارية والذي تعلمت أن أخشاهم، وقد أصابتني الدهشة عندما رأيت عبد الطاليم وهو يقود سيارته بحرص.

فجاملته قائلاً: إنك قائد جيد.

ــ آخ، إن ذلك ليس صحيحاً، فانا أقود السيارة ببطء لأنني سمعت أنك تشكو من قائدي السيارات السعوديين، وإذا شئت فسوف أسير بالسرعة العادية فسألت نفسي: سرعة عادية؟ ما هي السرعة العادية؟

ونحن نسير بسره أكثر من خمسين كيلو متراً في الساعة في المدينة.. ثم قلت له: من الأفضل ألاَّ تفعل، بل حافظ على سرعتك البطيئة هذه ولا تنتقل إلى السرعة العادية.

ولما كنا في يوم جمعة، يوم العطلة بالنسبة للمسلمين، فإن الشوارع كانت هادئة نسبياً في الرياض وهاذ يعني أنها كانت مكتظة ولكنها غير مختنقة ولنفس السبب أغلقت محلات كثيرة في السوق أبوابها.

وعدما وصلنا إلى الحي التجاري وجدنا في إحدى الحارات الضيقة مكاناً لانتظار السيارة وهذا هو المستحيل بعينه في الأيام الأخرى للأسبوع.

عند نزولنا من السيارة لاحظت أن عبد الطاليم لم يقفل السيارة. وعندما نبهته إلى ذلك رماني بنظرة مندهشة.

فلا يوجد في السعودية من يقفل سيارته، لأنه لن يوجد من يسرقها. وإذا أردت أن تتسوق في السعودية فلا بد أن تتجنب أوقات الصلاة لأن الحركة تتوقف أثناء الصلوات الخمس.

كما أن مواقيت الصلاة تتغير يومياً طبقاً لشروق الشمس وغروبها.

ولذلك قمت بشراء جريدة "عرب نيوز" الجريدة الناطقة باللغة الإنجليزية وعرفت منها توقيت صلاة الظهر في هذا اليوم والذي كان الساعة الثانية عشرة وعشر دقائق أما العصر فكان في الثالثة وست وعشرين دقيقة. والسعوديون يحافظون على دقة مواقيت الصلاة.

ولسبب غير معروف كانت المعلومات عن الصلاة تنتشر بجوار الكلمات المتقاطعة. ولما كانت المحلات عامة تغلق أبوابها يوم الجمعة فيما بين صلاة الظهر والعصر فإننا كنا مضطرين للإنتهاء من الشراء عند الظهر.

والان تشير الساعة إلى حوالي العاشرة قبل الظهر وهذا يعني أنه ما زال أمامنا ساعتان.

مضى عبد الطاليم أمامي بينما كنا نتجول خلال متاهة من الأسواق والمحلات الصغيرة المثيرة التي إشتهرت بها السعودية.

وعندما اقتربنا من الشارع التجاري الرئيسي ــ شارع وزير ــ استطعت أن أشم رائحة قنوات الصرف المفتوحة. والتي كانت موجودة على إمتداد شارع "بعثة" وكان قد تم من عهد قريب تغيير أسم شارع "وزير" الى شارع "الملك فيصل"ولكن المواطنين السعوديين لا زالوا يستعملون الإسم القديم. وإذا صادف وسالت عن شارع "الملك فيصل"كنت أتطلع الى المحلات التي كانت

تبيع كل شيء بدءاً من الحلى ومروراً بالبخور وانهاء بالأدوات المنزلية وبالرغم من أن المحلات كانت قديمة إلا أنها كانت تعرض بضاعتها بصورة تنتزع الإعجاب وهذه واحدة من علامات العالم العربي حيث الإعلان في الجريدة مازال شيئاً جديداً لم يثبت بعد جدارته وحيث يكون عرض البضاعة بصورة مثيرة هو أعظم الأساليب تأثيراً في نفوس المشترين.

وبينما كنا نتجول ببطء بين المحلات كان حديثنا أيضاً يتخذ نفس الطابع من الهدوء والتنقل.

وكان المحتم أن نتطرق في حديثنا إلى دور الدين في الحياة في السعودية.

فقال عبد الطاليم:

لا بد أن تغلق كل هذه المحلات أبوابها أثناء تأدية الصلاة وإذا لم تفعل ذلك فسيأتي المطوع (شرطة الآداب) يدق بابها ويضطرها إلى الإغلاق وفي بعض الأحيان يقوم الشرطة بضرب صاحب المحل بالعصى التي يحملونا في أيديهم.

فسألته: وما هو رأيك في المطوع؟

أدركت أنه ربما أن يكون هذا السؤال من أحرج الأسئلة التي يمكن أن يوجهها إفرنكي إلى أحد العرب.

ولكنه رد في إبتسامة حذرة: أعتقد أنه هو الشيء الذي تطلقون عليه انتم الأميريكيون "الأمر المزعج للغاية".

إنها تتكن من المسلمين المتشددين، أعضاء فرق الوهابية المناضلة وهم يصممون على اتباع طريقة الحياة التي كانت سائدة من ألف سنة ولا يريدون الإنحراف عنها قيد أنملة.

وأحياناً يكافحون من أجل الخير ولكنهم يعودون ليعرقلوا مسيرة التقدم.

ــ وهل تعتقد أن معظم الناس في السعودية يوافقون على رأيك؟

هز عبد الطاليم رأسه وقال: معظم الشباب بالتأكيد، فنحن نتفهم واجبهم ونرضى عنه ولكنهم يبغون تنفيذ ما يعتقدون في صحته في كل حال. ففي العام الماضي على سبيل المثال أوقفني إثنان منهم في الشارع وقاما بقص "شعري" لأنه طويل أكثر من اللازم حسب رأيهما ــ هذه "نكتة" بلا شك، وماذا فعلت معهما؟

فهز كتفيه وقال: إن المطوع والوهابيين قوة عظيمة، وهم أناس بسطاء ولكن العائلة الحاكمة والشرطة تحرصان على عدم معارضتهم.

ومن الواضح لي أن احتجاجي سيكون بلا جدوى لأن أحداً لن يحرك ساكناً. ولهذا لم أقدم على فعل شيء.

أضاف عبد الطاليم وكأنه قد قرأ أفكاري:

لا بد ان تفهم الأمور في السعودية، نحن بلد متدين جداً ولا يوجد بلد إسلامي غير بلدنا يلتزم هكذا بالعبادات. والتغيرات القادمة، التي يراها المطوع،وهي إرتداء الجينز وإطالة الشعر هي بالفعل خطرة للغاية والمطوع يرد عليها بجهل وخوف. وغالباً ما أخاف أن أرى المطوع ولكني أفهمه أيضاً، فالذي يمثله هو جزء من ذاتي.

ولتغيير الموضوع أشار عبد الطاليم فجأة إلى نهاية الشارع وقال: هذه هي قلعة مسمك العريقة: حيث أحرز الملك ابن سعود النصر في عام 1902 في معركته لاسترداد الرياض.

وما زال يوجد في بوابتها رأس رمح، يقال أن ابن سعود نفسه رمى به. ولقد ترك مكانه طيلة هذه السنين.

وهذا هو شارع "ثميري"، والذي أطلق عليه هذا الأسم نسبة لأحد رجال ابن سعود، سقط أثناء المعركة حول المدينة.

كانت القلعة العريقة مبنّية بالطوب اللبن، وعلى مقربة منها توجد بعض المباني، بنيت بنفس الطريقة، وفي الجهة الأخرى من الشارع كان هناك بعض المحلات الصغيرة،تبيع الكاميرات وأجهزة الراديو والعطور، وهي تربح الكثير من وراء ذلك.

في النهاية وصلنا إلى ميدان "درة"، قلب مدينة الرياض القديم.

وقد أطلق البدو عليه هذا الأسم وهو يعني المراعي تقريباً. وكنا جميعاً نطلق عليه ساحة القضاء نظراً لإجراء علميات الإعدام فيه.

ويوجد حول الميدان بعض المباني الحكومية الكبيرة، ضمنها قصر العدالة ومكتب حاكم الرياض.

وبغض النظر عن وظيفة ساحة القضاء الرسمية المهولة، فإنه يعتبر أيضاً مركز أسواق مدينة الرياض.

فعلى سبيل المثال يوجد سوق العملة في ساحة القضاء مباشرة وهنا تستطيع تغيير الريال السعودي بأي عملة أخرى.وعلى الناصية يوجد سوق البهارات، حيث تستطيع شراء البخور والأعشاب ذات الروائح والاصباغ على جميع أنواعها. وعلى مقربة يوجد بازار تعرض فيه الحرائر الدمشقية والشرقية الملونة.

أما بالنسبة لي فكان سوق الذهب هو الذي شد إنتباهي حيث تجمعت المحلات الصغيرة العديدة على جانبي الطريق.

والحلي المعروض في المحلات يخطف الأبصار وهم يعلقونه على السقف والجدران بل في كل سنتيمتر كان يتدلى الذهب على جميع أشكاله كجبال من الخواتم والأقراط والتمائم الصغيرة،

تتلألأ في العيون. وكان هذا الذهب كله من "عيار18".كان يبرق ويلمع لدرجة تؤذي العين، "لم أر طيلة حياتي مثل هذه المجموعة".

وكانت هناك أيضاً النساء المتشحات بالسواد،ينهشن في جبال الذهب ويتشاجرن مع البائع على الأسعار.

وبالرغم من أن سعر القطعة يكون طبقاً للوزن، وأن الميزان هو في النهاية الذي يتحكم في السعر وأن الحكومة تحدد تسعيرة جرام الذهب بدقة كل يوم، فإن النساء لا يدعن الفصال مع التجار لمجرد العادة.

وعلى كل فإن احتمال خفض السعر قائم دائماً.

وأكثر ما يلفت النظر في سوق الذهب هو قلة إجراءات الأمن.

فالذهب كله معروض علناً وبدون أي مراقبة للزبائن من قبل الشرطة أو الحرس. والفرصة كانت سانحة للصوص إلا أن أصحاب المحلات كانوا يشعرون بالأمان التام.

إنه سوق الذهب الذي جعلني أفهم ما يعنيه السعوديون حينما يقولون بعدم وجود الجريمة بينهم: إنها تجربة تترك انطباعاً في العقل والوجدان لما تشعر بالأمان والطمأنينة بين الناس.

عبرنا أنا وعبد الطاليم إلى الجهة الأخرى حيث الجامع الكبير، هذا الصرح الضخم المقدس،الذي بني من عسر قريب بالخرسانة مكان جامع صغير من الطين كان مقاماً هنا حتى عام 1850.

وعلى مقربة من الجامع الكبير كان يوجد "سوق المزاد"حيث كان العبيد قبل خمسة عشر عاماً تباع وتشترى.

فقلت لنفسي هذا الوجه الأخر للمجتمع السعودي، الذي من النادر أن يحدث به جريمة، ولكنه كان يسمح بامتلاك الإنسان حتى وقت قصير.وعلى مقربة من الجامع الكبير صادفنا سوق "الأنتيكة" وكان عبارة عن مخزن كبير يحتوي على محلات كثيرة. وتحت سقفه العريض كان يقف البائعون والمشترون ليفاصلوا في السعر حسب التقاليد العربية وهو تقليد أعرق من أقدم قطعة موجودة في هذا المخزن. سرنا أنا وعبد الطاليم يحيط بنا الهرج والمرج وشرعنا نبحث عن خنجر قديم مناسب.

وغالباً ما توقفنا لنتحدث إلى صاحب محل ولنفتش في صناديق مترسة كانت مليئة بالخناجر والرماح القديمة والسيوف الصدئة والأسلحة النارية العتيقة. وعلى جدران المحلات كانت تعلق خناجر قديمة مزخرفة موضوعة في جرابات جلدية أو فضية أو ذهبية أو مطعمة بالأحجار الكريمة، وكان بريقها قد انطفأ بفعل الزمن.

أما على الأرض فكان يوجد صناديق صغيرة من النحاس أو من خشب التيك "المطعم بالنحاس" ويغلب عليها الزخرفة بالزهور كما كانت تأتي من اليمن وسوريا ومصر ولبنان وإيران إلا أن سلطانيات" لبن الجمال المصنوعة من الخشب ومحلاة بالنحاس الأصفر أو الفضة كانت صناعة سعودية وفي شيء من النور رأيت في غير وضوح أوعية قديمة باحجار مختلفة: أوعية من النحاس أو الفضة، أباريق وأوعية قهوة وكانت كلها قد فقدت بريقها بسبب التراب الذي تجمع عليها لمدة طويلة.

وبعد أن دخلنا أكثر من عشرة محلات عثرت على خنجر مقوس أعجبني كان طوله حوالي ثمانية عشر سنتيمتراً وله مقبض جميل جداً ومحلى بالفضة والذهب وكان له جراب مناسب.

أما المقبض فكان مطعماً بخيوط الفضة والتي صنع منها على أشكال هندسية يتخللها الذهب ولقد انطفأ بريق الفضة بعامل الزمن وكان النصل أيضاً ثالماً ولكنه كان مصنوعاً بصورة فائقة.

وبالرغم من اعجابي بالخنجر إلا أن عبد الطاليم نصحني بعدم إظهار الإهتمام. وزاد على ذلك أن قال لي أنني علي أن أبدي رغبتي في شراء الخنجر من خلال امساكي له من طرفه وإعطائه إياه.

وعندما فعلت ذلك نظر عبد الطاليم إلى الخنجر بسعة ثم قلص وجه كما لو أنه قد امسك بشيء حقير.

حمل عبد الطاليم الخنجر مستهيناً وبدأ يتشاور مع صاحب المحل.

ثم أخذ الإثنان بعد ذلك يفاصلان في سعر الخنجر على نحو سريع ومنفعل. وبالرغم من أنهما كانا يتحدثان بالعربية إلا أنني استطعت تتبع مناقشتهما من خلال التعبيرات والصراخ.

رفع عبد الطاليم الخنجر إلى أعلى وأشار على الفضة المنطفأة فأشار صاحب المحل إلى الحشو الذهبي والى الشغل الجميل. وتارة يأخذ عبد الطاليم بذراعي ويخرجني خارج المحل. وتارة يقبض صاحب المحل على ذراعي الأخرى ويسحبني داخل المحل.

وفي النهاية اتفق عبد الطاليم والتاجر على سعر قيمته مئتان وخمسون ريالاً. ومن أجل الاحتفال بإبرام الإتفاق احتفالاً مناسباً قام الرجل بدعوتنا إلى الشاي وهنأنا على اختيارنا الممتاز

بعد أن غادرنا المحل قال لي عبد الطاليم: لقد كان رجلاً صلباً جداً ولم يتراجع قيد أنمل. فلقد عرف أننا نرغب في شراء الخنجر وأننا سوف ندفع ثمنه.

فقلت: على كل.. حتى لو لم نعقد أحسن صفقاتنا فإننا قد أشترينا شيئاً جيداً.

نظر اليّ عبد الطاليم وقد ارتسمت على وجهه أمارات التألم فالسعودي يبذل اهتماماً أكبر بإبرام صفقة ناجحة لا يبذله في الحصول على الأشياء ذاتها التي يريد شراءها. كما أن الفصال هام جداً لإثبات المهارة والمقدرة.

فمن الواضح أن عبد الطاليم يشعر بأنه كان في وسعه إنهاء الصفقة على نحو افضل من هذا.

****

عندما رجعنا إلى الجامع الكبير كانت المحلات قد شرعت في إغلاق أبوابها. وبينما كان السعوديون يمرقون بجوارنا في ثيابهم البيضاء كان المطوع يقرع بهراوته على المحلات منادياً "الصلاة.. الصلاة" أي أن وقت الصلاة قد حان. كانت الشوارع ممتلئة بالسيارات بينما كان السائقون يبحثون في يأس عن أماكن انتظار يستطيعون الذهاب منها إلى الجامع سيراً على الأقدام.

سرنا أنا وبعد الطاليم ــ الهويني نسمع ونرى. وجدنا أمام سوق العملة رجلين قابعين ومعهما صقور على رؤوسهما الاغطية.. ينتظران الزبائن. بدا لي أن الوقت غير مناسب لبيع الصقور، ولكن قد يكون هناك تقليد سعودي لا أعرفه. وعندما نبهت عبد الطاليم إلى الرجلين ضحك وروى لي قصة أحد الأميركيين الذي اشترى صقراً وأخذه إلى منزله بالرياض..

وبعد اسبوع أو اسبوعين أخذ الأميركي الصقر إلى الصحراء ليرى ان كان يستطيع اقتناص أرنب بري أو شارد وعندما رفع الغطاء طار الصقر إلى الأبد لأنه ربما كان مدرباً على العودة إلى صاحبه الأصلي ثم قال عبد الطاليم هازلاً: ولم يعد الصقر حتى بأرنب هزيل وإنما رجع بثلاث مائة ريال صاحبه. بقينا ساعة نتجول أنا وعبد الطاليم بلا هدف في الشوارع المهجورة ونتجاذب أطراف الحديث سائرين في الأسواق الخالية.

وبالرغم من أن الجميع ذهبوا إلى الصلاة الا أن واحداً منهم لم يكلف نفسه مشقة إغلاق محله أو حراسة ممتلكاته. ولقد تعجبت للغاية من هذا الأمر فالبضاعة الثمينة متروكة بلا حراسة في الأسواق العامة.

ومن الظاهر أنه لم يفكر أحد ما في سرقة شيء إلا إذا كان يبغي قطع يده مقابل ذلك.

وعندما فرغ الناس من الصلاة عدت أنا وعبد الطاليم إلى ساحة القضاء لنرى الناس وقد تجمعت خارجة من الجامع وكان الجميع يرتدون ملابس الأعياد الملابس النظيفة الفاتحة التي تمنح الجو مسحة الإفراح.

وبينما نحن كذلك إذا بالجو في الميدان يتغير فجأة فالجنود ظهرت، يوقفون المرور ويدفعون الناس جماعات وعلا الصخب في الميدان، ثم همس عبد الطاليم إلي:

ستقطع رقاب اليوم، فالإعدام يجري دائماً بعد صلاة الجمعة. قال ذلك واندفع وسط الجموع ثم أضاف:

والجرائد تعلن عن عمليات الإعدام قبلها بيوم حتى يستطيع أن يشاهدها أكبر عدد من الناس، وأنت سعيد الطالع لانه ممنوع على الاجانب مشاهدة الإعدام.

ــ إذا كان الأمر كذلك فلنهم بالخروج من هنا.

قلت ذلك وحمدت الله أنني وجدت حجة لأغادر هذا المكان.

قال عبد الطاليم:ــ إن ذلك مستحيل، لقد انحشرنا تماماً هنا وإذا حاولنا مغادرة المكان فسوف نثير الإنتباه ولتظل ببساطة هادئاً وإياك أن تلتقط صوراً، إن ذلك حراماً تماماً.

أدركت كارهاً أنني أوشك على مشاهدة إعداماً علنياً. كانت الفكرة تثير إشمئزازي. أما عبد الطاليم فكان مشدوداً ومشتاقاً لرؤية الإعدام فسألته وبدني يقشعر: كم حالة إعدام شاهدتها؟

ــ إحتمال ست أو سبع حالات وأول مرة شاهدت ذلك كنت صغيراً جداً. وكان المتهم هذا رجلاً، أراد أن يغتصب فتاة. والمرة الأخيرة كانت من شهر مضى فقد قطعوا رقبة أحد اليمنيين الذي كان قد قتل صديقه أثناء مشاجرة بينهم. وعندما كنت أنصت لعبد الطاليم كنت أحس باضطراب في صوته أثار استغرابي وهلعي. كان يتكلم عن الإعدام وكأنه حدث رياضي مثل مباراة كرة القدم. فقلت لنفسي: إن هذا من تأثير المجتمع السعودي. وحاولت أن اشاهد هذا الحدث ملتزماً الحياد. ولأنني مبدئياً كنت أريد عقوبة الإعدام كوسيلة ردع فقد كان لزاماً علي أنا أن أشاهد بعيني على الأقل ولو مرة واحدة في حياتي هذا الذي أحبه. تذكرت في هذه الأثناء الوليمة التي كانت مقامة في المستشفى والتي كنت أجلس فيها بجوار محافظ الرياض وكنا نتناول موضوع الحد من الجريمة فذكر لي المحافظ أن معدل الجريمة في الرياض أقل معدل في العالم. فقد قال لي في إنجليزية متقنة إن عقوبة الأعدام وسيلة رادعة، ليس في ذلك شك.

سرت الهمهمة بين الجموع عندما ظهرت عربة شرطة وأخذت تخرق الجمع ببطء متجهة إلى وسط الميدان وعندما وصلت هناك توقفت ثم نزل السياف من مؤخرة السيارة. كان رجلاً ضخماً يبلغ طوله أكثر من مائة وثمانين سنتيمتراً ويرتدي ثوباً ناصع البياض كالثلج وحزاماً أسود حول صدره ونطاقاً حول وسطه. أما بشرته السوداء كالفحم فكانت تلمع في شمس الظهيرة.

همس عبد الطاليم في أذني وكأنه قرأ دهشتي، إن السيافين أعضاء عائلة أثيوبية واحدة وكانوا لسنين طوال عبيداً للملك أما الآن فانهم أحرار بالطبع.

ثم ارتفعت الجلبة أقوى بين الجموع فقال لي عبد الطاليم مضطرباً: إنهم يحضرون المتهم. ثم خيم صمت القبور على المكان عندما نزل المتهم من عربة شرطة واقتيد إلى وسط الميدان.

كان المتهم شاباً حديث السن،يرتدي قفطاناً بسيطاً وقد ربطت على عينيه عصابة سوداء، أما يداه فكانت مقيدة من خلف.

واثناء ما كانوا يقتادونه إلى السياف فكان هناك من يضع قطعة كارتون مستطيلة على الأرض. ثم أجبر المتهم على الركوع عليها. وقد أصابتني الدهشة لعدم وجود منصة أعدام وبدا على المتهم أنه فقد كل أمل لانه ركع بلا أدنى مقاومة وأثناء ما كانت الجموع تشاهد وتسمع ارتفع صوت من الميكرفون ليمهد لعملية الإعدام:

(لا إله إلا الله، محمد رسول الله).

كانت تلك التلاوة تأتي من قصر العدالة، ثم شرح نفس الصوت بإيجاز جريمة القتل التي ارتكبها الجاني والعقوبة التي نص عليها القانون ثم جاء إعلان الحكم في تؤدة تدوي في المكان كصوت المحكمة يوم القيامة وبدا الجمع برغم قيظ الظهيرة كما لو كان يرتعش

ثم أخذ السياف يشمر عن ساعده الأيمن فأبدى عن ذراع قوية مفتولة العضلات ثم سحب السيف بحركة رشيقة لنسمع في وضوح صليلاً أحدثه خروج النصل من الجراب.

كان السيف عربياً مقوساً ذا حدين، يبلغ طوله المتر يلمع في شمس الظهر.

ثم وقف السياف برهة لا يحرك ساكناً ثم أشار لمساعده الذي كان يقف بجوار المتهم، وعلى هذه الإشارة رفع المساعد بسرعة عصاه المدببة ثم غمز بها المتهم في جانبه وعندما ارتفعت رأس المتهم كرد فعل لهذه الغمزة كان السياف قد تحرك فخطى بضع خطوات كما لو كان راقص باليه، ثم باعد بين ساقيه ورفع سيفه عالياً وهوى به بكل قوة ليفصل رأس المتهم عن جسده. فاندفع دم أحمر حوالي متر في الهواء، بينما تدحرجت الراس على الجمهور بينما كان الجسد يتكور ويسقط إلى الخلف بدون رأس.

ثم خيم صمت القبور برهة على المكان ثم أرتفع صوت الجماهير مستحسناً.

نظرت مندهشاً أتطلع في الوجوه حولي فلم أعثر على شفقة أو تألم لما حدث للمتهم.

"إنه قاتل، حظي بالعقوبة العادلة طبقاً للقرآن".

ثم رأيت مساعد السياف وهو يرفع الرأس المقطوعة ثم ينظر إليها للحظة، ثم يضعها على محفة كانت بجواره وبعد عدة دقائق قام شرطيان برفع الجثة من بركة الدماء ليضموها إلى الرأس على المحفة.ثم حملت الجثة إلى سيارة أسعاف كانت منتظرة، بينما أخذت الجموع تتفرق في هدوء وصمت.

بقيت وافقاً في الميدان الذي فرغ بسرعة من البشر، أحاول السيطرة على شعوري لكي أصل إلى تقييم واع لهذه الدراما الطاغية التي جرت أحداثها أمام عيني منذ قليل.

كان شيئاً فظيعاً أن تزهق روح إنسان.
كان أول رد فعل لي يتمثل في الإشمزاز. إنني كطبيب كنت أجهل التركيبة المدهشة والعجيبة لجسم الإنسان، فبدا لي تدمير هذا الجسد عمداً كأنه عمل آثم ثم خطر ببالي دعوة ألبرت شفايتزر "فلنجل الحياة".
ولكنه كان القانون السعودي، القانون الذي يطبق لأكثر من ألف سنة وأخذت أحاول أن أعادل حياة هذا الرجل المعدوم بالألم الذي تسبب فيه بارتكابه الجريمة، وبينما كانت الحياة تعود بسرعة إلى طبيعتها في الميدان كنت أنا أحدق في بركة الدم وهي تتسرب إلى الأرض.
"الدم" الذي كان منذ دقائق ثمينة جزءاً من كائن إنساني يتنفس، صار يتسرب إلى الأرض، صار غامق اللون، لزجاً تحت الشمس الساخنة.
أما عبد الطاليم فكان أقل تأثيراً بهذا المشهد لانه من المحتمل أن ذلك كان يمثل له شيئاً بديهياً للمكان قلت له:
إنه شيء نادر أن أشاهد قتل إنسان وأبقى بين أناس يطلبون دمه ويسمحون بقتله وأنا هنا من أجل الحفاظ على الحياة.
ظل عبد الطاليم بجواري صامتاً ونحن نمضي في شوارع السوق الصاخبة ثم قال في النهاية،:
إن ذلك شيء طبيعي بالنسبة لي هكذا نحيا في السعودية، إنها المقاييس القديمة ولكننا ما زلنا نسير عليها وما زلنا نؤمن بها، نحن نتغير ببطء ففي أيامنا هذه يعاقب السارق بأربعين جلدة بدلاً من قطع يده وهذا يمثل تطوراً في السعودية فسألته: ألم تفكر قط في العقوبات القاسية.
ــ بالتأكيد ولكن ألا تفكر أنت في ذلك عندما يرتكب شخص ما في بلدك جريمة كبيرة ويفلت من العقاب؟
ــ إنني أفعل ذلك بالطبع.
هز عبد الطاليم كتفه ثم قال: إني أؤيد العقاب، هكذا هي حياتنا وأنا أتقبلها كذلك لأن العدل.حتى المتهم يرى في قتله بالسيف عقاباً له.
غرقنا في الحزن وأثناء ما كنا نعبر السوق في طريقنا إلى السيارة وقع نظري على أكشاك السوق المليئة بالبضائع الغالية والتي تركت منذ ساعة بلا حراسة كلنا نحس بالأمان في الشارع ليلاً ونهاراً وكذل في بيوتنا.
فهم بالفعل يعيشون في مجتمع قلت فيه الجريمة على نحو عظيم جداً. أما إذا وقعت جريمة فيكون المألوف أو يكون مرتكبها من غير السعوديين. ومن الممكن لأن نختلف في قيمة عقوبة

الإعدام من عدمها ومن الممكن أن نصل إلى نتائج متباينة الا أننا سنتفق جميعاً على شيء واحد هو:نوع ومدى المأساة.

فأنا لن أنسى أبداً منظر رأس الشاب وهي تطير في الهواء. لقد شعرت بالأسى تجاهه وكذلك تجاه المرأة المغتصبة، القتيلة و..... الإنسانية كلها.

مهما يكون موقفك من الأخلاق، مهما يكون موقفك من العدل والظلم ففي النهاية تبقى البقعة التي صارت قاتمة على الأرض، في النهاية تبقى البقعة، أثراً من حياتنا القصيرة.

الفصل الثالث عشر

إحتفالات النساء

بالرغم من أنني قطعت أكثر من ألف كيلو متر حتى أصل إلى السعودية لأعيش هنا في مجتمع غريب تماماً عن المجتمع الأمريكي إلا أنه كانت هناك أشياء جوهرية لم تتغير.

فإنني أحد أعضاء هيئة تعمل في مستشفى مجهز بنحو جيد، حيث أقضي وقتي كله تقريباً.

وما زلت أرتدي الملابس الأمريكية، بالتحديد معطف الأطباء، أثناء العمل أو الحلل المناسبة للصحراء في أيام الأجازة.

وما زلت أتمتع بحرية الحركة كما لو كنت في الولايات المتحدة فأنا أستطيع زيارة أي مدينة أو قرية في السعودية وأنا أشعر بالأمان والحماية.

أما بالنسبة لزوجتي روث فكان دخولها إلى السعودية بمثابة العبور إلى عالم آخر تماماً، إلى قرن أخر تماماً.

وقبل أن نغادر الولايات المتحدة كنا قد قضينا بضعة أيام بغرض الحصول على توجيهات في "ناشفيل" بولاية تنيسي حيث يقع المقر الرئيسي للشركة التي جهزت إدارة وموظفي مستشفى الملك فيصل.

وحضرنا محاضرات أمدتنا بالمعلومات عن العادات والتقاليد في السعودية.

قام أحد الأخصائيين الثقافيين بمساعدتنا وتهيئتنا شعورياً للمشاكل التي قد تواجهنا هناك.

وقد قيل لروث، أنها لابد أن تلتزم بالملابس التي ترتديها النساء هناك. فعلى سبيل المثال لابد أن تغطي جسدها من الرقبة حتى الكعب إذا خرجت في أي مناسبة كانت، ولابد من أن تستر ذراعيها تماماً.

ومن المفارقات أن روث كانت معتادة أن ترتدي الملابس الطويلة في منزلها في بوسطن. وكانت تجد ملابسها بالنسبة للمساء مريحة ورخيصة ولا تخلو من الجاذبية، والان قامت بشراء المزيد من الملابس الجديدة والخفيفة والطويلة. كان قليل من زوجات الأطباء قد تحسبن لمشكلة الملابس فقمن بمساعدة خياطين من الرياض تفصيل ملابس رديئة الصنع غير انيقة تتكسر بسهولة.

وبعض النساء كن يرتدي ثياباً طويلة مستقيمة تقفل بزر في ياقة صغيرة مستديرة

إلا أن هذا النوع من الثياب أثار الاستهجان لأنها كانت أساساً الزي القومي للرجال في السعودية ولا تناسب النساء. وبينما منحونا نحن التأشيرة عن طيب خاطر حرصوا بها للنساء كارهين وكانوا يضعون العراقيل في طريق النساء اللاتي يزرن السعودية.

وقد سمحوا لروث بمصاحبتي لأنني أبرمت عقداً محدداً بمدة طويلة مع مستشفى الملك فيصل. إلا أنها انتظرت وقتاً طويلاً في لندن، بدا وكأنه ليس له نهاية، في إنتظار منحها التأشيرة أخيراً. وكان هناك رحلتان فقط في الأسبوع إلى السعودية وكانتا محجوزتان دائماً. وقد فقدنا كل أمل في حصولها على تذكره طيران ولكن في النهاية وصلنا تلغرافاً يخبرنا بأن "روث" في الطريق. عندما خرجنا من الجمرك، انتظرنا وصول متاعها في خضم صخب المطار وصراخ الحمالين ذوي الأحجام والأعمار المختلفة والذين كانوا يتنازعون على من يحمل حقائبها.

ولما كانت روث معتادة على مثل هذه الحيرة العظيمة فإنها كانت سعيدة لما استطاعت أن تلقي نفسها أخيراً في مقعد سيارة أمريكية مريحة اتجهت بنا إلى "الشرق" حيث كنا سنسكن لمدة الستة أشهر القادمة.

وعندما اشتكت روث من أن مرتبة السرير كانت صلبة كاللوح ــ وهو يمثل حلم بالنسبة لأطباء العظام حكيت لها عن إتفاق "الإلتزام بالصمت" الذي أبرمته مع الساكن القديم وقلت لها إذا رأيت الحجرة في فندق "اليمامة" فإنك سوف تأخذين طائرة متجهة إلى لندن.

وبالمقارنة مع اليمامة فإنه هنا يكون فندق أربع نجوم.

ثم اشرت إلى أشياء فاخرة مختلفة لم تتوفر في المياه كان منها على سبيل المثال الثلاجة الصغيرة والمروحة التي كانت تصدر ضوضاء، إلا أنني كنت مرتاح لوجودها جداً. وقلت لها وأنا أحاول أن أبدو متفائلاً: إن انقطاع الكهرباء هنا لا يستغرق في العادة إلا ثلاث أو أربع ساعات فقط.

ولكن عرفت بعد ذلك أن إنقطاع التيار في بعض مناطق المدينة قد يستمر لعدة أيام.

وسألتني روث عن الرجال المسنين الذين يقبعون أمام الباب فأخبرتها إنهم مختصون بتنظيف الغرف وبتغيير الفراش. بعد ذلك أدركت أن تصورهم للنظافة يتخلص في الدخول إلى الغرف بعلبة مبيد للحشرات ليقوموا برش الغرفة على نحو كان سيقتلنا نحن وليس الصراصير وبعد ذلك يعودون أدراجهم. أما تغيير الفراش فكان نادراً ما يتم إلا إذا أعطينا بقشيشاً للمشرف. هكذا كان مفهوم هؤلاء للنظافة.

وكانت الخدمات بكافة أنواعها في السعودية على سبيل المثال تقديم الطعام وأعمال النظافة أو الحراسة تقع على عاتق الرجال الذين كانوا في الغالب مصريين أو سودانيين. وعندما افتتح مطعم ياباني على مقربة منا سررنا واندفعنا لرؤية اليابانيات وهن يقمن على خدمة الزبائن. إلا أن المطوع هاجم المكان بسرعة وتم إغلاق المطعم بسهولة في خلال أيام معدودة.

****

كان يوم الجمعة هو اليوم الذي نتطلع إليه بفرح عظيم لانه يوم عطلة لا يعمل معظمنا فيه. وغالباً ما كنا ننظم رحلات إلى المناطق القريبة.

ولأن الجو كان صحواً في معظم الأحيان،كان التخطيط لرحلاتنا موفقاً دائماً.

وفي إحدى رحلاتنا اكتشفنا مكاناً مثالياً لاستراحتنا، كنا نمتلك سيارة بونتياك مريحة خضراء مزودة بجهاز تكييف،كنا نملأ سلة بالطعام كل يوم جمعة.فكانت روث تحمر دجاجة صغيرة وتحشو الأرغفة بسمك التونة. ولأننا كنا نحتاج إلى ماء كثير فإننا كنا نأخذ معنا إناء ماء "وترموث" به قهوة ساخنة وآخر به شاي مثلج. وضعنا السلة في مؤخرة السيارة ثم انطلقنا.

كانت ثياب روث في العادة عبارة عن فستان طويل وقبعة كبيرة من القش تثبتها على رأسها بمنديل ذي ألوان بهيجة وتنتعل حذاء من أكثر أحذيتها راحة وقدماً.

وعندما خرجنا من الرياض رأينا مناظر تؤذي العين، رأينا مقابر السيارات وبها حطام عربات صدئة وعشرات من الماعز تأكل القمامة، ومنازل من طابقين قديمة.. لا يظهر منها الا القليل بسبب الغسيل المهلهل المعلق في شرفاتها.

ولما ابتعدنا أكثر رأينا مساكن بائسة عديدة صنعت من الصفيح المضلع والخشب والكرتون، وكانت لا تحمي من تقلبات الجو إلا قليلاً.

وفي بعض الأحيان كان يبرز فناء صغير محاطاً بمساكن صفيح آيلة للسقوط، حيث كانت الماعز ترعى وتمأمأ منتحبة.

ثم رأينا الصحراء تمتد أمامنا، خالية تقريباً من العمار. وكنا بين الفينة والأخرى نمر بمجموعة من الخيام بجوارها عربات نقل وأحياناً نرى بعض الجمال المسرعة.

أما الطريق فكان خالياً من البشر، بينما كانت الصقور تحوم طائرة في هواء حار حارق.

بعد أن قطعنا طريقاً طويلاً من الرمل، فوجئنا بمشهد طاغ لسلسلة من الجبال الشامخة كانت تلمع في الشمس وكانت ظهورها مستوية فبدت قممها وكأنها شقت بسكين، ورأينا أخاديد متوازية توقد في الظل وتنزل على كل المنحدرات فبدت وكأنها سيول هزيلة. بعد ذلك بقليل تكاثرت الجبال

في كل صوب، وفي الظل تركنا السيارة ومضينا إلى مكان ننظر منه الى وادٍ فسيح تحيط به التلال، وقد كان هذا أحب مكان إلى نفسينا.
وبالرغم من أننا كنا نشاهد هذا المنظر الجليل لهذه الجبال التي كانت تبرز من أرض مستوية غير مختلفة.
كانت الشمس قد ارتفعت عالياً فوقنا حين بدأنا نشعر بجوع عظيم وأدركنا أن الوقت قد حان للذهاب إلى مكاننا الخاص والذي كنا نفضل أن نتناول فيه طعامنا.. فانحرفنا عن الطريق الرئيسي لتحيط بنا الصحراء مرة أخرى.. وأحياناً كنا نمر بحقول المراعي الزاهية الواقعة على طرف واحة صغيرة أو بجوار أطلال منزل مهجور طيني بجانبه بئر قديم لم يستخدم من وقت طويل.
بعد أن مررنا بسلسلة من البيوت الريفية وصلنا في النهاية إلى الطريق الترابي المعهود الذي يفضي إلى المكان الخفي الذي إخترناه لنأكل فيه.
وعندما اكتشفنا المكان السري، كنا نحس بخوف ونحن نسير في هذا الطريق الخاص، لأننا نعرف أننا كنا نخالف لاختراقنا منطقة تخص الغير.
ولكنها كانت بقعة جميلة مهنعزلة.
تركنا السيارة في ظل مجموعة من النخيل حملنا زادنا وذهبنا إلى ترعة ذات ماء صاف وفير (اكتشفنا فيما بعد أن هذه الترعة قناة ري).
وما هي الا لحظات حتى ظهرت امرأة تصطحب طفلين صغيرين. كانت قادمة من الطريق المؤدي إلى البيت الريفي الواقع على الناحية الأخرى من الطريق الرئيسي.
ولدهشتي البالغة لم تكن المرأة ترتدي حجاباً ، وبينما كانت المرأة تبتسم لنا كان الطفلان ينظران بحذر من خلف ثوبها القطني. فأحسسنا أنها سعيدة بمنحها إيانا قطعة الأرض هذه لنستخدمها.. وقد جعلتنا نشعر أيضاً بالرغم من أن حديثنا لم يخرج عن بعض عبارات المجاملة أنها ترحب بذلك.
ثم أنها أخبرتنا أن زوجها يعمل بالزراعة وأنه مشغول في البيت.

****

بسطنا غطاء كبيراً على الأرض ووضعنا في منتصفه الطعام وأكواباً وصحوناً من الورق..ثم تمددنا على طرف الغطاء.
كان وقتاً خاملاً رائعاً، تمتعنا بكل لحظة فيه.. بعد أن أكلنا قمنا بغسل أيدينا من الترعة بينما كان صوت طلمبة ماء بعيدة يتسلل إلى أذاننا في نعومة.

بعد ذلك جمعنا البقايا ووضعناها في أكياس بغية التخلص منها في المنزل. بعد أن أعدنا مكان استراحتنا إلى سابق عهده سرنا إلى طريق المشاة الموازي للبيت الريفي والمفضي إلى طلمبات المياه الضخمة، وبفضل العمل المتواصل لهذا الشيطان الهادر نمى خير هذه الأرض الذي هو أثمن من البترول.

كان الماء البارد يندفع متدفقاً ثم يصب في حفر طويلة كثيرة.. أما عن الناحية الأخرى فكانت تمتد حقول مراع للحيوانات، كانت في الغالب الحمير والأغنام والماعز.

وعلى بعد قيل من هذه الحقول كانت توجد حقول منزرعة بخضار السلاطة، منحت المكان شيئاً من الألوان.

ولم أكن أعرف أهمية الألوان في حياتنا إلا بعد أن أتي إلى السعودية، فكان من الصعب علي أن أتعود على اللون الوحيد للصحراء الصفراء. وأن أتعود أيضاً على عدم وجود الألوان الأخرى، حتى المنازل كان معظمها مطلياً باللون الأصفر، فصار اللون الأخضر يجذبني دائماً حتى لو كان في الحشائش.

وذات يوم، كان المطر قد هطل فيه بغزارة، نظرت من النافذة فرأيت شيئاً أخضر، فخرجت مسرعاً أتأمله بشوق. فإذا به بعض الحشائش. جعلني هذا أتذكر إنني كنت أعتقد أن ثروتنا من الأشجار والحقول الخضراء الشاسعة شيئاً عادياً.

أما هنا حيث تنعدم الالوان فإن اللون الأخضر أصبح اللون المفضل لنا وصار مكان خلوتنا هذا شيئاً عظيماً يسر عيوننا.

ومنذ اليوم الاول صار الرجل أو المرأة يأتيان إلينا ويرحبان بنا ويخبراننا بأننا نستطيع فعل ما نشاء بهذا المكان.

وذات مرة بعد وصولنا هناك، رأينا مضيفنا وهو مشتبك في شجار مع رجلين أخرين تركا سيارتهما في المكان الذي نترك فيه سيارتنا وتأهبا للاستراحة فيه.

وبعد التلويج باليد وكثير من الصراخ في طردهما، فخشينا أن يفعل نفس الشيء معنا ولكنه ابتسم وهش لنا ودعانا للجلوس في المكان المعتاد.

فقد كان يريد ببساطة: إن لا يزعجنا أحد.

ومراراً ما كانت زوجته ترسل إبنها إلى الحقل ليقطع لنا شيئاً من خضار السلاطة لنأخذه معنا كهدية. ولطالما تأثرنا بهذا الكرم.

ولكننا كنا متعطشين لمعرفة سر عدم ارتداء المرأة للحجاب.

ولذلك طلبت من عبد الطاليم أن يصحبنا في نزهتنا ذات مرة. فقام بمناقشة المرأة ببساطة وإسهاب، ثم أخبرنا عدم ارتدائها الحجاب يكمن في أنها غير سعودية.
فلقد كانت هي وزوجها مصريين يعملان لدى ابن عمهما المتزوج من امرأة سعودية ثم حصل بعد ذلك على الجنسية السعودية مما رخص له الحصول على دعم من الحكومة لشراء هذا المكان.

***

بعد عدة أسابيع عندما اتينا لنزهتنا الأسبوعية وبعد أن كان شعور بالألفة تولد بيننا، تحدثت مع المرأة حديثاً قصيراً كان معظمه يدور بالإشارة.
كانت المرأة بدينة تتحرك بصعوبة. ولما أخبرتها أنني طبيب أشارت متألمة الى كعبيها المتورمين واللذين كانا يسببان لها آلاماً دائماً فحاولت أن أقنعها بالذهاب إلى المستشفى ولكنها هزت راسها فربما لم تجرؤ على مغادرة المنزل قبل ذلك.
وكانت لا تستطيع تخيل مدينة الرياض البعيدة والتي كانت تمثل لها عالماً مجهولاً مخيفاً.
وبالرغم من أنني كنت أفضل ذهابها إلى المستشفى إلا أنني أدركت إستحالة ذلك. فهي لم تكن لتخبرني بمتاعبها بدون تشجيع "روث" لها. وعدتها بأن أزودها بالدواء وأعطيتها في الأسبوع التالي حبوب "الديورتيكا" لشفاء الورم. وعندما عدنا بعد أسبوع ابتسمت وشكرتنا بينما كانت تشير إلى كعبيها وترينا أن حالتها قد تحسنت كثيراً.

*****

كان التسوق في مدينة الرياض بالنسبة للنساء من قبيل تهدئة الأعصاب وتمضية الوقت.
وفي البداية كانت روث قد أعتادت أن تشرح لي الشعور الغريب الذي يساورها وهي تجر فستانها الطويل خلفها في الشوارع المتربة للأسواق العامة في السعودية، وكانت تسأل نفسها إن كانت أهداب ثيابها ستتحمل هذا طيلة إقامتها هنا.
ولكن بعد ردح من الزمن صارت الفساتين الطويلة شيئاً طبيعياً بالنسبة لها.. وكان منظر بعض الأجنبيات الزائرات للسعودية وهن متجمعات في بهو الفندق وقد ارتدين ثياباً قصيرة يبدو لنا غريبا ومثيراً لاستنكارنا. كانت المواد الغذائية عامة متوفرة في المحلات ولم تكن أيضاً مرتفعة السعر. فكان يوجد هناك عرض كبير من اللحوم المجمدة من الدنمارك وأستراليا ونيوزيلندا. أما لحم الضأن والبقر المذبوح في السعودية فكان لا يخزن وقتاً كافياً ولم يكن له المذاق الذي تعودنا عليه في الغرب.
وكانت المعلبات المحفوظة ومنتجات الحبوب وكذلك الخبز ومنتجات الألبان تأتي من الولايات المتحدة عن طريق البحر.
أما البسكوت والمربى والحلويات فكانت تستورد من إنجلترا وألمانيا وقد كانت الأسماك والجمبري الطازج متوفرة أيضاً في سوق السمك.
أما الفاكهة الطازجة فكانت تستورد من لبنان وكانت توجد بوفرة وباسعار معقولة.
حتى الخضروات المجمدة كانت أيضاً متوفرة ولكنها غالية..
والجبن يأتي من أوروبا والزبد من فرنسا واللبن على جميع أنواعه يأتي من الولايات المتحدة وإنجلترا.
إلا أنه كانت بعض السلع تختفي من الرفوف في بعض الأحيان لفترات مختلفة بسبب التكدس في ميناء جدة حيث يوجد عدد قليل من الأرصفة. فكانت بعض السفن تنتظر لمدة تصل إلى أربعة شهور حتى تجد رصيفاً تفرغ عليه حمولتها. أما المواد الغذائية التي تفسد بسرعة فكان يلقى بها في البحر.
لقد تعلمت روث في النهاية أن تكتفي بما يتوافر في الأسواق.
وبالرغم من الارتفاع الكبير في أسعار الشحن إلا أن سعر معظم البضائع لم يكن مرتفعاً عن سعرها في أمريكا.
وفي حالة عدم وجود "روث" فإنني كنت أفضل التسوق في شارع "الفراريج". فهنا كنت أستطيع شراء فراخ مشوية لآكلها في الحال.

وكان يوجد على مقربة من هذا الشارع سوق عامة يباع فيها فاكهة وخضروات طازجة ــ التركيبة المثالية لحياة العزاب ــ ولم يكن طعامي فاخراً ولكنه كان يكفيني.

كان التسوق ــ برغم كل المصاعب ــ هو أحب شيء يقي فيه النساء الأجنبيات وقت فراغهن. وبالرغم من أن اقتناص المواد الغذائية كان شقاء إلا أن روث وصديقاتها كن يقمن بالتسويق وهن سعيدات. وكن يجدن في ذلك تجربة جديدة تماماً وغالباً ما يعتبرن ذلك تحدياً بالإضافة إلى أنه كان أمراً شيقاً.

كانت سيارات المستشفى تنقل النساء واللاتي كن يقفن في مكان مجاور لمساكنهن ثم تنقلهن إلى وسط المدينة ثم تعود بهن بعد ذلك إلى بيوتهن.. وكانت النساء تذهب دائماً في مجموعات.

أما الشيء الساحر حقاً فكانت البازارات وكان البازار الذي تفضله روث يقع في مكان توجد به حوار صغيرة متعرجة ومحلات وأكشاك، كلها مجتمعة.

وكانت الأكشاك المفتوحة الصغيرة تقوم بجوار بعضها البعض مباشرة وكانت محشوة بسلعها الخاصة.

وعلى سبل المثال كانت هناك عشرات المحلات لا تبيع إلا أقمشة من كل لون ونسيج وكل رسم. ولم توجد الأقمشة على الرفوف فقط بل كانت بالات الأقمشة الملونة تغطي الأرض لارتفاع يصل إلى الركبة، لأن أصحابها كانوا يرتبونها حسب الطول ــ حتى يستطيعون العثور على المطلوب منها بدقة .

وبعد مضي عدة شهور على وصول "روث" إلى السعودية وبعد إنتظام مجرى حياتها فيها لاحظت أنها تعيش باسلوب يقترب كثيراً من حياة المرأة السعودية أو يشبهه تماماً اللهم أنها كانت لا ترتدي الحجاب.

وقد جرت العادة أن نقضي يوم الجمعة سوياً ونشارك في حفلات المستشفى وفيما عدا ذلك فإننا كنا نقضي اغلب الوقت منفصلين وكان ذلك يتعلق بعملي في المقام الأول، أما السبب الثاني في ذلك فهو دعوات السعوديين للسهرة والتي كنت لا أستطيع رفضها (سواء لأسباب تتعلق باللياقة أو بفضولي المجرد) والتي كنت أذهب إليها وحيداً أو مع مجموعة من زملائي الأطباء. وكانت روث تبدي تفهماً كبيراً لذلك وكانت تتقابل أثناء ذلك مع الزوجات الأخريات أو السعوديات.

وفي بعض الأحيان كنا نلبي سوياً بسرور دعوات السعوديين لزيارتهم في منازلهم ولكن ذلك كان حالات إستثنائية.

وفي بعض الأحيان كانت روث تقول لي إن هذا الفندق يبدو وكأنه "مكان للحريم".

وكانت تعتقد أن "مكان الحريم" بعيد كل البعد عن كونه مكاناً فاسداً ممتلئاً بالغيرة والمؤامرات الصغيرة ولكنه ربما كان يشكل بالنسبة للنساء والجواري اللاتي يعشن في مصدراً هاماً للمصادقة والعزاء.

تماماً مثل اليوم، فالنساء منعزلة تماماً عن مجتمع الرجال ــ غير الأقربين ــ وكن نادراً ما يرين وجوه أزواجهن أو يأكلن معهم. ولذلك يكون هذا حدثاً سعيداً عندما تنضم زوجة جديدة إلى مجتمع يتكون من النساء فقط:

إنها شخص تستطيع التحدث معه أو تتبادل معه الثياب والحلى أو إخباره عن أفراح وأتراح الأمومة.

وعلى كل حال كانت روث تسعد كثيراً بلقاء زوجات الأطباء الأخرين وبالنشاط اللاتي يمارسنه سوية. وقد استطاعت من خلال ذلك أن تعقد صداقات استمرت طويلاً.

****

تنظر الحكومة السعودية إلى كل اجتماع جماهيري كبير بعين الريبة. فحق الإجتماع لم يتمتع به السعوديون بعد وقد سرى هذا التقييد على الاجانب الموجودين في السعودية وعندما قررت زوجاتهم تنظيم سلسلة من اللقاءات الشهرية، فوجدن مقاومة شديدة ليس بسبب عددهن الكبير ولكن لأنهن في المقام الأول "نساء".

ولكن النساء المتيقظات قررن عقد اجتماعهن في صالة الطعام بفندق "انتركونتيننتال" حتى يظهرن أن نشاطهن لا يحوي أسراراً.

وبذلك كانت عدة مئات من النساء ــ يتجمعن يوم الأثنين كل أول شهر وكن يمثلن جميع البلدان: الولايات المتحدة، فرنسا، ألمانيا، كوريا، أسكندينافيا، اليابان، إيطاليا، الهند، لبنان، مصر، وذلك على سبيل المثال لا الحصر.

وكان هناك تكليف لكل بلد بتخطيط البرنامج الشهري.

وكانت النساء السعوديات يشتركن أيضاً إلا أنه طبقاً لقول "روث" كن قليلات جداً، إن وجد منهن واحدة على الأطلاق.

وكانت روث تجد في هذه اللقاءات شيئاً هاماً حقاً وكانت تخبرني عنها بإسهاب.

****

قبل الظهر وقبل بداية الاجتماع وصلت نساء الأطباء بسيارات المستشفى وأخذن يتحدثن بينما يشربن القهوة. وكانت الاجتماعات تختلف عن بعضها تماماً: فكانت هناك عروض أزياء حيث كانت العضوات يقمن بأداء دور عارضات الأزياء.

وذات مرة قامت إمرأة إنجليزية، كانت متخصصة في بيولوجيات البحار، وكانت مشتركة في دراسة الحياة تحت الماء بالبحر الأحمر، بعرض صور ملونة رائعة لأسماك الشعب الغربية، وللكائنات الحية في أعماق البحار. ومرة أخرى قامت إمرأة ألمانية بعزف موسيقىعلى البيانو. ومرة ثالثة قامت واحدة أخرى بتقديم وجبة غذاء هندية.

أما البرنامج الذي أعجبت به روث أكثر من البرامج الاخرى قدمته مجموعة من اليابانيات قمن بعرض طقوس تقديم الشاي وتنسيق الزهور بينما كن يرتدين زياً قومياً رائعاً. كانت روث مسحورة بهؤلاء النساء اللطيفات الرقيقات وبملابسهن الحريرية الملونة، بالرغم من أنهن كن في السعودية في المكان غير المناسب.

وفي ختام البرنامج كان النساء يعقدن اجتماعاً للإتحاد ويقدمن التقارير المختلفة ويقبلن العضوات الجديدات.

ثم يجلسن جميعاً في راحة يتناولن طعام الغذاء قبل أن تعود كل واحدة منهن إلى منزلها .

***

أما الحدث الذي أجهد روث للغاية فكان جولة داخل قصر الضيافة الملكي خصصت لبعض النساء اللاتي أتين من أرجاء البلد إلى مدينة الرياض في صحبة أزواجهن المشتركين في مؤتمر الأطباء وقد كنت مسؤولاً عن تنظيم برنامج الأطباء بينما كانت روث مسؤولة عن النشاط الاجتماعي. لم يكن قصر الضيافة إلا مقر الملك الراحل سعود والذي أرغم على الرحيل إلى المنفى بسبب سياسته المبذرة.

وبعد موته بلغ السخط عليه درجة عظيمة حتى أن قصره السابق صار آيلاً للسقوط. ولكنهم قاموا بترميمه في فترة وجيزة وجعلوا منه قصر ضيافة للزيارات الرسمية.

وقد وقع الاختيار على "الجرنون أسبراي"، أكبر مهندسي المعمار في إنجلترا للقيام بهذه المهمة وقد استغرق هذا العمل ثلاث سنوات. وقد أخبر أحد الأشخاص روث أن هذا القصر من الداخل شيء عظيم الا أن دخوله محرماً على النساء. ولكنها كانت مصرة على إتاحة الفرصة للنساء الضيفات للقيام بجولة داخل القصر وفي الحدائق المحطية به.

بدا المر مخيباً للامل في البداية. ولقدأخبروا روث أن زيارة النساء غير مرغوب فيها وان إلغاء الجولة يمكن أن يحدث في آخر لحظة إما بسبب مزاج الحكومة أو بسبب زيارة رسمية هامة. ولكن روث صممت على ذلك بعناد، وتم منحها الإذن بالزيارة في النهاية واستطاعت في جولة خاصة التمتع بالتجول في كل أنحاء القصر حتى غرف السكن في الدور الأول.

أخذت روث تصف لي القصر وهي تغمرها النشوة: كان سقف البهو الرئيسي في ارتفاع ثلاثة طوابق على الاقل وكان به شرفة رائعة وعشر ثريات كريستال لامعة على أقل تقدير. وكان لكل ردهة أبعاد هائلة تجعل أي أثاث، مهما كان فخماً لا يتناسب معها.

وكان المدخل الرئيسي يفضي إلى أروقة عديدة بها نوافذ عالية بديعة عليها ستائر من الستان. كانت تتناثر هنا وهناك أرائك فرنساوية لا حصر لها، ذات ديباج حريري وبجوارها مناضد رقيقة محلاة بشغل اليد، وخوانات صغيرة جميلة عتيقة مصنوعة من خشب نادر.. أما صالة الطعام فكانت تكفي لمئات الضيوف فكانت المقاعد الخشبية ذات المساند العالية تقف حول عشرات المناضد الطويلة وباقات مزخرفة بها زهور مقطوفة حديثاً موجودة على المناضد.

وكانت الطائرات تصل كل يوم حاملة الزهور لتوضع في كل مكان على نحو بديع، أما المكاتب الواسعة الخاصة بكبار موظفي الحكومة السعودية فكانت تخضع في تأثيثها لذوق شاغليها فكان يوجد بها أثاث من أحدث طراز وحتى الطراز التقليدي للغاية .. والنهاية قالت روث: لقد كان عالماً خيالياً. وفي العصر وبعد انتهاء جولتها الخاصة كان الحدث الكبير موقف روث أمام

مدخل القصر تحيي الزائرات. ثم قادتهن إلى الداخل.. كن ينتقلن من غرفة إلى أخرى وهن صامتات وكان يقطع الصمت تأوهات الدهشة من التجهيز المسف والقطع العتيقة الثمينة والتي اختارها المهندس المعماري الإنجليزي.

وقد استغرقت الجولة ساعتين بسبب الحجم الهائل للقصر والجو المهيب المحيط به.. وفي النهاية قدم الشاي والفطائر الخفيفة للنساء في بهو فرنساوي ذي لون وردي فاتح. وقد آثار دهشة النساء وإعجابهن أيضاً أنه تم إهدائهن علبة تذكارية ساحرة، تحتوي على زجاجات عطر مغلفة بصورة لطيفة وصابون ومفكرات وأقلام وكان مرسوماً عليها جميعاً شعار السعودية.

ومكتوباً عليها باللون الأخضر: قصر الضيافة الملكي..

ذات يوم سألت روث عن حدث تتذكره على نحو أوضح من بقية الأحداث الأخرى التي مرت بها في السعودية.

فقالت بلا تردد: هذا المساء، الذي قضيته في اتحاد السعوديات، إنها أغرب التجارب التي مررت بها في حياتي.

قالت ذلك وهي سعيدة ثم أردفت كانت ليلة لا تنسى. وقد أسسته الملكة الشجاعة "عفت" وقد كان على هذه الملكة المقدامة أن تتغلب على عقبات لا تحصى حتى استطاعت إنشاء هذا الاتحاد.

ولما كانت الإتحادات ممنوعة على كافة أشكالها في السعودية فإن قيام اتحاد للنساء، كان شيئاً لا يمكن تصوره.

أما زوج عفت فكان "الملك فيصل" وأما تأثيرها عليه فكان عظيماً. ولو كتبت حياة أطول لهذا الرجل لتمكنت "عفت" بالتأكيد القيام بتغيير كبير في وضع المرأة في السعودية.

وقد قامت بتنفيذ احتجاجات رجال الدين بأن جعلت الاتحاد يخدم الدين وعمل الخير ورعاية المرضى والنشاط التربوي والاجتماعي والثقافي. وكان تأسيس اتحاد النساء خطوة خطرة للأمام وتحطيماً للتقاليد وفكرة جديدة جداً. ولقد شغفت النساء به.

كان الاتحاد يتكون من مبنيين على أرض واسعة محاطة بسور.

وكانت العضوات يلتقين في ردهات مختلفة للممارسة نشاطهن الاجتماعي، أو كن يتجمعن في صالة محاضرات واسعة لتلقي المحاضرات أو التسلية أو برامج أخرى. وكانت قمة وختام الأنشطة تتلخصان في حقل المنوعات بعد أخر إجتماع في السنة.

وقد كانت هذه هي المرة الأولى التي يدعى فيها نساء غربيات إلى إحدى أمسيات الإتحاد، ولقد لبى الدعوة عدة مئات منهن. وقد كانت بداية الحفلة ذات تأثير مثير: عندما كانت تدخل المدعوات ــ بالطبع نساء فقط تصحبهن عبارات الترحيب.

بعض السعوديات كن يرتدين الملابس الأنيقة والبعض الآخر ملابس بسيطة ذات أكمام طويلة مثل روث.

كان السجاد الشرقي المزخرف يغطي الأرض كلها وكان هناك خيمة مفتوحة ضخمة في آخر الصالة، قامت مجموعة من البدويات بصنعها من الصوف الرفيع الأسود، عمل يتطلب إنجازه سنة كاملة.

وفي مكان صغير أمام الخيمة كنت تستطيع أن تشاهد العمل الفني: بعض البدويات يجلسن أمام المغزل ويدرن صوف الجمال الرفيع بأيديهن. اتخذت الخيمة المرتفعة شكل نصف دائرة وضعت حول محيطها وسائد إغليها من المخمل يجلس عليها حوالي إثنتا عشرة سعودية، كن المضيفات. كان بعضهن يرتدي الزي المحلي وبعض آخر يرتدي ملابس الزفاف من مختلف المناطق. أما ملابس الزفاف ــ نادراً ما تكون بيضاء ــ فكانت تلمع في طبقات كاملة الوان قوية لتناسب بذلك أغطية الرأس البديعة الذهبية.

حتى أيديهن كانت مغطاة بنسيج ذهبي دقيق مثبت على الأصابع بشرائط أما المضيفات السعوديات الثريات فكن لا يرتدين الزي التقليدي بل آخر إبتكارات وإبداعات مصممي الأزياء الكبار في باريس. وكانت بينهن أميرة حسناء تضع على جيدها سلسة ذهبية يتدلى منها فراشة رقيقة ثمينة من الماس. وقد أخبرتني روث أن المضيفات كن في مجموعهن حديثات السن وذوات جمال ملفت للنظر. وكن طويلات القامة، رشيقات لطيفات ذوات ملامح نبيلة وشعر أسود فاحكم.

وكانت زوجتي تجد أنه خسارة أن تضطر هؤلاء النسوة إلى إرتداء الحجاب إلا بين أسرهم أو بين نساء أخريات أو مع خدمهن.

وأمام الخيمة كان يقف جملان وديعان وبجوارهما تجلس مجموعة من الخدم. تنفخ بالكير في النار. وعلى النار كانت توضع أوعية قوة كبيرة من النحاس الأصفر كانت تفوح برائحة الحبهان النفاذة.

وكانت خادمات زنجيات، بعضهن جوار سابقات، يقمن بصب القهوة المحوجة في أقداح صغيرة من الصيني الرقيق ويقدمن التمر المحشو على صوان فضية بينما تعرض الأزياء المحلية على المدعوات.

وبينما كن يتحركن بخفة بين المدعوات، كن كلهن تقريباً يحاولن التحدث بالإنجليزية، التي يتقنها البعض منهن.

وكانت روث وصديقتها الإنجليزية جوان يجريان معهن محادثات بسيطة. بعد عرض الأزياء قامت رئيسة الإتحاد ــ أميرة حديثة السن ــ بتحية الجمهور بكلمة ألقتها بسهولة من خلال مكبر الصوت. وشرحت من خلال كلمات منتقاة أغراض الاتحاد. وبعد انتهاء الكلمة دخلت المدعوات إلى أحد المبنيين. حيث كانت غرف عديدة ممتلئة بموائد مستديرة. وفي إحدى الغرف الفسيحة: مدت طاولات ضخمة عليها الضان والدجاج ووقف خلفها رجال يستعدون لتقطيع وتقديم اللحم.. وكان عددهم يتراوح بين عشرة واثني عشر رجلاً يقفون على موائد متصلة على ثلاثة جوانب من الحجرة .

كانت المدعوات ينظرن بشيء من الاندهاش إلى الأميرات والعظيمات ذوات الثياب الفاخرة والتسريحات الخلابة ــ وهن يقدمن المساعدة.
وقد قالت لي روث: إنها متأكدة إنهن لم يحملن صحناً واحداً قبل ذلك. فهن في بيوتهن محاطات بخدم لا حصر له، لدرجة أن أي عمل متعلق ولو من بعيد بعمل المنزل كان يحط من شأنهن.
وكانت محاولاتهن لخدمة ضيفاتهن في هذا الحفل الرائع، ما هي إلا تعبير عن الصداقة والإعزاز .

بعد الاكل تقدمت المدعوات إلى المبنى الآخر حيث توجد صالة المحاضرات وجلست "جوان" "وروث" على مقربة من المسرح ولم تتوقعا العرض المدهش الذي جرى أمامهما.
فقد جلست ثماني فتيات سعوديات على الأرض في مؤخرة المسرح واتخذن شكل نصف دائرة، يعزفن على آلات موسيقية مختلفة من الآلات الوترية والطبول البسيطة.
ثم وقفت إحداهن تغني كانت ذات حضور يبعث على الإنشراح وكانت أغنيتها تنشر الفرح مصحوبة بإيقاع من التصفيق العالي، كان شيئاً لم تتعود عليه الأذن الأوروبية. بعد ساعة ظهرت على المسرح فتيات في أزياء محلية أو ثياب سهرة طويلة محتشمة يقدمن فاصلاً من الرقص.
كانت كل فتاتين ترقصان في وقت واحد يدوران حول بعضهما البعض بحركات غريبة وتكشفان أحياناً عن كعبيهما!!

وأثناء الرقص كانت النساء تحل الشعر وتهز الرأس حتى يطير الشعر في جنون هنا وهناك.
اما الختام فكان رقصاً شرقياً، كن يرقصن برشاقة ولطف جعلا روث تشعر بأن هذا النوع من الرقص يستحق التكريم.
وفي منتصف الليل انتهى الحفل بوصول الحافلات والسيارات.
وودعت روث وجوان وصديقاتها الجديدات من السعودية شاكرتين الفرصة التي منحت لهما المشاركة في العالم الخاص والرائع للنساء السعوديات.
وعند المدخل رأت روث سلسلة من سيارات "الرولس رويس" ينتظر بها السائقون في صف أمام الخيمة.
"لم تكن أسطورة سندريلا، فهذه السيارات الليموزين لم تتحول إلى قرع".

الفصل الرابع عشر

مشاكل مع "صديقي"

في أبريل رأيت أول غيث منذ خمسة شهور.
وبالرغم من أن هطول المطر لم يستمر طويلاً، إلا أنه كان كالطوفان الذي أغرق الشوارع المتربة ومجرى النهر الجاف، ثم ابتلعته الأرض العطشانة. ويبلغ متوسط نصيب هذا المنطقة في العام الواحد خمسين مليمتراً فقط.
ثم اخذ الدفء يزحف وأصبحت درجة الحرارة في الظل خمسين درجة مئوية تقريباً. وكان من الآثار المدمرة للحر.. أن الرصيف كان يقذف بالفقاعات بينما تظهر الشقوق في جدران المنازل المبنية حديثاً في الرياض .

****

بعد وصولنا بوقت قصير استحال النقص الخطير في مساكن الأطباء بمجمع الموظفين إلى مشكلة حادة.

ثم تقرر أخيراً أن توزع أفضل المساكن طبقاً لنظام النقاط.. فالمقيم في الرياض لمدة شهر تحسب له نقطة أما الطفل تحت الثمانية عشر فيحصل على نصف نقطة.

وتم منح أكبر الفيلات لهؤلاء الذين اقاموا أطول مدة في الرياض ولديهم اصغر الأطفال.

ولأننا لم يكن لنا أطفال فقد أصبح لنا الحق في الحصول على الفيلا بعد عام. بعد ستة عشر شهراً أصبح لنا الحق أخيراً في الحصول على مسكن في مستعمرة "بترومين" وكان المسكن يتكون من حجرة معيشة واسعة وحجرتين نوم ومطبخ وحمام. لما قمنا بمعاينة المسكن لاحظت سعادة روث بالصواوين الكثيرة الموجودة به. إلا أنها لم تصدق عينيها لما وقع بصرها على البانيو كان أحد العمال اليمنيين قد قام بخلط الألوان فيه.

وقد استغرق دعك البانيو عدة أسابيع حتى استطعنا تنظيفه بقدر يسمح الإستحمام فيه.

ثم أخذنا نتطلع بأمل إلى اليوم الذي سننتقل فيه إلى الفيلات الواسعة في حرم المستشفى ثم فيلات "الأميرة سارة" الأنيقة، التي تعتبر أجمل المساكن والتي كانت لا تزال في مرحلة البناء.

بعد وقت قصير من إنتقالنا إلى مستعمرة بترومين حدثت لي أول تجربة مع "الشمال"[13] كنت أنظر عودة روثمن رحلة قصيرة إلى لندن وأنشغلت بترتيب المسكن قبل وصولها حتى أنتزع إعجابها. فقمت بإزالة الغبار عن السجاد ثم أخذت في إزالته من على الأثاث فبدى لي أن ذلك عمل غير مجدي. فكلما أزالت كمية من الغبار ظهرت منه كميات أكبر.

ثم أصبحت طبقة الغبار كثيفة لدرجة أنني استطعت أن أحفر فيها أسمي.

ثم شعرت بشيء خفيف يلسعني في قفاي.. فالتفت فإذا بي إجد موجة رمل رقيقة تنساب من قضبان السقف ثم تغطي كل شيء على مدى الرؤية. سمعت الريح يصفر والرمل يضرب النوافذ بشدة واختفت الشمس ثم عتمت سحابة رمل كثيفة كل شيء وأخذ الرمل ينهمر من قضبان السقف بلا انقطاع.. فقد قام عمال البناء اليمنيون بتركيب جهاز غريب اطلقوا عليه جهاز تكييف الصحراء.. كانت مهمته نقل الهواء من الخارج إلى الداخل وكانت أجهزة التكيف هذه لا تعمل بالكهرباء ولكنها تحرك ببساطة هواء الصحراء البارد في أنحاء المساكن وكانت مفتوحة بطريقة تستدرج بها دخول رياح الشمال إلى المسكن. كان الرمل لا يزال يطير إلى الداخل لينفذ حتى إلى أصغر الفتحات الموجودة في حافة النافذة ولقد استغرق تنظيف السكن بعد ذلك أسابيع طويلة فقد كان كل شيء مغطى بطبقة رمل رقيقة، حتى بين صفحات الكتب وجدت الرمل.

---

[13] ريح الشمال (المترجم).

وعندما وصلت روث في اليوم التالي عبرت عن خيبة أملها قائلة:
عادة ما تقوم بذلك على نحو أفضل ــ لقد وجدت رملاً في صوان الطعام، وحتى في الشاي وجدت رملاً.
إنها لم تسمع من قبل عن ريح الشمال.. فأوضحت لها أنه يمكن لريح الشمال أن يأخذ أبعاداً كبيرة وخاصة في المحافظات الشرقية حيث تزأر تيارات الرمال بقوة لعدة أيام فتنتزع طلاء المنازل وتعصف بالأشجار وتجبر الطائرات على الطيران على ارتفاع خمسة آلاف متر لتفادي الرمل والغبار التي تجعل الرؤية مستحيلة.
فقالت: كان من الأفضل أن أبقى في لندن لأنني لن اضطر هناك إلى ترتيب أي شيء بعد حلول الضباب الكثيف.. كان السكن في بترومين تجربة لا تنسى. كان مسكننا حينذاك يقع على أحد أطراف الرياض وكنا لا نستطيع النوم في الليل بسبب نباح قطعان الكلاب "السلوقي" التي كانت تتسكع في هذه الناحية. أما العودة إلى المنزل ليلاً فكانت مغامرة خطرة بسبب حركة التعمير الكبيرة. كانت الشوارع المتربة المفضية إلى السكن تظهر فجأة ثم تختفي بعد ساعات مرة أخرى.
فقد كانت الجرارات تزحزح التلال العظيمة عن أماكنها فتسد تماماً بذلك الطرق المؤدية إلى البيوت.
وأثناء الستة أشهر الأولى لإقامتنا في الرياض كان الاتصال بالسعوديين قليلاً ذلك إن وجد اصلاً. وهكذا كانت العلاقة مقتصرة على الاجانب فقط.
فكان للإنجليز مجتمع خاص بهم يستقبلون فيه كل وافد منهم بسرور، وإن كان الأمريكان غير مرتبطين هكذا مثل الإنجليز إلاَّ أنهم كانوا يفضلون التعامل مع مواطنيهم. أما المصريون واللبنانيون فكانوا يفضلون الحياة فيما بينهم فقط إلاَّ أنه بمرور الوقت أسقطت الصداقة بين الإنسان والإنسان الحوجز اجز القديمة فأخذت كل جالية تتقبل الجالية الأخرى، وهكذا تعددت ولائم المساء وصارت المسامرات تتم في جو من الحرية والمرح.
ولما كانت الجمعة هي العطلة الرسمية فإن الاحتفالات التي كان يقيمها العاملون بالمستشفى كانت تقام في يوم الخميس وكانت تبدأ في العادة في حوالي التاسعة وتنتهي في الثانية صباحاً.
أما المشروب الكحولي الوحيد فكان "صديقي" وكان يقدم بمشروب البونش الفواكه الساخن أو التونيك. وكنا جميعاً نفتقد مشروباتنا من السكوتش والجن والفودكا.. ولعدم وجود النبيذ فكنا نقوم بصناعته بإنفسنا وعند دخولنا بين أحد الإنجليز أو الأمريكان كان يقابلنا غالباً قرقرة ورائحة

النبيذ المتخمر. وذات مساء كنا مدعوين لوليمة فقمت بامتداح مضيفي على النبيذ الذي قدمه لنا. فرفع كأساً وقال: آه وإن سبتمبر شهر طيب[14].

وكانت هذه الملاحظة تخطر ببالي عندما أذهب إلى مطعم فرنسي رفيع حيث أبحث عن نبيذ لمحصول طيب.

وفي أول مرة كنا نحتفل بأعياد الميلاد أتى إلينا أمير "الشرق"، مريض سابق عالجته، وأحضر لنا نبيذاً وسكوتش وفودكا كان يلفها في جرائد قديمة ويخفيها في حقيبة شراء. وبدون أن يقول شيئاً وضع الحقيبة على المنضدة وعاد أدراجه ثانية. إن استيراد الخمر أو إمتلاكه أو شربه ممنوع بالقانون ولذلك يتطرف السعوديون في شربهم للخمر في الخارج أما إذا شربوه داخل البلاد فإنهم يطلقون عليه المنكر.

وتحاول لجنة دعم الفضيلة والقضاء على الرذيلة أن تسيطر على مشكلة الخمر إلاَّ أنها لحسن الحظ لا تدخل المناطق الخاصة بالمواطنين .

---

[14] تتوقف جودة محصول النبيذ على الظروف المناخية للعام. والمقصود هنا المزاح، بأن طقس سبتمبر كان جيداً (المترجم).

الفصل الخامس عشر

في الربع الخالي

بعد شهر وجدت نفسي في الطريق إلى "خميس مشيط"، المدينة الصغيرة الواقعة في محافظة عسير، وهي منطقة جبلية على الساحل الجنوبي للبحر الأحمر على مقربة من الحدود اليمنية. وهي تقع على مسافة ثمانمائة كيلو متر من جنوب الرياض وتحدها الصحراء الشاسعة المسماة بالربع الخالي.

سافرت إلى هناك بالطائرة تلبية لدعوة الطبيب الأمريكي دكتور ستيوارت راندال والذي كان يعمل في مستشفى عسكري في هذه الجهة النائية. كان ستيوارت قد اتصل بي قبل ذلك بعدة أسابيع عن طريق اللاسلكي نظراً لعدم وجود خط تليفون بين الرياض وخميس مشيط، ليبلغني بأمر ممرضة أميركية عانت آلاماً شديدة في بطنها.

وكان يريد إرسالها بالطائرة إلى مستشفانا في الرياض بغرض التشخيص والعلاج. وقد قمنا باتخاذ اللازم تجاه إقامتها في المستشفى وقد أثبتت إختباراتنا أن أحد الأوعية الصغيرة، التي تصب في الأمعاء، كان مسدوداً. وقد نجحنا في علاجها ثم عادت إلى خميس مشيط، والآن فإنني في الطريق لمشاهدة المستشفى الذي تعمل به وكذلك لكي أفحص مريضتي أيضاً هناك، لقد كنت سعيداً للتعرف على هذا الجزء من هذا البلد.

وقد قام "موسى" موظف قسم النقل، بحجز تذكرة طائرة "درجة أولى" لي وحصل على شهادة بذلك. بعد أن سجلت نفسي في شباك الطيران بعشر دقائق كان هناك من يناديني من خلال مكبر الصوت. وطلب مني الوكيل السعودي إرجاع تذكرتي ذات الدرجة الأولى والسفر بالدرجة الثانية. ولما ظننت أن مكاني سوف يذهب إلى أحد أعضاء الأسرة المالكة، أبيت ذلك وأبرزت الشهادة التي حصل عليها موسى.

وعندما نودي على الاقلاع توجهت إلى الطائرة ودخلت الدرجة الأولى فالفيت هناك أربعة مقاعد خالية. بعد قليل صعد الوكيل السعودي إلى متن الطائرة مصطحباً حارساً بدوياً ممتلئ الجسد يرتدي الزي الكاكي، وكان يحمل بندقية في يده وتبدو عليه علامات الانزعاج. ولقد كنت متأكداً

من خلو البندقية من الرصاص. أما الحارس فكان يبدو عليه الخوف أكثر من حيث كان يقدم خطوة ويؤخر الأخرى.

لما اصر الوكيل السعودي على نقلي من الدرجة الأولى إلى الدرجة الثانية رفضت وقلت له: عليك أن تحضر حارساً آخر ليحملني مع هذا لأنني لن أتحرك من مكاني، فلابد من وجود حارسين لأنني أزن أكثر من ثمانين كيلوا جراماً، وهذا الحارس قصير وهزيل.

أثناء حديثنا صعد إلى الطائرة أحد أفراد الأسرة المالكة ومعه زوجته وطفلاه. فقدر الموقف على الفور تقديراً سليماً وأرسل طفليه إلى الدرجة الثانية .

****

عبرنا أثناء رحلتنا الممتدة لساعة ونصف جزءاً من الربع الخالي، الطارد العظيم... أكبر صحراء في العالم والذي يبدو كالبحر بكثبانه الرملية المرتفعة المختلفة. وتبلغ مساحة الربع الخالي ثلاث مرات تقريباً مثل حجم ألمانيا الغربية. ويمتد من جبال اليمن على الساحل الجنوبي الغربي للسعودية حتى سفوح جبال عمان من حوالي ألف وخمسماية كيلو متر إلى الشرق ويصل في ثمانمائة كيلو متر بين اليمن من الجنوب وبين الخليج العربي أو "الفارسي"[15] في الشمال الشرقي.

هذه الصحراء ــ في الصحراء ــ عظيمة الحجم لدرجة أنها بقيت أكثر من ألف عام بدون استكشاف.. حتى اخترقها "برترام توماس" ومن بعده "هاري س. ت. جون فيلبي" على ظهور الجمال، والمعروف أن كليهما انجليزي الجنسية. كان توماس أول من اخترق الربع الخالي في عام 1930 وبعده بسنتين تبعه فيلبي.

وفي خطابه إلى الفلد مارشال قائد القوات الجوية البريطانية عام 1962 يقترح الرجل الأسطورة "ت. أ. لورانس" أن تقوم طائرات "R A F"[16] بالطيران فوق الصحراء لتمهد بذلك الإكتشافات، فقال في خطابه:

"إنها السفينة الجوية فقط التي تستطيع إنجاز ذلك وأود أن تكون إحدى طائراتنا التي تظفر بهذا المجد".

أكدت نظرتي الأولى إلى الربع الخالي صدق تصوري لهذه الصحراء كان كثيب الرمل، الذي بدا كموجة عملاقة يمتد إلى كيلو متر ونصف ويبلغ إرتفاعه أحياناً ستمائة متراً، بارزاً من السطح المستوي. وقد أحالت الرياح الشمالية السائدة في هذه المنطقة هذه الكثبان إلى منحدرات مقوسة وعرة لا تستطيع الجمال الصعود إليها. وقد اتخذت كثبان أخرى شكل القباب أو المناجل أو شكل منحدرات مديدة رائعة المنظر متوازية ذات لون أحمر قاني أو بني داكن ويطلق عليها البدو اسم العروق.

وفي بعض المناطق تتخذ الكثبان اللون الكريمي أو الأبيض أو الأحمر وكل طبقات الألوان التي يمكن تخيلها، كما تبدو بعض قمم التلال كالذهب الأخضر.

أما في المناطق المنبسطة فكان الرمل يبدو مضلعاً أو لولبياً كبصمات عظيمة لعملاق سماوي أو كقاع المحيط تتخلله الأخاديد. لم يكن هناك دلائل على حياة عضوية اللهمَّ محارات متحجرة

---

[15] يطلق الغربيون اسم الخليج الفارسي على الخليج العربي (المترجم).

[16] القوات الجوية الملكية (المترجم).

جبرية. وعند دخولنا أجواء "خميس مشيط" مررنا بوادٍ عميق تتكون جدرانه المنحدرة من طبقات الأحجار المتوازية، وكان يشبه "الجراند كانيون" في الأريزونا. أما الرمال الناعمة التي كانت تغطي القاع والجدران الصخرية للوادي فكانت تتلألأ كالثلج الأبيض. قبل أن تتخذ الطائرة دورتها لكي تهبط ألقيت نظرة على جبال عسير المدببة والتي يبلغ ارتفاعها أكثر من ثلاثة آلاف متر.

وتمتد هذه الجبال بطول الساحل الجنوبي الغربي للمملكة السعودية على البحر الأحمر لتشكل خط تقسيم مياه لهضبة شبه الجزيرة. وفي جنوب هذه المنطقة يقع السهل الساحلي المسمى "تهامة" وهو يرتفع تدريجياً من سطح البحر حتى الجبل. وكمية المطر التي تسقط فيه سنوياً والمقدرة بأكثر من ستة الآف مليمتر تكفي لزراعة المنطقة بدون حاجة لري إضافي.

وتعبر منطقة تهامة ذات الماء الوفير من أخصب مناطق السعودية.

وتتخذ التلال ومن خلفها الجبال في الغالب شكل المصاطب لتسهيل استغلال الأرض بأكبر قدر ممكن. وعلى هذه المصاطب من الجبال الواقعة غرب البحر الأحمر يزرع البن والحبوب والفاكهة والخضروات على ارتفاع 150 متراً من سطح البحر، ويفضي التل الشرقي إلى سهل مرتفع ينتهي تدريجياً إلى الربع الخالي كما تشهد سلسلة المجاري والفوهات البركانية الموجودة على سطح السهل المرتفع الشرقي بوجود البراكين النشطة لوقت قريب نسبياً.

إنه بلد التناقضات بلا شك سواء من الناحية الطبوغرافية أو من الناحية الإجتماعية ففي جهة من الجبل يوجد البحر الأحمر والسهول المرتفعة الخصبة وفي الجهة الأخرى توجد مجار بركانية وصحراء مخيفة .

كان ستيورات راندال في إنتظاري في المطار الصغير "بأبهة" وأقلني إلى بيته القريب من المستشفى العسكري. في خميس مشيط بدت المنازل المبينة من الإسمنت متشابهة تماماً وكانت تقف بجوار بعضها كالعلب وكانت منازل مريحة ولكنها كانت خالية من أجهزة التكييف. أما "أدوينا بارنيل" المريضة التي كنت قد عالجتها فكانت قد شفيت تماماً وقامت دعوتنا إلى الغداء في منزلها وأعلنت أنها أخذت عدة أيام إجازة من المستشفى بمناسبة زيارتي لكي تستطيع أن تريني كل شيء. وكان من الطبيعي أن لا يوجد مطاعم وكانت كل أنواع اللقاءات تتم في المنازل. وبعد أن زرت المستشفى في اليوم التالي وقمت بفحص سريع لأدوينا أنطلقنا أنا وراندال وأدوينا إلى نزهة خلوية مستقلين سيارة يقودها واحد من أصدقاء أدوينا يدعى هشام. وعندما خرجنا من المدينة متجهين إلى الغرب لمحت مساحات واسعة من الأحجار السوداء من كل الأحجام والأشكال المتراكمة على بعضها وكانت تشبه الأحجار البركانية التي رأيتها في فلسطين ذات مرة.

بعد قليل عثرنا على مكان نجلس فيه كانت الخضرة تنمو فيه بوفرة وتستطيع أن ترى منه وادياً شاسعاً خلفه جبال عسير .

****

بعد أن أكلنا انطلقنا في جولة استكشافية فعثرنا على أطلال عظيمة متهدمة، بقايا قصر فخم صار أثراً بعد عين. وأخبرنا ستيورات أنه قصر خاص بالملك سعود وزوجاته وجواريه كان يستخدمه كمسكن بعيد عن الانظار يقضي فيه عطلاته. ولكنه ترك مهجوراً بعد أن غادر الأمير سعود البلاد في عام 1964. أشار راندال إلى الأفق وسأل هل تعرف أن اليمن يقع على بعد عدة كيلو مترات قليلة من هنا، فنحن نوجد الآن تقريباً على الحدود ثم أخبرنا بأن كثيراً من اليمنيين يعانون من الأمراض الطفيلية وأن هناك إعتقاداً سارياً في بعض المناطق أن الصبية يحيضون وذلك راجع لأن كثيرين منهم يتبول دماً وهذا ناتج عن إصابتهم بدودة طفيلية تهاجم منطقة المثانة ومنطقة الأمعاء والكبد.وينتشر هذا المرض نتيجة لتصريف إخراجات الإنسان الملوثة في مجاري المياه الضحلة والشبه راكدة حيث تتكاثر القواقع وتتخذ الطفيليات طبيعتها المعدية في داخل القواقع ثم تخرج إلى الماء لتخرق جلد الإنسان الذي يعمل في هذه المناطق الموبوءة أو يسبح فيها. وفي النهاية تهاجم الدودة الطفيلية الأوعية الدموية للإنسان وكذلك أعضاءه. ولى حد قول راندال فإن هنالك أكثر من نصف مليون يمني يعملون في السعودية والكثير من هؤلاء لا يعاني من سوء الحالة الصحية ومتوسط عمرهم يقف عند الأربعين عاماً ولأنه غير مسموح لهم باصطحاب نساءهم فإنهم يضطرون لتحمل الحرمان الجنسي لمدة طويلة ولقد انتشر الشذوذ الجنسي بينهم كنتيجة لهذا، كما تمَّ إعدام الكثير منهم عن جرائم الإغتصاب التي ارتكبوها منذ قريب.

ثم استطرد قائلاً: لقد تم منذ قريب إعدام ثلاثة يمنيين في يوم واحد في الرياض لهذا السبب.

استأنفنا رحلتنا الأستكشافية في اليوم التالي فانطلقنا خارج خميس مشيط بمسافة خمسة عشر كيلو متر ناحية الغرب إلى بيوت ريفية مقامة على مصاطب تلال مرتفعات عسير. حيث تمتد قنوات الري الإصطناعية من مصطبة إلى أخرى وحيث يعمل الرجال والنساء والأطفال جنباً إلى جنب في الحقول وكانت معظم النساء سافرات بين أعضاء أسرهن وكان الجميع يضعون على رؤوسهم القبعات العريضة المنتشرة في هذه المنطقة. كانت البيوت المبنية من الطين ترتفع إلى طابقين أو ثلاثة طوابق.

وكانت توجد في مجموعات تتكون من خمسة إلى عشرة منازل، حسب العائلة التي تسكنها. وكانت ألواح الخشب مثبة في البناء الطيني وكان بين كل لوح وآخر مسافة تبلغ خمسة عشر أو عشرين سنتيمتراً، وتخترق الجدران متخذة شكل الضلوع، وكانت تتجه إلى أسفل لكي تحمي البناء الطيني من تقلبات الجو. أما الشيء الجميل في ذلك فكانت الألوان الزاهية الفاتحة لهذه المنازل: الأخضر والبني والأحمر والأصفر والبرتقالي والأزرق.

أما أسوار الأسطح المسننة فكانت مطلية باللون الأبيض الناصع، وأما النوافذ الصغيرة المربعة فكانت مطلية باللون الأحمر أو الوردي أو الأصفر.

جعلني هذا المنظر أتذكر أول محاولات يقوم بها الأطفال لرسم المنازل مستخدمين في ذلك ألوان السماء.

وبينما كنا نمشي الهوينا ونتعجب في هذه القرية ظهر لنا رجل في حوالي الأربعين من عمره، يشق طريقه إلينا. كان الرجل يرتدي الثوب التقليدي وينتعل الصندل، ولكنه لم يكن يرتدي على رأسه (الغطرة) ذات الكاروه الأبيض والأحمر أو العقال، بل قبعة كبيرة من القش

وكان يتمنطق بحزام جميل من الجلد مثبتاً فيه خنجراً فضياً مزخرفاً.

قام هشام، صديق أدوينا، باداء دور المترجم وقال للرجل: إننا أمريكيون وأن المنازل في هذه الجهة تعجبنا،

فقال الرجل: إنه فلاح ولم يتخط حدود إقليم عسير، ولم ير طيلة حياته أي أجنبي كما ذكر أنه يدعى رشاد.

مد كل منا يده للأخر يصافحه ويبتسم له وقد أخبرنا هشام أن رشاد يود دعوتنا إلى منزله.

فتبعناه إلى هناك ونحن في قمة الفرح، وهناك وجدنا منزلاً مطلياً باللون الوردي والاخضر والأبيض ولما دخلنا قام رشاد بخلع صندله ووضعه على كومة من الصنادل المشابهة أمام الباب الملون فحذونا حذوه.

كانت حجرة المعيشة عبارة عن بهو كبير مستطيل وكان السجاد التركي المزخرف يغطي الأرض

لم نرَ مقاعد وإنما وسائد كبيرة بأهداب موضوعة على امتداد الحائط. وثبت في السقف الخشبي كمر رفيع يبلغ سمكه حوالي السنتيمتر وكان ذا ألوان فاتحة عديدة، أما الجدران فكانت مطلية بخطوط عريضة (حوالي 50سم) وبألوان تتناسب مع ألوان الكمر منها: الوردي والأزرق والأخضر والأصفر. وتحت السقف بقليل كان يوجد نافذتان صغيرتان مربعتان يزينهما اللون الأبيض.

وقد أخبرني رشاد أنه أدخل التيار الكهربائي إلى بيته إلا أن النور كان مقطوعاً. بعد ذلك دخل علينا الغرفة ثلاث نساء متشحات بالسواد ويرتدون العباءات السوداء وكن حافيات. فقام رشاد بتعريفنا بهن وقد فوجئت لما مددن أيديهن إلينا يصافحننا.

وقد أخبرني هشام بأن اثنتين من الثلاث هما زوجات رشاد والثالثة أخت له. وفي لحظة كن قد اختفين بهدوء كما ظهرن ولم نرهن مرة أخرى. جلس الرجال في ناحية من الغرفة بينما جلست ماري وأدوينا في الناحية الأخرى واضعتين أقدامهما تحتهما عملاً بالتقاليد.

وتذكرت أنني رأيت في الحفلات، التي كان يقيمها اللبنانيون والمصريون، أن النساء كانت تجلس أيضاً منعزلة عن الرجال وما أن يصل الطعام يختلط الجميع.

قام رشاد بمساعدة أحد أبنائه، بتقديم القهوة المعتادة نظرت فيها فرأيت كتلات من البن تسبح فيها، لانه لم يجد الوقت الكافي لتصفيتها وفي بيوت العائلة المالكة يوجد خادم مخصوص لإعداد وتصفية وتقديم القهوة. ومن الظاهر أن المرء يحتاج إلى وقت ومهارة لإعداد القهوة، إلا أن رشاد قام بإعدادها في أقصر وقت. وقد شربت قدحين من هذه القهوة من باب المجاملة، وحسب التقاليد السعودية فإن أقصى ما تشربه هو ثلاثة أقداح.

وإذا أكتفى الضيف فإنه يفهم مضيفه ذلك عن طريق هز القدح الفارغ بحركة خفيفة من يده. ثم أخبرنا رشاد أنه قد استأجر مزرعة قمح وأن القمح واحد من أهم المحاصيل في إقليم عسير. وهو يزرع في بعض الأحيان الفاكهة والأرز. وقد أخبرنا أيضاً أن السماء تمطر بغزارة أثناء شهور الصيف، من يونيو حتى سبتمبر، وأن ارتفاع هذا الإقليم يبلغ ألفي متر عن سطح البحر.

وقد سأل ستيورات رشاد إن كان يزرع "القات" هذا النبات الأخضر الدهني، الذي يزرع على ارتفاع ألف ومأتي متراً في إقليم عسير، ولأوراقه تأثير مخدر. فأجابه رشاد أن الحكومة تراقب إنتاج القات وأنه لا يملك رخصة زراعته.

بعد أن قدم أحد أبناء رشاد الشاي، قمنا بتهنئته مضيفنا على منزله وشكرناه على كرم ضيافته. وأنا أعتقد أنه كان يود طرح أسئلة كثيرة علينا إلا أن خجله منعه من ذلك.

ثم صافحنا إبنه وغادرنا المكان .

****

في يوم الخميس، وهو اليوم الذي ينعقد فيه السوق، والذي يأتي بسببه كثير من الناس إلى خميس مشيط ليشتروا الفاكهة والخضروات واللوز والبهارات. وكان بعضهم يقطع مسافة مائة وعشرين كيلو متراً ليشارك في هذا السوق، حيث تباع القبعات القش، ومنتجات الفخار، والقرب المصنوعة من جلد الماعز والمدى والأساور الفضية الناس هنا لم يروا أي أجنبي قبل ذلك.

وأينما ذهبنا كان الناس يتحلقون في مجموعات صغيرة، ليحدقوا في هؤلاء الرجال حليقي الذقن ذوي الشعور الشقراء والبنطلونات والقمصان، وتلك النسوة السافرات ذوات البشرة البيضاء.

كان بعضهم يحمل البندقية والبعض الآخر يتمنطق بالحزام البديع واضعاً فيه خنجراً فضياً منقوشاً. وعندما قررت شراء خنجر تجمع حولي الرجال يساعدونني في حماس للعثور على أفضل الخناجر.

وقد جرى كل ذلك بلغة الإشارات لانني كنت قد فقدت هشام وستيورات في الزحام. كم هؤلاء الناس سعداء.

وعندما عثرت على ما رأيت، قاموا بمساعدتي في ربط الحزام وتثبيت الخنجر فيه، ثم صفقوا مشجعين.

فعلوا ذلك مبتهجين في جو يملؤه المرح .

الفصْل السّادس عشر

الدية

لما وصلت ذات صباح إلى مكتبي وجدت رسالة غير عادية على مكتبي كانت مكتوبة بالآلة الكاتبة وبدت كما لو كانت بلاغاً رسمياً.
اتصلت بسكرتيرتي من خلال الميكروفون الرابط بيننا وقلت لها:
إنني اليوم لست في أحسن حالاتي بالنسبة للغة العربية، هل لديك ترجمة لهذا النص؟
فردت: سوف آتي حالاً. لم تكن نبرة صوتها مرحة كالعادة دخلت ماندا المكتب وبدى عليها الانشغال وقالت: لقد كنت أريد أن أتلطف في أخبارك بهذا الموضوع. ثم أعطتني ورقة أخرى وقالت:
وجدت هذه الترجمة. كانت مرفقة بالتلكس العربي على منضدتك.
وبدأ النص هكذا :

"**بسم الله الرحمن الرحيم**"

"ثم قرأت بالبلاغ أن إحدى المريضات اللاتي كانت تعالج في مستشفانا قد توفيت منذ قليل وأن زوجها يتهم أربعة أطباء بالتسبب في موتها ويطلب الدية من هؤلاء الأطباء وهذا البلاغ يستدعيهم للحضور أمام المحكمة في قسم الطب الشرعي بوزارة الصحة. وذكر اسم طبيبين وأعلمهما بالحضور في السابعة والنصف من مساء الأحد، والإثنين الآخرين في مساء الإثنين.
وكان البلاغ موقعاً من مدير قسم الطب الشرعي.
أما الأطباء التي ذكرتهم عريضة الدعوى فكانوا دكتور جورج روجرز، طبيب الأمراض الباطنة وثلاثة آخرين: طبيب العيادة الخارجية، طبيب الإستقبال والطبيب النوبتجي.
وضعت ماندا سيجارة في فمها وعادت بظهرها إلى مسند مقعدها.

لقد كانت مخلصة للقسم الذي نعمل به وكانت منزعجة لأمر التلكس، سألتني ماندا: ما هذا الكلام الفارغ عن "الدية"، إنني لم أسمع بذلك من قبل.

فأوضحت لها أنه عند موت إنسان بالصدفة أو بالعمد فإن من حق أقرب الناس له أن يطلبوا الدية وهي تعويض محدد. وطبقاً للشريعة القديمة فإن أسرة الضحية تستطيع رفع دعوى المتهم للاقتصاص منه بالقتل. وهذا النوع من القصاص لم يعد يستحسنه القانون الإسلامي وأصبح يفضل قبول أسرة المتوفي للدية.

فإذا مات شخص على سبيل المثال في حادث سيارة، والذي غالباً جداً ما يحدث في السعودية فإن المتهم يدفع الدية لأسرة الضحية وغالباً ما يسجن أيضاً.

وفي العصور القديمة عندما كانت القبائل تتصارع وتتقاتل كان من المألوف أن تتدخل قبيلة محايدة لتعيد السلام من خلال أن ترغم القبيلة التي فقدت عدداً أقل من رجالها في المعركة بأن تدفع الدية للقبيلة الأخرى، لان الأخيرة فقدت رجالاً أكثر. ومن خلال هذا يتم وقف استمرار القتال بغرض الثأر الذي لا ينتهي.

وكانت الدية عن حياة شخص عادي تبلغ في عام 1936 حوالي ألف ومائتي ريال. أما الآن فقد بلغت أكثر من ثلاثين ضعفاً نظراً للتضخم ولارتفاع تكاليف الحياة.

وفي بعض البلاد الإسلامية فإن الدية ترتفع بقدر الوضع الاجتماعي للقتيل إلاَّ ان ذلك لا يسري في السعودية.

أطلقت ماندا سحابة من الدخان وقالت: ولكنك لست مشتركاً في هذه القضية، فلماذا أرسلوا لك أيضاً نسخة من هذا التلكس؟

ــ لأن المريضة ماتت أثناء علاجها في القسم الطبي وأنا رئيس هذا القسم، وسوف نقوم بفحص دقيق لهذه الحالة لنثبت إذا ما كان ذلك قد حدث بسبب الإهمال أو بعمل يعاقب عليه القانون واحتمال أن يكون دكتور كومبيتون قد أرسل لي هذه الرسالة ليهيئني للخبر الأسود ولسوف يتصل بنا قريباً، تأكدي من ذلك.

بعد ساعتين اتصل بي دكتور هيج كومبيتون وسألني: هل استلمت نسخة من تلكس وزارة الصحة؟ وقبل أن أستطيع الرد استطرد قائلاً: إن السمعة الطيبة لمستشفانا معرضة للخطر، إن المشكلة ليست في الدية في حد ذاتها لأنها ستدفع من تأمين المستشفى ولكن المشكلة تقوم على ما إذا كان يمكن منع موت المريضة. وأنا أود أن تثبتوا بالتأكيد من أننا بذلنا قصارى جهدنا من أجل هذه المرأة، لقد اشترك أربعة عشر شخصاً في رعايتها خلال ثماني ساعات هي مدة إقامتها في المستشفى، وأنا لديَّ النية في الحصول على شهادة تحريرية من الأطباء ومن الممرضات،

ومن طاقم الإنعاش.. الخ، وأريد منك أن تشكل لجنة لتقصي الحقائق من الزملاء لتثبتوا إن كان هناك إهمال من ناحية أي شخص كان مشتركاً في علاج هذه المريضة، وأمامنا وقت أقل من أسبوع لإنجاز ذلك. ثم ندعوا بعد ذلك إلى اجتماع لنخرج بعد ذلك بالخلاصة.

وقد اثبتت اللجنة، التي شكلناها أن المريضة تادرا زكي شبات حاشين والبالغة من العمر خمسة وأربعين عاماً، قد دخلت مع زوجها في حوالي الثالثة عصراً إلى قسم الإستقبال التابع للمستشفى وطلبت التحويل إلى "الكلينك" وكانت تحمل تقريراً مكتوباً من طبيبها أثبت فيه أنها مصابة بالتهاب في الفص الأيسر الأسفل للرئة.

فقام دكتور "زابار"، طبيب قسم الإستقبال بتحويلها إلى طبيب العلاج الأولي في مركز صحة الأسرة والذي يفصل فيما إذا كانت ستدخل المستشفى. وهذا يتفق مع عملية الإخبار، التي جرت عليها العادة والتي تجري على المرضى قبل تحويلهم إلى المستشفى، لان المستشفى في العادة تكون مشغولة تماماً.

وفي الساعة الثالثة والنصف تحدث دكتور تابيل مع المريضة في مركز الصحة وقد اشتكت من آلام في الرقبة وسعال صاحبهما بعد ذلك ضيق في التنفس وآلام بالصدر. وعلى حد قولها فإنها لم تبصق دماء لكن سعالها ازداد سوءاً بالرغم من تعاطيها الدواء.

وعندما قام دكتور تابيل بفحصها لاحظ تغيراً بسيطاً في لون بشرتها يدل على نقص في الأوكسجين. وقد كانت المريضة سمينة للغاية فبينما كان طولها مائة وخمسين سنتيمتراً، كان وزنها سبعة وتسعين كيلو جراماً.

وقد أشارت نتيجة الفحص إلى إصابتها بالتهاب رئوي. ولكن درجة حرارتها المنخفضة على نحو غريب وضغط دمها المنخفض جداً وضربات نبضها السريعة للغاية أثارت الريبة. فقام الدكتور تابيل بعمل فحوص بالأشعة واختبارات دم وأشرك معه دكتور روجزر الطبيب الباطني وقام الإثنان بفحص صور الأشعة التي أظهرت إلتهاباً رئوياً حاداً على فص الرئة.

أما "رسم القلب" فلم يظهر شيئاً غير عادي إلاَّ النبض السريع. ومع أن المريضة كانت قد تمسكت بالعودة إلى بيتها إلاَّ أن دكتور روجزر أصرَّ على تحويلها إلى المستشفى، ثم أمر بإجراء جلسات استنشاق أوكسيجين وإعطائها مضاداً حيوياً كل ست ساعات عن طريق الفم وأمر كذلك بإجراء سلسلة من اختبارات الدم كانت قد وصلت المريضة في الساعة الرابعة والنصف عصراً إلى عنبر ب ــ 3 وتوفيت بعد حوالي ثماني ساعات، بعد منتصف الليل بقليل.

وطبقاً للرأي الحالي للجنة الأطباء فإن الدكتور روجزر لم يدرك خطورة الحالة الصحية للمريضة ولم يقم بعلاجها العلاج السليم. فضغط الدم العالي وانخفاض درجة حرارة الجسم

والنبض السريع وضيق التنفس كان يشير إلى أن المريضة مصابة إلى جانب الالتهاب الرئوي ــ بعدوي حادة في الدم وتعاني من تسمم في الدم.
ورأت اللجنة أنه لا يمكن اتهام دكتور روجزر بالإهمال إلاَّ أنه أخطأ خطأً جسيماً في تشخيصه. ولا يمكن التكهن بأن حقن المريضة بجرعات كبيرة من المضاد الحيوي كان سينقذ حياتها ويرجع سبب ذلك في المقام الأول إلى سمنتها المفرطة وإصابتها بعدوى شديدة.
وأثناء التحقيق ظهرت عدة حقائق، فقد كلف دكتور "روجزر" الممرضة المصرية المسؤولة عن المريضة باستدعاء دكتور "سابان"، الدكتور النوبتجي، إذا ما ساءت حالة المريضة، ثم استشارته بعد ذلك إذا استلزم الأمر هذا. ولكن بسبب صعوبة التفاهم اللغوي لم تفهم الممرضة ولم تستدع د. سابان، الذي كان في الخدمة طيلة الليل بالمستشفى وقام بعيادة مرضى عنبر "ب ــ3".
وعندما انخفض ضغط الدم بعد ذلك بصورة سريعة استدعت الحكيمة دكتور سابان. وبعد منتصف الليل بقليل قام بعملية تسريب في وريد المريضة. ألاَّ إن المريضة فقدت وعيها خلال نصف ساعة وفشلت محاولات الإنعاش الفورية التي قام بها فريق التخدير وكان المستشفى قد اتصل قبل عدة ساعات بزوج المريضة وأخبره بحالتها الحرجة. وعندما وصل إلى المستشفى وعلم بخبر وفاتها انفجر في ثورة غضب واتهم العاملين في المستشفى بالإهمال وهددهم برفع قضية "دية".
ولم تقم الممرضة أو دكتور سابان بإخبار دكتور روجزر، الذي كان في بيته، وقد افترض أن مريضته في حالة طيبة.
ثم خطر ببالي أنه من الجائز أن تقع في الخطأ كإنسان ولكنك لن تغفر كإله، أو كما في القرآن. أساساً فإن السعوديين طيبون مرهفو الشعر ومسالمون. ولكن سب السعودي يعتبر فعلاً يستحق العقاب أو الغرامة المالية. ويمكن تفسير التربيت العنيف على الكتف على أنه اعتداء بالضرب. إن ضرب السعودي، حتى في حالة الدفاع عن النفس، ممنوع ويمكن أن يؤدي إلى العقوبة بالسجن أو بالغرامة المالية أو بالترحيل من البلاد. واستخدام الشتائم في العلن يعرضن لعقوبة السجن. وفي حالات حوادث الطريق فإن كلا السائقين يظلان في الحبس حتى النظر بالقضية. وكل من يضبط سكراناً في العلن فإن يلقى به في السجن ثم يرحل خارج البلاد إذا كان أجنبياً أما المسلم فيتم جلده ولا يوجد في الرياض إلاَّ القليل من الشرطة المدنية لتطبيق القانون. ومن النادر أن ترى شرطياً سعودياً في زيه الرسمي يقوم بتنظيم المرور.
أما المطوع، شرطة الآداب، فإنها في كل مكان وهي لا تلتزم بحذافير القانون فحسب وإنما تتعدى أيضاً اختصاصاتها القانونية في بعض الأحيان. في اليوم التالي ذهبنا أنا وجورج بالسيارة

إلى مكتب جلال الذي أخبرنا أن جورج سوف يحاكم طبقاً للشريعة الإسلامية، القانون الإسلامي الذي يحكم الدنيا والدين. وهو يختص بجرائم الملكية ويخص الملكية الخاصة وينظم أمور الوراثة ويحدد عموماً حقوق وواجبات المواطنين.

ويقوم "العلماء بتفسير القانون. وهو مجلس مكون من علماء الدين والذين يمثلون أعلى سلطة في المسائل القانونية.

ورئيس القضاة يكون المفتي الأكبر رئيس مجلس "العلماء" وهو أحد أبناء مؤسسي الفكرة الوهابية..

وهذا المجلس المحافظ للغاية يبخل بالاجتهاد في القرآن خاصة فيما يخص الأخلاق والآداب وشؤون الدين.

بعد ذلك استدعى دكتور كومبيتون "دلال أبو نصرة" محامي المستشفى.

كان جلال شاباً مصرياً موهوباً للغاية، وقد شرح لنا أن العلاج الخاطئ أو الإهمال الذي يؤدي إلى الموت أو العاهة المستديمة يعتبر جريمة مدنية.

ويبلغ قيمة التعويض (الدية) في حالة الوفاة أربعين ألف ريال طبقاً للمرسوم الملكي.

وفي حالة العاهة المستديمة أو فقد أحد الأطراف فإن التعويض يكون أقل من ذلك.

ثم اضاف جلال:

ويعتبر الإهمال أو العلاج الخاطئ فعلاً غير مقصود سببه نقص إجراءات الاحتياط أو التقصير أو التقدير الخاطئ.

كما يعاقب الطبيب ايضاً إذا قام بعلاج المريض بطريقة لا تقرها نقابة الأطباء أو إذا أخل بأحد واجباته بما يسبب الأضرار بمستوى نقابته أو شخصيتها الإسلامية.

وفي حالة إدانة الطبيب يطبق عليه القانون المدني في شكل دفع دية أو مغادرة البلاد أو توجيه اللوم أو الثلاثة معاً.

ثم استطرد جلال قائلاً: ولأن العرف قد جرى على طرد الأجانب من البلاد فإنه من مصلحة المستشفى ألاَّ يغادر الطبيب البلاد إلاَّ بعد استجوابه أمام لجنة تقصي حقائق مختلفة.فلا ينبغي أن ينظر إلى مغادرة البلاد على أنه إقرار بالخطأ.

ثم قال جلال: إن القاضي، الذي يعينه المفتي الاكبر كقاض إسلامي سوف يترأس المحكمة.

والقضاة علماء قانون إسلامي، تخرجوا في جامعة الشريعة والمعهد العالي للحقوق في الرياض.

وسال جورج: وكيف يتم اختيار المحلفين؟

فقال جلال: الشريعة لا تأخذ بنظام المحلفين فالقاضي هو قاضٍ ومحلف في نفس الوقت وتتلخص مهمته في كشف الحقيقة.

والمحامي وممثل النيابة ليسا خصمين للقاضي ولكنهما مساعدان له.

ويستطيع المتهم أن يستعين بالمساعدة القانونية، ولكن القاضي هو الذي يمسك بزمام الأمر.

وأنه هو أيضاً الذي يطرح الأسئلة ويستجوب الشهود.

فقلت: إذن يكون القاضي على نحوٍ ما قاضٍ ومحامٍ.

فقال جلال: إننا نبحث عن الحقيقة وليس عن تزيينها من خلال رجل قانون. وفي الغرب يتأثر المحلفون غالباً بالقدرة البلاغية للمحامين ويتأسس الحكم على المشاعر لا على الحقائق.

فقلت: وهل تفصل الشريعة في كل المنازعات.

ــ لا، توجد محاكم للمجالات المختلفة. وعلى سبيل المثال توجد محكمة لتسوية النزاعات التجارية. ولكن لابد أن يتفق قانون المهن مع قوانين الشريعة. وإذا تناقضا فإن الأولوية تصير للشريعة.

وتختص وزارة العمل بنزاعات العمل، حيث توجد محاكم عمالية خاصة للنظر بالنزاعات الاقتصادية.

ووزارة الصحة هي الجهة القانونية المختصة بالقضايا التي ترتبط بالطب الشرعي، كالحال في قضيتنا هذه.

ثم سألته: كيف يكون وضع قضايا القتل؟

ــ طبقاً للشريعة الإسلامية، فإن القتل لا يعتبر جريمة بتجاه المجتمع حيث تقتص الدولة من الجاني، بل جريمة ضد اسرة الضحية.

وتعترف الشريعة بحق أسرة الضحية في رفع قضية ضد المتهم.

ويجب إقامة الدليل على توافر ركن التعمد لدى المتهم حتى يدان بجريمة القتل، ويقوم ثلاثة قضاة على الأقل ببحث الحالة، وفي حالة إدانة المتهم فانه لابد أن يدفع الدية أو يعدم إذا طلب أهل الضحية أو يسجن ومن خلال ذلك يتم وقف النزاع بين العائلتين.

وعندما هممنا بالذهاب قلت لجلال: لقد أسديت لنا خدمة كبيرة ولنتقابل مساء الاثنين لنذهب سوياً إلى وزارة الصحة.

فقال جلال: فكرة طيبة، سأصطحب زابار وسابان مساء الأحد، ولكن هذه ستكون الجلسة التمهيدية للجلسة الرئيسية يوم الاثنين.

فدكتور زابار، طبيب الاستقلال، ودكتور سابان، الطبيب النوبتجي، يتحملان عموماً مسؤولية ضئيلة مباشرة هذا إن كانا مسؤولين على الإطلاق.

أحنى جورج رأسه صامتاً ثم ذهبنا.

بعد انتهاء الاجتماع قمت باستدعاء جورج روجزر وطلبت منه الحضور إلى مكتبي. فقد كنا صديقين وشعرت نحوه بالإلتزام لإعداده لتقبل أسوء الفروض.

وكان روجزر، القادم من "ليدز" طبيباً كفوءاً قد عمل في مستشفيات في نيجريا وأوغندا وإيران قبل أن يأتي إلى الرياض.

وكان في الخمسين من عمره، طويل القامة، نحيفا، ذا عيون عسلية، بينما كان شعره الأشيب قد أخذ في الصلع.

وأخبرته أن من الممكن أن يفصل من المستشفى ويضطر إلى مغادرة البلاد في خلال أسبوع بعد المحاكمة وقلت له: وبهذا لن يتبقى لك وقت طويل وينبغي أن تفكر من الآن في بيع سيارتك وشحن حاجياتك القيمة بالسفينة. ثم استطردت: ولكنه يوجد أيضاً خبر طيب: إذا تمت إدانتك فإن المستشفى ستقوم بدفع الدية وأخبرته عن عرض جلال للوضع أمام اللجنة الاستشارية الطبية قال جورج وقد بدا عليه الارتياح: لقد ظننت أنهم سيخصمون ذلك من مرتبي، ثم قال: وإذا عدنا إلى الوراء فسوف نجد أن المريضة قد قامت بتضليلي لما قالت إنها تريد العودة إلى المنزل ففي هذه اللحظة لم أكن أعرف أنها مصابة بالعدوى الخطرة. فخطر ببالي أنه من الجائز أنها كانت تريد العودة إلى المنزل لتموت هناك في هدوء فعلى ما يبدو يكون ذلك عادة متبعة هنا.

ثم قلت له: جلال وهيج كومبيتون وأنا سنصطحبك إلى المحكمة لرفع روحك المعنوية. وجلال على دراية كبيرة بالقانون ولقد ضربت لك معه موعداً للغد. فشكرني وذهب.

كنت حزيناً للوضع الذي وجد نفسه فيه وحزنت من أجله ومما لا شك فيه أنه وقع في خطأ عند تقديره لحالة المريضة الصحية وكذلك عند علاجه لها عشوائياً.

تقابلنا في السابعة من مساء الاثنين أمام المنضدة عند المدخل وأعلنت عن تطوعي بقيادة السيارة، فجلس جلال بجواري وجلس كل من هيج كومبيتون وجورج روجرز وتابيل، الطبيب الأول المعالج في المؤخرة. كنا كلنا منكسرين إلاَّ جلال الذي كان يتكلم بلا انقطاع.

وأخبرنا أن القضية بدأت في التاسعة من مساء أمس وقال: إن العجلة من الشيطان ونحن لا نلتزم أبداً بالمواعيد. وكنت قد سمعت بهذا المبدأ من قبل ــ ثم أضاف جلال وبخلاف القاضي كانت توجد لجنة من ثلاثة أطباء من كلية الطب بجامعة الرياض ونائب عن الوزير للطب الشرعي.

وفي البداية سأل القاضي المتهم وزوج المتوفاة ثم زابار وسابان.
وقد ركز سابان ــ الطبيب النوبتجي ــ ليعرف سبب تأخره في العناية بالمريضة.
فأخبره سابان بوجود صعوبة في التفاهم مع الممرضة المصرية بسبب اللغة وأنه كان متواجداً في الخدمة طول الليل ولكن أحداً لم يستدعه. ثم وضح الأطباء نظام الاستدعاء لطوارئ المعمول به في المستشفى. ولما أتمَّ زابار وسابان شهادتهما بقسم اليمنيين كمسلمين أنتهت القضية ببساطة ويسر. واختتمت في الحادية عشرة مساءْ.

****

بعد عشرين دقيقة كنا قد وصلنا إلى وزارة الصحة. وكانت تقع أمام فندق "الشرق" في الطريق المؤدي إلى المطار وقادنا جلال إلى ردهة في الطابق الثالث في قسم الطب الشرعي.
كانت ردهة متوسطة الحجم ذات إضاءة رديئة. وكان طلاؤها قد أخذ في السقوط، وظهرت الشقوق في الجدران وانتشرت علامة التهدم في كل مكان بالرغم من أن المبنى كان جديداً نسبياً. وتذكرت أن السعوديين لا يهتمون بصيانة المباني ويفضلون بناء مبان جديدة.
كان اثاث الحجرة قليلاً ولم يوضع على الجدران إلاَّ مطبوع باللغة العربية. وتحت المخطوط وجد شبه مكتب يعج بالكتب والأوراق. كان ذلك مكتب القاضي. وعلى بعد مترين تقريباً كانت توجد منضدة مستطيلة عمودية على مكتب القاضي.
وحول هذه المنضدة كانت هناك مقاعد ذات مساند وضعت في مواجهة القاضي. وفي الخلف كانت توجد عدة أرائك خشبية ومقاعد للجمهور. فيما عدا ذلك كانت الردهة جرداء وخالية.
كان الموعد الذي حدد للمحاكمة هو السابعة والنصف وفيما عدانا لم يكن قد حضر أحد.
قال جلال بينما كنا نأخذ أماكننا على الأرائك الصلبة لن تبدأ المحاكمة إلاَّ بعد ساعة، أي بعد صلاة العشاء.
ثم سالت جلال عن فحوى المخطوط العربي فأخبرني أنه يعني مساواة الجميع أمام القانون.
فقلت: إن هذا مبدأ ديمقراطي وأنا آمل أن يسري القانون على الجميع حقاً. فقال جلال مؤكداً: إنه كذلك فبعض قوانين الشريعة تشبه قوانينكم الغربية وبعضها الآخر يختلف عنها تماماً.
فطبقاً للشريعة الإسلامية يكون المتهم بريئاً حتى تثبت إدانته. ولا تعترف بقانون الكفالة. ففي الحالات التي تؤدي إلى القتل أو الإصابات الخطرة يُتحفظ عادة على المتهم في الحبس لمدة طويلة، غالباً ما تمتد حتى نظر القضية. والشرطة تقبل الضمان في حالات الجنح البسيطة.

ثم التفت إلى جورج وقال له متعاطفاً: في حالة النزاع بين المسلم وغير المسلم، يمنح صدقاً الأكبر للمسلم لأنه يقسم على القرآن قبل أن يدلي بشهادته. ففي المحاكم الإسلامية لا توجد أناجيل وهي تنظر إلى القسم بعين الجدية التامة.

فإذا رفض المسلم القسم على القرآن فإنه يكون بذلك قد عرض قضيته للخطر. وهي تقر أيضاً الاعتراف كدليل إدانة.

ويحتاج الإثبات إلى شهادة شخصين إلاَّ في حالة الزنا فيجب أن يكون هناك أربعة شهود عيان.

فسألت جلال: وأي حقوق تتمتع بها المرأة في محاكمكم؟ اعترت جلال الحيرة ثم قال: كنت أتمنى إلاَّ تسألني هذا السؤال. فالمرأة تعتبر بالنسبة للرجل نصف شاهد. كان جورج ينظر باستمرار إلى ساعته أثناء حديثنا وكانت عقارب الساعة تشير إلى الثامنة والنصف ولم يكن قد ظهر أحد بعد.

وقال جلال: إنهم سيأتون **الآن** وانا متأكد أننا سنبدأ قبل التاسعة.

بعد عشرين دقيقة دخل القاضي الردهة وفي صحبته رجل آخر حاملاً بعض الكتب، وشاب، قال عنه جلال أنه كاتب المحكمة.

كان القاضي يرتدي ملابس بيضاء عليها عباءة بيضاء مطرزة بالذهب يشير إلى منصبه الكبير. وكانت لحيته البيضاء تحيط بوجه طيب هادئ الملامح. جلس القاضي على المكتب وأخذ يقرا بعض الأوراق وضعها أمامه السكرتير الشاب، وعلى ما أظن كانت أقوال الشهود بالامس.

وبعد عدة دقائق دخل الآخرون الحجرة وجلسوا على المنضدة أمام القاضي فذهب جورج وتابيل إليهم. وأشار لنا جلال على المدعي الذي كان يجلس بجوار دكتور تابيل رجلاً قصيراً ممتلئ البدن ذا لحية سوداء وثوب غامق.

ولم يتطلب الأمر نظاماً خاصاً للجلوس فلم يكن هناك محامون أو ممثلون للادعاء. وتذكرت أن جلال قد قال لنا إن المتهمين والمدعين ليسوا خصوماً طبقاً للشريعة الإسلامية ولكنهم هنا لعرض الحقائق وقول الصدق.

بعد ذلك جلس جورج وتابيل والمدعي على طرف المنضدة بينما جلست لجنة الأطباء الثلاثة، الذين دخلوا معاً، على الطرف الآخر .

وفي النهاية ظهر نائب الوزير للطب الشرعي وأخذ مكانه على الطرف الأعلى للمنضدة.ثم وقف القاضي مفتتحاً الجلسة قائلاً: "بسم الله الرحمن الرحيم".

وبد ذلك طلب من المدعي أن يقسم على القرآن وأن يقول الحقيقة. وكذلك أقسم تابيل، اللبناني الأصل.

وطلب السكرتير الشاب، الذي كان يقف بجوار القاضي، من روجرز أن يرفع يده ليقسم ويقول الحقيقة ولكنه لم يوجد إنجيل ليقسم عليه.

سأل القاضي المدعي عن سبب طلبه الدية من هؤلاء الأطباء.

فقال المدعي بانفعال: إن زوجته كانت قد استطاعت أن تذهب إلى المستشفى على قدميها ولكنها في خلال ثماني ساعات ماتت. وإن دكتور رروجرز لم يهتم بها في خلال الثماني ساعات هذه إلاَّ مرة واحدة وإنه لم يكشف عليها طبيب آخر حتى تم استدعاء دكتور سابان قبل وفاتها بقليل فطلب القاضي من السكرتير أن يقرا بالإنجليزية شهادة دكتور سابان التي كان قد أدلى بها مساء أمس أمام المحكمة. وبواسطة المترجم أعلن لجورج أن الجميع هنا للبحث عن الحقيقة ثم سأله إن كان يقر أقوال المدعي وشهادة دكتور سابان أو ينفيها. فقال جورج إنه ليس لديه ما يقوله الآن بالنسبة لهذا الشأن.

قضى القاضي الساعتين التاليتين في سؤال روجرز وتابيل عن درجة الالتهاب الرئوي للمتوفاة والعلاج الذي قام به دكتور روجرز.

وكان القاضي يطرح كل الأسئلة بينما السكرتير يقوم بأعمال الترجمة.

أثناء ما كان السكرتير مشغولاً بتحرير القضية كان كل من القاضي ونائب الوزير يقومان بتسجيل الملاحظات طوال الجلسة. وبعد اتضاح درجة مرض المتوفاة، تركزت الأسئلة التالية على العلاج وعلى السبب الذي جعل دكتور روجرز يكشف على المريضة مرة واحدة فقط.

أما الأطباء الثلاثة فكانوا يتبادلون طرح الأسئلة الهامة لكي يستطيعوا من خلالها أن يثبتوا أن كان العلاج الذي قام به دكتور روجرز على الدرجة المناسبة ولماذا لم يقم هو وزملاؤه بالكشف على حالتها الصحية مرة أخرى أثناء إقامتها القصيرة في المستشفى.

وردد روجرز بأنه لم يقدر حدة المرض التقدير السليم ولأنه لم يسمع شيئاً من الممرضة فقد اعتقد أن حالتها مرضية.

فسأله أحد الأطباء: هل كان هذا تقديراً خاطئاً للحالة فرد دكتور روجرز بصوت خفيض: نعم.

وفي النهاية سأل القاضي دكتور وروجرز إن كانت لديه أقوال أخرى وعندما رد دكتور روجرز بالنفي، نظر إليه القاضي مباشرة في عينيه وسأله:

هل تعتقد أنها ستموت موتة ربها لو لم تعالج؟

فرد دكتور روجرز: نعم كان من المحتمل أنها ستموت على أي حال من الأحوال إذا أخذنا الحقيقة بعين الاعتبار أنها كانت سمينة للغاية وأن رئتها كانت مريضة جداً. وأن مرضها كان قد انتشر بسرعة كبيرة

استمع القاضي إلى الرد بانتباه ثم وقف وقال: مكتوب "يقصد به وقوع القدر: ولا إله إلاَّ الله. ثم رفعت الجلسة.

كنا قد صرنا في منتصف الليل. وفي طريق عودتنا لم نتبادل الكلام إلاَّ قليلاً، فكان كل منا غارقاً في أفكاره. وسألت جورج إن كان يجد أن المحاكمة كانت نزيهة. فقال إنه يجدها نزيهة باعتبار عوائق اللغة وإن كان الأطباء قد سألوه بعض الأسئلة العسيرة.

ثم قال هيج كمبيتون إنه طبقاً لخبرته وعلى حد رأي الجالية الأجنبية باسرها فإن القضاة السعوديين عادلون ولا يقبلون الرشوة ثم أضاف: حتى الاجانب يثقون في التحرر المبدئي من الانحياز في محاكم الشريعة الإسلامية.

فسال جورج: ومتى سنعرف النتيجة؟

فقال جلال: إن هذه القضايا تنجز بسرعة وسوف نعرف النتيجة خلال أسبوعين، وبعد أن يثبت القاضي الإدانة من عدمها وكذلك الحق في التعويض، يحاول أن يتوصل إلى تقدير عادل للتعويض يقبله الطرفان، أو إصدار حكمه، وهو يستعمل في ذلك مراجع عن الحالات السابقة، والتي تحتوي على الحالة والمبادئ القانونية الصادرة من محاكم الشريعة.

وسف يأخذ القاضي في اعتباره وجهة النظر التي توصلت إليها لجنة الأطباء التي قامت بسؤال روجرز. وفي النهاية، قبل أن يصدر حكمه فإنه سوف يقوم بمداولة الحكم مع نائب الوزير الذي حضر الجلسة، ومع رئيس مدير قسم الطب الشرعي، وفي الحفلات الهامة يقوم القاضي بالتوجيه على العقوبة ولكنه لا يصدر الحكم منفرداً فترسل كل المستندات الخاصة بالموضوع إلى أمير الإقليم أو إلى الحاكم المختص بشؤون المدينة أو المحافظة والذي غالباً ما يكون أحد الأمراء. ثم يعلن الأمير الحكم بعد موافقة واستشارة علماء الإقليم.

سال جورج: ألا يوجد حق الاستئناف؟

فرد جلال: إن محاكم الاستئناف تبحث تلقائياً كل الأوضاع القانونية في الشريعة التي تتعلق بالعقوبات الشديدة وتوجد فرصة أخرى وهو أنك تستطيع أن تستأنف الحكم لدى المحكمة العليا وهي أعلى محكمة في المملكة.

وكان الرأي النهائي هو أن الأطباء المعالجين لم يتعرفوا في الوقت المناسب على نوع المرض المفاجئ. وأنهم لم يقوموا بعلاجها بالعلاج المناسب.

ويرجع الأمر كله إلى سلسلة مأساوية من الاخطاء في التقدير والصدف السيئة.

وليس من الإنصاف تحميل شخص واحد وزر هذا الإهمال. وقد أنهى الطبيب العربي، الذي كتب التقرير، التقرير بهذه الكلمات:

"كما توصلت اللجنة، بعد التفكير العميق، إلى أنه بغض النظر عن العلاج فإنه لم يصب المريضة إلاَّ ما كتبه الله عليها".

***

ولابد أن أقر أنني كنت أحس في اعماقي بأن المريضة كانت ستموت على كل حال، بالرغم من أنني لم أكن أفكر بالطريقة الإسلامية أي أن القضاء لا رد له.

***

قام دكتور هيج كومبيتون، قبل أيام من نظر القضية، بدعوة اللجنة الطبية الاستشارية إلى اجتماع غير عادي. ثم قام بطرح تقرير لجنة المراجعة الطبية علينا وكذلك الأقوال الكاملة للشهود الذين اشتركوا في علاج المريضة المتوفاة.

وقد أكد هيج على سرية هذه التقارير وكل الأمور التي ستناقش في هذا الاجتماع.

وبعد الشد والجذب أقرَّت وجهة نظر لجنة المراجعة الطبية القائلة أن الوفاة لم تنتج عن إهمال وإنما عن تقصير في العلاج المناسب بسبب التقدير الخاطئ للدكتور روجرز.

بعد أسبوعين قام هيج كومبيتون باستدعائنا أنا وجورج روجرز إلى مكتبه وقال: موجهاً الحديث إلى جورج: اخبار سيئة، لقد وصلنا تلكس في التو من مدير قسم الطب الشرعي ومن وزير الصحة يبلغنا أنه يثبت إدانة دكتور جورج روجرز في قضية "تادرا زاكي شيبات جاشين" وهما يطلبان دفع دية مقدارها أربعون ألف ريال وكذلك مغادرة دكتور روجرز للبلاد في خلال أربعة عشر يوماً.

وقد أرسل هذا التلكس صباح اليوم التالي إلى مدير مستشفى الملك فيصل.

ثم اضاف هيج: يؤسفني ذلك، سوف تقوم المستشفى بدفع الدية وسوف نحصل لك على تأشيرة مغادرة البلاد وسنقدم لك المساعدة في حدود إمكانياتنا.

كان رد فعل روجرز هادئاً وقال: لقد توقعت ذلك وقمت ببيع سيارتي وأرسلت بعض حاجياتي إلى إنجلترا .

الفصْل السّابع عشر

لقاء في الصحراء

الحمد لله اليوم هو "يوم الخميس"، كان هذا الهتاف يدوي كل يوم خميس في ممرات المستشفى. فيوم الجمعة هو يوم الإجازة الوحيد في السعودية بعد ستة أيام عمل تستمر طويلاً حتى نصل ليوم الإجازة الذي يمر بسرعة شديدة..

ولقد احتجت لفترة من الزمن حتى أعتاد على أن أعمل أيام السبت والأحد كنت كثيراً ما أفقد كل أحساس بالزمن.

وبالرغم من عدم وجود الضغوط علينا مثل ما كان في الولايات المتحدة إلا أننا جميعاً كنا نشعر بأن الأسبوع طويل فكنا نستغل الأربعة والعشرين ساعة عطلة على قدر المستطاع.

ويقضي السعوديون يوم الجمعة كما يقضي كثير من المسيحيين يوم الاحد فالرجال، بملابسهم التي تليق بيوم الجمعة، الثوب الأبيض وغطاء الرأس الأبيض يذهبون لصلاة الجمعة في المساجد ويقضون بقية اليوم في البيت مع ذويهم واصدقائهم أما النساء فيصلين عادة في المنازل.

وفي العصر يقوم بعض الرجال بأخذ زوجاتهم وأولادهم للنزهة.

وتبقى النساء أثناء الرحلات مرتدية الحجاب كما يجلسن في مؤخرة السيارات حتى لا يراهن أحد.

أما الجالية الأميركية والإنجليزية فكانت تقضي يوم الجمعة إما بالاستجمام من حفلات يوم الخميس أو بالقيام برحلة قصيرة إلى الصحراء التي يتوقف فيها الزمن للتتلاشى الفروق بين الحضارات.

وفي يوم جمعة كنت أنا وفيليب وستبروك على استعداد نفسي للقيام بأي شيء ولأن زوجتينا كانتا في إجازة في إنجلترا فقد قررنا أن نقوم بسيارة فيليب اللندروفر قوية الاحتمال والمجهزة للإستعمال في الصحراء برحلة للمناطق الوعرة.

واصطحبنا معنا عبد الطاليم، طالب الطب، ونزار، بدوي يعمل في حراسة المستشفى كنت ارتبطت به بصداقة. وأخذنا معنا ماء كافياً وحقيبة طعام واتخذنا الطريق المؤدي إلى مكة.

جلست مع فيليب في المقدمة حيث كان يقود كالمألوف بسرعة خطرة، بينما جلس عبد الطاليم

ونزار في المقعد الخلفي، وكان فيليب يرتدي قفازاً حتى لا يحرق يديه من عجلة القيادة، التي كانت تبدو وكأنها تخزن حرارة الشمس.

انحنى عبد الطاليم للأمام وقال: ان هذا الطريق يؤدي إلى الجنوب الغربي حيث مكة ثم جدة على البحر الأحمر، وكل المسافة تبلغ ألف كيلو متر وأضاف نزار: إن المرور هنا مزدحم أثناء أوقات الحج. ثم وضح قائلاً:

إن الحج[17] رحلة من خمسة أيام، يفرض على المسلم القيام بها مرة واحدة في حياته على الأقل، وتشكل أحد اركان الإسلام الخمسة. وفي كل عام يأتي إلى السعودية أثنين مليون مسلم من كل صوب وحدب للحج إلى الأماكن المقدسة مكة والمدينة. ويأتون بالحافلات أو بالسيارات أو بالطائرات أو بالجمال أو سيراً على الأقدام.

وتمتلئ المطارات عن آخرها، وهذا الطريق ــ وأشار إلى الطريق المؤدي إلى مكة الخالي الممتد أمام اللاندروفر ــ يمتلئ بالحجاج وسيارات مختلفة وعربات نقل تحمل على ظهرها أمتعة الحجاج.

ثم قال عبد الطاليم: تؤدى مناسك الحج هذا العام فيما بين الحادي عشر والخامس عشر من ديسمبر وتتم الطقوس الرسمية فيما بين 8 و19 ديسمبر ولكن الحج في هذا البلد يحمل أكثر من معناه. إنه ملحمة تاريخية، عطلة لجموع الناس، رمز سياسي، أسلوب فكري. وبديهي أن يذيع التليفزيون مراسم الحج ليتابعه بحماس ملايين البشر في العالم الإسلامي.

والحج يشكل بالنسبة للسعودي رمزاً لأهمية بلده.

ويستطرد عبد الطاليم: ويرتدي الحجاج زيهم الأبيض، فالرجل يرتدي الإحرام الذي يتكون من إزارين كبيرين غير مخاطين، يلف أحدهما على الوسط والأخر على الكتف. أما المرأة فترتدي ثوباً جديداً أبيضاً وجوراب وأحذية بيضاء، وتغطي رأسها بطرحتين. واحدة صغيرة مستطيلة تخفي شعرها (فلا يجب أن تظهر منهن شعرة واحدة) وطرحة أكبر تغطي الرأس والوجه. ولا يظهر من أعضاء جسم النساء إلا اليدين والقدمين.

وتبذل الحكومة كل جهدها لمساعدة الحجاج فقد قامت ببناء معسكر للحجاج خارج الرياض على الطريق المؤدي إلى الظهران، وهو عبارة عن مدينة خيام مخصصة لإقامة جزء من الحجاج الذين ينشدون الراحة لعدة أيام من عناء الرحلة الطويلة الشاقة إلى مكة. ولتغطية مصاريف

---

[17] كان عدد الحجاج في عام 1933: 25291 حاجاً ثم وصل إلى أكثر من 50 ألف حاج في عام 1937 ثم تجاوز المائة ألف اج عام 1949. وبلغ عدد الحجاج في عام 1972 أكثر من نصف مليون (المترجم).

الرحلة فإن كثيرين منهم يصطحبون معهم سجاداً منسوجاً باليد من إيران وأفغانستان وبلاد أخرى، يحاولون بيعه في الطريق.

ولكننا أثناء رحلتنا الإستكشافية لم نر تقريباً أي سيارة أخرى في الطريق المؤدي إلى مكة غير سيارتنا.

ولما قطعنا ثمانية أميال تقريباً من الرياض في اتجاه الجنوب الغربي من الطريق الإسفلتي مررنا بمستعمرة قديمة تتكون من حوالي خمسة عشر منزلاً مبنية بالطوب اللبن تتكون معظمها من طابق واحد واسقف عريضة، غلباً ما تتناول العائلة تحتها طعام العشاء. وفي أعلاها توجد فتحات مثلثة أو مستديرة تستعمل كنوافذ لإدخال الهواء. وعلى بعد دقائق قليلة من المستعمرة عثرنا على مجموعة من بيوت ريفية متشابهة تماماً كانت تقوم على تل عالٍ يميناً وكانت تتوهج بياضاً في الشمس.

أما الأعمدة والأسقف الحمراء فكانت متشابهة تماماً.

قال عبد الطاليم: إنها بيوت ريفية لأحد التجار الأثرياء، وعندما يرى الناس هذه البيوت يدركون أنهم على الطريق المؤدي لمكة.

وهي تمثل علامة طريق مميزة منذ سنتين.

ثم عبرنا كوبريا على مجرى نهر جاف وسرنا على امتداد أحد فروعه في اتجاه الجنوب الغربي.

وعلى بعد حوالي خمسة عشر كيلو متراً من ضواحي الرياض رأينا جبال الطوايق، كانت تبدو كسلسلة جدران صخرية منحدرة برزت فجأة من أرض الصحراء لتصل إلى ارتفاع يربو على ثلاثمائة متراً، وتمتد لكثر من حوالي ستمائة كيلو متراً من الشمال إلى الجنوب مروراً بمدينة الرياض.

لقد كان منظراً بديعاً....

قال عبد الطاليم: إن جبال الطوايق تغطيها طبقة جيرية ترسبت من أحد البحار الموغلة في القدم والتي كانت ذات يوم تغطي هذه المنطقة.

وهنا توجد محارات عمرها مائة وخمسون مليون سنة ولسوف ابحث لك عن إحداها.

إلتفت إليه مندهشاً وقلت: من أين لك كل هذه المعلومات؟

فقال مختالاً: لقد درست علم الجيولوجيا في جامعة الرياض، دعني أكمل محاضرتي.

إن الأساس الحجري للتلال المنحدرة يميل ناحية الشرق حيث انساب عليها المطر لتنشأ الوديان، والتي تجري تجاه الرياض، ونفس الأساس الحجري يمتد حتى المحافظة الشرقية والخليج العربي

حيث يزداد عمقاً واتساعاً كلما اقترب من الخليج. اما الطبقات السفلى، والتي تمت تحت الأرض لمئات الأمتار، فتحتوي على البترول.

إلتقط نزار طرف الحديث وحكى لنا عن كهف عميق من صنع الطبيعة موجود في جنوبي الرياض ويمر في قاعه نهر جوفي، ثم أضاف:

اخذ النهر يجرف في الصخر الجيري من مئات السنين حتى صنع هذا الكهف وهو يتغذى الآن من مياه الأمطار تنساب أمامنا على منحدرات الطوابق.

ويطلق البدو على عين الماء الطبيعية هذه اسم "عين حيت"ثم عرفت بعد ذلك أنها ساعدت الجيولوجيين الأمريكان في الكشف عن البتول. ولأننا لم نضع خطة معينة ولم نحدد مسارنا، بدا لنا التل المنحدر مكاناً مناسباً لنبدأ استطلاعاتنا فانحرف فيليب من الطريق ليشق طريقه متجهاً إلى التلال المنحدرة البارزة من الصحراء عالياً.

بعد قليل تركنا السيارة الاندروفر وأخذنا الزمزميات واتجهنا للبحث في سفح الخور الواقعة على بعد كيلومتر ونصف.

نزلنا من السيارة وأخذنا نتحرك صامتين تحت درجة حرارة بلغت الخمسين بينما كنت أشعر أنا بالرهبة تجاه هذا السكون وكأننا دخلنا المعبد. وقد كان السكون التام يحيط بنا. وعندما تقدمنا في الصحراء سيطر علي شعور بتوقف الزمن وكاننا انتقلنا إلى العصور الأولى.

أما فتنة المكان فكانت تكمن في هذه الخلوة وهذه الوحدة، في السمو الغريب للصحراء والتي تجعل المرء يسمع إلى نفسه وذاته.

مشينا ساعة متراخين صامتين على الرمال نزار وعبد الطاليم في المقدمة وفيليب وأنا نتبعهما، كانت السماء صافية وكانت الشمس حارقة قاسية. ومع أنني كنت قد تعودت على جو الصيف الخانق في بوسطن إلا أن الجو الساخن هنا جافاً كما لو كان الجحيم. وحالما كان العرق يخرج من المسام كان سرعان ما يتبخر، وبدا القيظ وكأنه يتأجج من داخلنا. أما الصوت الوحيد فكان صادراً من احتكاك أحذيتنا الجلدية السميكة بالرمال. كان الأفق يتألق وكانت كل وهدة تومض وكأنها ماء رقراق.

فصرخ نزار: إنه السراب.

وفجأة أحسست أنني أصابني مكروه وشعرت أنني ان لم أبعد عن الشمس قتلت لا محالة فتوقفت عن المسير لأدور بعيني في كل اتجاه باحثاً عن ملاذ ولكن هيهات أن تجد مكاناً ظليلاً هنا ولم أستطع أن أرى سيارة فيليب. فلما أدركني القنوط ناديت نزار ولما ألتفت إلي منزعجاً سألته متضرعاً: الا ترى أي بقعة ظل فالشمس ستقضي علينا ولا أعتقد أنني أستطيع أن أكمل المسير.

جرى نزار نحوي وقد علت وجهه علامات الاضطراب ووضع "الغطرة" فوق عينيه ليستطيع النظر إلى السماء فالبرغم من الضوء الباهر لم يكن يضع نظارة على عينيه، ثم قال لي وهو يشير بعصاه تجاه الأفق: إنك سعيد الطالع، فإنني أعتقد أنني أرى بعض الأحجار على بعد كيلو متر واحد ومن الممكن أن منحنا شيئاً من الظل فسيارتنا بعيدة جداً. نظرت في الاتجاه الذي اشار إليه ولم ار غير الصحراء، لم أستطع رؤية شيء غير ذلك سيان بالنظارة أو بدونها.

وبينما كنت أقترب منه ومن عبد الطاليم قلت له: أنا لا أستطيع رؤية هذه الاحجار. اما فيليب الواقف بجواري فكان يهز رأسه مؤكداً كلامي بينما كان يتنفس بصعوبة

فقال نزار مبتسماً: أنت بحاجة إلى شيء من الدماء البدوية يا دكتور جراي. ولما تبعناه عثرنا فعلاً على كومة حجارة غير مرتبة يبلغ أرتفاعها نصف المتر. فقال نزار: هذا ليس كافياً وعلى ما أعتقد فان هذا شاهد قبر ولكنه سيمنحك شيئاً من الظل. ولأن الأقدار رحيمة بنا، كان هناك ظل يكفي رأسين يحتميان من الشمس.

ورأيت كم كان فيليب يحتاج إلى هذا الظل مثلي تماماً. فتمدد كلانا على الرمل الساخن وسندنا رأسينا على كومة الحجارة بينما كانت أرجلنا ما زالت في الشمس الحارقة.

وبينما كان الرمل تحتي يبرد شيئاً فشيئاً أخذ هلعي يتراجع. فشربنا الماء من زمزمية كانت معنا بينما كنت أسترجع أحداث أفلام الكاوبوي والمنظر المعتاد للزمزمية الفارغة. وكانت قطرات الماء هذه هي اعذب ماء شربته في حياتي.

بعد ذلك أعلن نزار وعبد الطاليم عن عزمهما على الذهاب للبحث عن حفريات ووعدانا بالعودة في خلال نصف ساعة.

حاولت تقدير زاوية شعاع الشمس وقلت: وماذا نفعل لما يختفي الظل؟ نظر نزار إلى السماء وهو يضيق عينيه ثم قال وهو يطمئنني: سيبقى الظل حتى نعود. فنظرنا اليهما وهما يبتعدان، يلوحان بالأيدي ويتحدثان كما لو كانا يتنزهان في شوارع نيويورك.

بعد أن ذهب اعترف فيليب هو ايضاً كان على وشك أن يصاب بالفزع. وقال لي: الحمد لله إنك قلت شيئاً. ثم مسح بكمه على جبهته وقال: لقد قمت برحلات كثيرة في الصحراء ولم أواجه أي صعوبة، ولكن درجة الحرارة لم تكن قط مرتفعة مثل هذا اليوم، ولما تعيش هنا مدة أطول ستعرف أن الناس في هذا الجزء من العالم لا يكتسبون البشرة السمراء، فبشرتهم تحترق ربما بسبب الشمس القوية والهواء الجاف. واثناء انتظارنا لعودة أصدقائنا مر بنا على بعد مائة متراً بدوي عجوز يرعى قطيعاً صغيراً من الإبل ثم توقف ليعرف إن كنا على قيد الحياة وإن كان حالنا على ما يرام، فاطمأن لما رآنا نعتدل ونلوح له بأيدينا، ومضى في طريقه.

بعد قليل كان نزار وعبد الطاليم قد رجعا ومدا لنا أيديهم ببعض من الحفريات المحارية. كان لونها رمادياً وكانت مغطاة بنقش على شكل ريش لهياكل كائنات حية قديمة جداً.
وبعد أن أعادت الراحة في الظل قوانا إلينا، ورجعنا إلى السيارة اللاندروفر وجلسنا في ظلها الممتد ثم أخذنا في تناول الطعام الذي كان يتكون من الفاكهة والجبن، بينما كان أحد العرب يمر امامنا ممتطياً حماراً وكانت قدماه تكادان تلمسا الأرض. فأخبرنا عبد الطاليم باحتمال أن يكون العربي في طريق عودته إلى مخيم قريب.
وفي طريق العودة المؤدي إلى مكة رأينا عربة نقل صغيرة ماركة تويوتا واقفة بجوار الطريق. وكان يجلس على ظهرها جملان ينظران بخيلاء إلى الصحراء من تحت رموشهما الطويلة. أما سائق العربة البدوي فكان قد اختفى. وأما أنا فلن أنسى أبداً هذا المنظر، "فحتى الجمال استفادت من تقدم القرن العشرين" بعد عدة دقائق قللنا من السرعة لأننا كنا نمر بمجموعة من البيوت الطينية والخيام.
وجرى الينا خمسة عشرة أو عشرون طفلاً، تتطاير ثيابهم في الهواء، وكانوا يشيرون لنا بايديهم أن ننحرف وندخل قريتهم. كانوا يضحكون ويثرثرون ويقفزون بفرح حول سيارتنا وكان بعضهم يمد يده لكي يمنعنا من المرور ويتوسل الينا أن نتوقف ونزورهم.
فقال عبد الطاليم: إنهم يعتقدون أننا كلنا أجانب بسبب ملابسنا.
فقد كان هو ونزار يرتديان بنطلونين من الجنز وقميصين من القطن البني الفاتح وأحذية ثقيلة. وعندما هبطنا من السيارة كانت الفتيات قد اختفت أما الأولاد فقد تحلقوا حولنا ليدلونا على الطريق المؤدي إلى خيمة كبيرة.
وفي الطريق إلى الخيمة عثرنا على سيارة نقل فقادنا فضولنا إلى مؤخرتها ننظر ما بها. وفي الحال كان الأولاد يكونون خط دفاع أمام المدخل المسدل عليه الستار. وهم يصرخون "لا، لا". أما نزار وعبد الطاليم فكانا متعجبين إلى الأولاد وهم يوضحون لهما أنه محرم علينا النظر إلى الداخل. ولكني بالفعل كنت قد نظرت خلسة لأرى نساء يرتدين الحجاب الأسود ويجلسن في العربة يفرغن البازيلاء ويقطعن البصل والطماطم.
في الخيمة كان يقبع كبير العائلة واضعاً ساقيه تحته جالساً على سجادة قديمة باهتة اللون مدخناً النارجيلة بينما كان شاب في حوالي الثانية والعشرين من عمره يتجه إليه.
وقبل أن نستطيع النطق بكلمة كان الشاب يقول للعجوز: "طبيب مستشفى الملك فيصل" تعجبت جداً لهذا الامر. فهنا في قلب الصحراء وفي معسكر صغير للبدو وبدون حتى أن نكشف عن شخصيتنا، كان هناك من يعرفني.

وفي هذه اللحظة ظهر عند مدخل الخيمة رجل في متوسط العمر له لحية يخالطها الشيب ويرتدي "عباءة" ناصعة البياض وغطاء رأس وتقدم إلينا ومد يده تجاهي ليصافحني.
عرفت فيه على الفور أحد نزلاء العيادة الخارجية والذي عالجته ذات يوم، من ارتفاع ضغط الدم. وكان قد أتى لتوه من الجامع وأخبر ابنه الشاب، بهويتنا. كان اسم المريض الذي عالجته "حسين لطيف". بعد أن قدمت أصدقائي جلسنا على بعض الوسائد الكبيرة وكالعادة وجدت صعوبة في وضع ساقي تحتي. وقال حسين لنزار وعبد الطاليم أنه سيسره أن يقومان بالترجمة لانه لا يعرف الإنجليزية. ثم قام بعض أبناء العائلة الصغار بتقديم القهوة ثم الشاي الحلو ثم أحضروا لنا صحاف التمر يحوم عليه الذباب، ولكنه كان ذا مذاق طيب. ولقد اعتدت على أن أهش الذباب قبل أن آكل.
ثم دعانا حسين للطعام ولكننا رفضنا وقلت له: لقد أكلنا منذ قليل ونود أن نعود إلى الرياض قبل أن يهبط الظلام. فقال لي بينما كان ينظر الي طالباً الموافقة: إذن فلا بد أن تأتي واصدقائك لتناول الطعام معنا يوم الجمعة القادم. فشكرته وقلت له إننا سوف، نأتي بسرور.
وبعد ان دفعنا دفعاً لكل المزيد من التمر وقف حسين وأشار بيده أن نتبعه فغادرنا الخيمة وذهبنا إلى حقل مرعى تبلغ مساحته فدانين ويحيط به النخيل ويروى من خلال شبكة قنوات دقيقة.
وكان هناك بدوي حافي القدمين يحفر قناة فرعية جديدة وكان يحول إتجاه الماء بأن يجرف الطين إلى إحدى القنوات ويقيم بذلك سداً جديداً.
وقد أوضح لنا حسين أن البرسيم يزرع طوال السنة ويستخدم كعلف للحيوان وفي النهاية قادنا إلى بئر إرتوازي، كان أبوه قد حفره من سنين وكانت طلمبة تدار بالبنزين تضخ الماء وقد أخبرنا حسين مباهياً أنه يوجد العديد من مثل هذه الآبار في هذه الواحة ولكن لا يوجد من لديه أكبر من بئره هذا. وعلى مقربة من هذا المكان كانت توجد منازل طينية تتكون من طابق واحد، قد بنيت من سنوات طويلة، وبجوارها حظائر الماشية.
كان كل منزل يلتصق بالآخر لكي تشكل واجهات المنازل خط دفاع ضد اللصوص من البدو.
في هذه اللحظة اتضح لي أنهم لم يكونوا ليرحبوا بنا قبل وقت ليس بالبعيد، ولكنهم كانوا سيقتلوننا معتبرين أننا غزاة غير مرغوب فيهم.
كان أغلب أهل القرية ينتمي إلى عائلة حسين، رعاة غير مقيمين وكانوا يقضون وقت الجفاف كل سنة في هذه الواحة ثم يمضون بقطعانهم في طلب المرعى أعلى السهل في أواخر الشتاء وفي الربيع. ثم رأينا بدوياً شاباً وهو يرعى بقرات بائسة حدباء إلى إحدى الحظائر بينما كان يطرد الدجاج من أمامها. وعلى بعد منها كانت جمال ترعى هنا وهناك وعلى مقربة كان يوجد

قطعان من الغنم والماعز، ترعى على الحشيش القليل. وقد أخبرنا حسين أن الأغنام تمد السعودية بالجزء الأكبر من اللحم واللبن والجبن واللبنة.
ولا تعطي هذه الأغنام صوفاً وإنما "شعراً" قال حسين هذا وخلل أصابعه بين فرو واحدة منها ثم أضاف: ونحن نستخدم وبرها في نسج الأغطية والملابس.
فسألته: وماذا عن الماعز؟
ــ نشرب لبنها ونصنع من وبرها السجاد والخيام. وكانت الخيمة التي كنا نجلس فيها مصنوعة من وبر الماعز. وعند ذهابنا استطعنا أن نسمع إيقاع ضخ الطلبمات والتي كانت في قلب الصحراء النابض.
قطعنا طريق عودتنا إلى الرياض ببطء كما لو كان جمال الصحراء حولنا قد سلبنا إرادتنا، كانت الصحراء تبدو صحراء كالدم أو صفراء كالذهب عندما كانت الشمس تغطس في الأفق. كانت المنحدرات تبرق بلون أرجواني وترمي على المدى البعيد أمواجاً من الظل، ذي طبقات من الألوان لا نهاية لها، على السهل الواقع عند سفوحها: برتقالية، طوبية، بنية غامقة، وردية، رمادية.
وفي يوم الجمعة التالي وفقاً للميعاد جاء فيليب اليّ في منزلي في بترومين ليقلني بسيارته اللاندروفر. ثم ذهبنا نحن الإثنان إلى عبد الطاليم ونزار.
وكنت قد قضيت ليلتي مؤرقاً بلا نور وبالطبع أيضاً بلا جهاز التكييف وفي هذه اللحظة كنت على استعداد أن أتنازل عن كل شيء مقابل يوم على شاطئ البحر، بدلاً من هذه الصحراء الحارة. ولكن الماء لا يوجد في محيط مئات من الكيلو مترات. على الأقل كانت فرصة لأهجر منزلي الخانق.
وبكل همة وتوثب اندفع فيليب يقود السيارة بسرعته المجنونة المألوفة حتى وصلنا إلى الصحراء حث خفض من سرعته حتى نستطيع التمتع بالجمال حولنا. قال نزار: في كل مرة تتخذ الصحراء شكلاً آخر، وهي تتغير بتغير الضوء والوقت.
وبفضل حاسة فيليب للاهتداء والتي لا تخطئ استطعنا أن نعثر على القرية بلا عناء. ولما دخلنا القرية أخذ الأطفال يحيونا بصيحاتهم العالية وأخذوا يجرون بجوار سيارتنا.
أما حسين،المريض الذي عالجته، فأخذنا في أحضانه كما لو كنا أصدقاء عمر، ووضع يديه فوق أكتافنا وضمنا إليه.
ثم قال بالعربية "أهلاً وسهلاً"، إنني سعيد لرؤيتكم ثانية.

وقد كان نزار وعبد الطاليم يتبادلان الترجمة بينما كان حسين يقوم بتعريفنا برجال قريته، وكان معظمهم من عائلته وكعادة البدو ظهر الجميع كوحدة واحدة.

وقد تجمع عشرون رجلاً تقريباً حول سلسلة من سيارات النقل المهلهلة، أما النساء فكان لا وجود لهن فتذكرت أحداث الأسبوع الماضي وخمنت أن النساء تكمن في مؤخرة عربات النقل: "كيف يستطعن تحمل حرارة الجو في مثل هذا السجن".

أخبرنا حسين أنه رتب حفل غداء في الصحراء على بعد عدة كيلو مترا. انضممنا إلى قافلة من سيارات النقل والجمال والحمير ومضينا نقطع خمسة عشر كيلو متراً في الصحراء لنصل إلى واحة صغيرة ذات نخيل وعشب اصفر شعث.

ثم وقفت السيارات على شكل دائرة لتقينا حر الشمس.

ثم وضع سجاد الطعام على الفور: فأمسك رجلان بحمل وذبحاه ثم علقاه مقلوباً على مؤخرة سيارة نقل.ثم قاما بقطع الفرو عند قدميه الخلفيتين وسحباه باتجاه رأسه ثم رميا به في الصحراء ليبعدوا به الذباب عن جسم الحمل. ثم قاما بتنظيفه بمدى حادة بسرعة ومهارة وقسموه وقطعوه بخبرة واصبح جاهزاً للطهي. وقام آخرون ــ على بعد من دائرتنا ــ بإعداد كومة حطب ثم وضعوا أجزاء الحمل في الأسياخ ليشووها على النار.

أثناء ذلك كان الغلمان يوقدون ناراً ليغلوا عليها ماء للشاي وقاموا بوضع أجزاء من الحمل في وعاء أسود موضوعاً على ثلاثة أثافي ليطهوه.

أما الصبية فقد أحضروا لنا فاكهة ولوزاً وتمراً بينما كنا نحن جالسين. وكنت أنا قد أخذت وضعاً يتناسب مع هذه المواقف، فاستندت على جانبي، مثلما تعلمت في وليمة زواج سلطانة، بينما كان عبد الطاليم ونزار يضحكان من لخمتي. فقال فيليب: هل رأيت أن الإنجليز أكثر مرونة من الأمريكيين. فنظر عبد الطاليم إلى عجوز جداً وضع قدميه تحته ببساطة متناهية وقال: أما العرب فهم الأكثر مرونة على الاطلاق. بعد ذلك أحضر لنا الصبية قهوة بالحبهان ونعناعاً حلواً.

وكانوا يعدون القهوة بأن يقوموا بتحميص حبات البن ثم يطحنونها ويضعونها في ماء يغلي ثم يضيفون إليها شيئاً من الحبهان المسحوق ثم يصبونها في إناء أصفر ويضعون المصفاة على البزبوز، التي لم تكن إلا قطعة من ليف نخيل. والقهوة السادة بالحبهان تقدم ساخنة في أقداح بدون آذان حتى ولو كانت درجة الحرارة في الصحراء تبلغ الستين.

أما التمر فكان له مذاق طيب للغاية.

ذكرت نزار باليوم الذي التقينا فيه لأول مرة لم يكن قد مضى على وصولي إلا فترة قصيرة وكنت مسحوراً بالنخيل الموجود على مقربة من كشك بوابة المستشفى، حيث كان نزار يقوم بالخدمة. وبعد أن أجاب نزار على أسئلتي المختلفة: متى يجمع التمر، وكم مرة.. إلخ قام بخلع حذائه وأخذ كيساً من الورق وتسلق النخلة، وبعد عشر دقائق كان ينزل بالكيس ممتلئاً بالتمر الذي كان حلواً وغضاً. واحتفظت به أسبوعاً كاملاً في الثلاجة، لا أريه لأحد.

ومنذ هذه اللحظة انعقدت أواصر الصداقة بيني وبين نزار.

سألني حسين إن كنا نريد تجربة لبن الإبل إلا أنه نصحنا بشرب القليل منه لانه دسم للغاية وقد لا نتحمله.

فذهبنا إلى الأبل وقام حسين بجلب إحداها فتدفق اللبن الأبيض في السلطانية. وكان دافئاً ودسماً جداً وكانت له رغوة.

وعلى ما أظن فإن نسبة الدسم العالية جعلت طعم اللبن غريباً. فابتلعته والغصة تكاد تقتلني.

وعندما رجعنا كان رجال يحملون صوان كبيرة عليها قطع من الطماطم والجزر والبصل، أتوا بها من داخل سيارات النقل ليضيفوها إلى لحم الضان الذي كانوا يطهونه ببطء على النار.

والظاهر أن النساء كن يجهزن الطعام في الخفاء كيوم الجمعة الماضي "وها هو الوقت يمضي سريعاً".

أثناء ما كنا نتحدث ونمشي في الواحة لاحظت أنا وفيليب أن نظرات ثاقبة تراقبنا. فالبدو يراقبوننا أيضاً باهتمام مثلما نفعل نحن بهم.

فقال عبد الطاليم منشرحاً: كثير منهم لم ير في حياته أي أجنبي، إنهم فضوليون وربما تبدوان لهم أكثر غرابة مما يبدون لكما.

كانت ألوان كاروه "الغطرة" الحمراء والثياب الرمادية والسجاد المزركش على النقيض التام من اللون الأصفر الوحيد للرمل حولنا. أما سيارات النقل فكانت تنسجم مع الصورة الطبيعية.

وفي النهاية استلقينا في دائرة كبيرة على السجاد فخلع الرجال نعالهم وجلسوا واضعين سيقانهم تحتهم أو فوق بعضها البعض.

وعندما خلع حسين نعليه لاحظت وجود علامات حروق على كعبيه وقد أخبرني أن هذه الحروق قد شفته من الآم صداع كان أصيب بها.

فقلت: لابد أن يكون هذا قد لهاك عن الصداع.

فالصينيون يغرزون الإبر في المناطق المختلفة من الجسم، وهي طريقة أثبتت صلاحيتها في بعض الأحيان وهذا ما يسمى "العلاج بالإبر".

وبينما كان عدة رجال يشاركون في الحديث كان نزار وعبد الطاليم يقومان بدور المترجم. فكل مرة يقول فيها فيليب أو أنا شيئاً كانت الرؤوس تتجه إليهما لتسمع الترجمة. وقد أخبرونا أن الحرق هو أحب طريقة لديهم للعلاج. فاللسع بالنار على البطن يبرئ من الإسهال وعلى الصدر من آلام والوضع والسعال وعلى الظهر من آلام الظهر.. إلخ. حتى الأطفال يتم لسعهم بالنار ليشفوا من المغص ونفس الطريقة تتبع أيضاً مع الإبل المريضة.

ذكرت حسين قائلاً: عندما جئت لي أول مرة كنت تشكو من الصداع ولكن لسعك بالنار على كعبيك لم يشفك من ضغط الدم المرتفع والذي كان السبب الأصلي في آلام الصداع.

فأقر حسين بأنه شعر بالتحسن منذ أن أخذ العلاج.

فقلت: إن ارتفاع الدم حالة نادرة في السعودية وربما نتج هذا عن قلة استخدام الملح في الطعام أو فقدان الملح من خلال تنفس البشرة.

فأضاف فيليب: إنهم لا يعانون أيضاً من التوتر مثلنا.

فقام اقارب حسين بالدفاع عنه بقوة وشهدوا بالشفاء الأكيد من خلال اللسع بالنار، الإنسان والحيوان على حد سواء.

فأخبرته بأن هذه الحروق تغطي أجساد كثير من المرضى في المستشفى. قال حسين محتفياً وكأنه يبوح لنا بسر عظيم: أما طريقة العلاج التالية فهي شرب بول الإبل خاصة في حالات آلام المعدة والأمعاء والبطن والإمساك، وهو يؤثر على نحو عظيم في غسيل العين والتئام الجروح.

فاقتربت من فيليب وقلت له بصوت خفي خفيض: قد يكون ذلك صحيحاً، فالبولينا تحتوي على مواد مطهرة ولكن على حد معرفتي فإن لبول الأبل نفس تأثير بول الإنسان.

بدا على فيليب عدم الإقتناع حتى بعد أن أضاف حسين: إن لبول الأبل أثر عظيم إذا أستخدم كمقو للصحة أو في غسل الشعر أو ضد القمل فهو يقتله في الحال.

فأسرع أحد أقارب حسين للشهادة واشار إلى رأسه وأخذ يطاطئها في حماس.

أما سؤالي التالي فكان عن الختان لأنني أكتشفت أن بعض مرضاي عانوا من نتائج مؤسفة للختن. فأخبرنا حسين أن الختان يجرى للصبية فيما بين الثالثة والنصف والسابعة من عمرهم. كما أن الأسرة تحتفل بيوم الختان فتمد الولائم للاحتفال بحقيقة أن الصبي صار مسلماً صحيحاً.

ثم أضاف: في العادة يجري الختان في شهر يوليو عندما تهب الريح الشمالية الغربية الجافة فتساعد في سرعة التئام الجرح. وفي المناطق يستمر الاحتفال بهذه المناسبة لمدة أسبوع بلا إنقطاع. وفي المساء ترقص الفتيات والنساء. وبالطبع يذهب الرجال للإحتفال في مكان آخر.

وفي اليوم الثامن تجتمع العائلة ويقوم أحد الأشخاص المجربين بفعل قلفة الطفل بموس أو بمدية حادة. ويلتئم الجرح في خلال أسبوع أو عشرة أيام وهو يتعرض في بعض الأحيان للعدوى التي تنتج عن التقصير في النظافة والذباب فسالت منزعجاً: وكيف يتم علاج العدوى؟

فقال حسين: بمزيج من الملح والرماد وزبل الجمال. ولكن السعوديين الأثرياء يذهبون الآن بأطفالهم إلى الطبيب ليقوم بختانهم.

ولكني استطعت أن ألمح أن أقارب حسين لا يهتمون بهذه الأمور.

أما عبد الطاليم فأضاف: إن القبائل كانت تقوم في الماضي بختن بناتها حتى تحرمن الإثارة الجنسية لديها. وكانت النساء ــ اللاتي يقمن بهذه العملية ــ يدخلن إبرة بها خيط في البظر ثم يشدونه بالخيط وينزعونه من الجسد.

أخبرت حسين بإندهاش بوجود الكثير من البدو في المستشفى بغية العلاج، ثم سألته: هل تعتقد أن الطبيب يستطيع إنقاذ حياة إنسان مريض جداً؟

فأجاب حسين في حماس: لا ابداً. فالله فقط هو الذي يستطيع إنقاذ حياة الإنسان. فإذا دنا أجله فلا بد أن يموت كما هو مكتوب عليه فسأل فيليب إن كان أي من أقربائه قد ذهب إلى المستشفى يوماً ما .

وبعد أن ترجم نزار السؤال بدأ الجميع في هز رؤوسهم بإصرار.

فلم يكن هناك من رأى طبيباً قبل ذلك فيما عدا حسين والذي يعتقد أقاربه أنه مختلف عنهم. ثم قال عبد الطاليم عن القرى، حث المؤمنين على المحافظة على صحتهم. وهو لا يمانع في زيارة الإطباء على الإطلاق .

ثم أضاف: لم يكن هناك في السعودية لعهد قريب اطباء اللهم إلا عدد قليل من الأطباء من مصر وإيران وحتى هؤلاء لم يكونوا مختصين. وهذا هو سبب دراستي للطب.

فقلت: ولكن كل السعوديين، الذين عالجناهم، كانوا يبدون التعاون والشكر، حتى وإن كانوا يعتقدون أننا كفار، فهز فيليب رأسه مؤكداً كلامي.

فقال عبد الطاليم وهو يهز كتفه: يوجد بدو، كهؤلاء، لن يذهبوا إلى طبيب غربي بأي حال من الأحوال.

وهكذا كان حسين شيئاً شاذاً عن القاعدة. فلا يوجد في القرآن ما يحرم على المسلم الذهاب للطبيب ولكن حسب الإسلام فإن الأمر في النهاية بيد الله وبعد ذلك يأتي دور الطبيب.
فقال نزار: مكتوب، ولم نكن بحاجة إلى ترجمة هذه الكلمة لنفهمها فقال فيليب: إن الأطباء الغربيين لا ينكرون عون الله.ولكننا لا نتكل على ذلك، فرد نزار: إن هذا هو الفرق بيننا، فنحن نحيا ونموت بإذن الله .

وبالرغم من أنه لم يكن مسموحاً لي بالحديث مع حسين ــ مضيفي ــ عن نسائه، إلا أنني لم أستطع ان أمنع نفسي عن السؤال عنهن.
وفي هذه المرة رفض المترجم القيام بترجمة سؤالي.
فقال لي عبد الطاليم بالإنجليزية متهكماً على غلة يدي: إن لهن نفوذاً أقوى مما تعتقد، فالنساء العربيات يتمتعن بخصوبة عالية، فالعربية تغضب إن لم تحمل ويكون نتيجة ذلك ارتفاع كبير في نسبة المواليد، فالبدوية تستطيع إنجاب خمسة عشر طفلاً، يعيش منهم أربعة أو خمسة. ولأنها تنجب الأطفال خوفاً من الطلاق فإنها تكون حاملاً بصفة مستمرة في الخمسة عشر عاماً الأوائل من الزواج.
وتقوم نساء من عشيرتها بمساعدتها في الولادة فلا وجود للقابلة بالمعنى المعروف. وتقدر نسبة الوفيات بين المواليد في بعض المناطق بـــ 70%ن كما أن نسبة الوفيات بين النساء أثناء الولادة ايضاً عالية وسبب هذا هو قلة النظافة والأساليب الخاطئة للعلاج التي تمارس منذ ألف عام.
ولكن الوزارة المعنية بذلك قامت بتخصيص خدمة صحية عامة للنساء "الحوامل" ولرعاية الأطفال. كما تقوم جمعية الهلال الأحمر ــ والتي تعادل الصليب الأحمر عندكم ــ بتقديم المساعدات الأولية وتستخدم كذلك المستشفيات لهذا الغرض.
وهناك من يرى أن الحل يكمن في تعليم المرأة، فالمرأة المستنيرة والمقلدة للغرب هي التي تستخدم حبوب منع الحمل، كما يتوقف هذا أيضاً على درجة التعليم. وبينما كنا نتحادث بالإنجليزية كان أفراد العشيرة يتجاذبون أطراف الحديث ويهتمون بأمر الضان والذي كان لا يزال يطشطش على النار. وبعد ذلك ظهر الغلمان وهم يحملون صوان كبيرة عليها الضان والأرز والطماطم والخيار والبصل وحلقات من الليمون.
وكانت رائحة الزعفران والقرفاء النفاذة تفوح منها.

وكالعادة قام البدو بضغط الأرز بالضأن بايديهم ثم وضعوه في أفواههم فقال عبد الطاليم إن اليد اليمنى فقط هي التي تستعمل في الأكل فقمنا أنا وفيليب باتباع نفس الأسلوب، وقد كان الطعام طيباً بالرغم من أن الضأن كان نيئاً.

وقد شعرت بالأسف لمنظر الأطفال الجوعى وهم يتابعوننا بعيونهم ونحن نأكل.

وكان حسين يبحث عن قطع اللحم الطيبة ليضعها أمامنا، كما كان يضطرنا لمزيد من الأكل.

وبعد أن شبعنا اخذ الأطفال الصوان واكلوا بنهم كلما تبقى عنا. ولم أدع الفرصة تفوتني كي أنظر إليهم وهم يعودون بما تبقى من الطعام الى النساء في سيارة النقل فلم أرّ إلا أيدي النساء وهي تمتد إلى الصواني.وكم كنت أتمنى أن أقدم لهن شكري على ما قدمناه لنا من طعام.

ولكن ذلك كان مستحيلاً .

الفصْل الثامِن عشر

المسكين .. أغنى رجل في العالم

كنت أجلس في مكتبي عندما رن الهاتف، كان جون بارو نائب المدير ومستشار العائلة المالكة، الذي بادرني قائلاً:

سيمور، أزمة أخرى، لقد رجاني فرانك تايلور أن اتصل بك.

فسألت: ما الحكاية هذه المرة؟

فإذا كانت المسألة تتعلق ببارو فهذا يعني أن المريض يكون أحد أفراد الأسرة المالكة، فتكون المشكلة بسيطة نسبياً.

وكنت لاحظت أن إذا سعل أمير سعودي سعالاً خفيفاً فإن هذا يعتبر مشكلة.

ثم قال بارو: إن الموضوع يتعلق باحد المرضى المهمين جداً وقد اتفقنا على موعد الفحص، عصر اليوم بقصره.

فسالت: ولماذا لا يستطيع أن يأتي هو إلى المستشفى، فطبقاً للتعليمات لا يجوز لأطبائنا فحص أي مرض خارج المستشفى.

ــ إن الملك بنفسه قد رجانا ذلك. واسم المريض الأمير إبراهيم مقرن الكبير، ألا يعني هذا الأسم لك شيئاً؟ هززت كتفي وقلت: على كل هو أحد افراد الأسرة المالكة.

ــ إنه أحد أعضاء الأسرة المالكة الأصلاء الذين ساعدوا الملك عبد العزيز في فتح نجد.

قال بارو ذلك محاولاً التأثير عليّ ثم استطرد:

ــ وكظاهر الموضوع فان الامير أحد أكبر الرجال المؤثرين سياسياً في المملكة وأظنه واحداً من أغناهم. ولو قلت لك كم من المال يملك فلن تصدقني.

ــ ما عليك إلا المحاولة فإنني أملك خيالاً خصباً.

ــ حسناً، أنه يملك "حرض".

ــ ماذا تعني بذلك؟

ــ إن مدينة حرض تخصه، فعندما كان شاباً كافح كتفاً إلى كتف مع الملك، الذي أهداه مدينة حرض بعد ذلك.

ــ أنت على حق، أنا لا أستطيع تصور ذلك.

ضحك بارو في سره ثم قال:

سوف أمر عليك في الثانية لأصطحبك.
وفي العصر أتى بسيارة تابعة للمستشفى وقادني في إتجاه طريق مكة إلى قصر الأمير إبراهيم.
اصبح بارو يمثل صلة ربط قوية بين العائلة المالكة إلا أنه كان مهتماً بكل فرد في هذه العائلة..
كان بارو يعمل بالمستشفى كرجل علاقات وكان الرئيس الرسمي للإستقبال. وقد عاش مدة طويلة في السعودية ويتكلم العربية بدرجة تكفي تعاملاته.
بدأنا بعد عدة كيلو مترات في الحديث عن المريض.
واتضح أن بارو لا يعرف شيئاً عن حالته الصحية. ولكنه كان يعرف الكثير عن الحالة المادية والسياسية للمريض.
وقد قال لي: إن الأمير ثري بلا حدود فهو يملك من الثلاثين إلى الخمسة وثلاثين مليار دولار.
ولكن هذا تكهن بحت. فأملاكه تمتد بطريقة لا تجعل أحد يعرف مبلغ ثراءه، ولا اظن أن أحداً سيعرف ذلك حتى موته، عندما تحصى تركته.
طلبت من بارو أن يقص عليَّ لمحات عن نشأة الأمير.
أثناء الحروب الطويلة القاسية فيما بين 1901 و1926 والتي مكنت آل سعود في النهاية من السيطرة على شبه الجزيرة العربية وتوحيدها انضم الأمير إبراهيم إلى الملك بن سعود.
وكان الأمير إبراهيم محارباً باسلاً بالرغم، من وجوده في الظل بالنسبة للشخصيات القائدة البارزة وقد صار واحداً من أهم الشخصيات في أضيق حلقة داخلية كانت تسيطر على عائلة سعود وعلى السياسة السعودية وكان أحد أعضاء المجلس الذي أنتخب "خالد" ملكاً.
وقد ظهر إبراهيم بصورة رائعة أثناء إحتلال نجد والجزء الشرقي من البلاد وبعد أن تمت السيطرة على كل الأراضي السعودية قدم له الملك ــ معترفاً بالجميل ــ هدية تتمثل في المنطقة حول واحة الأحساء والتي تقع بها مدينة حرض. ومع أن هذه المنطقة لم تمثل حينئذ قيمة كبيرة إلا أنه بعد حوالي عشرين عاماً ظهر أنها تقع في مركز حقل بترول وغاز طبيعي كبير.
مما جلب على الأمير إبراهيم ثراء طائلاً.
إلاَّ أن جزءاً كبيراً من ثرائه يعود إلى مجهوداته الذاتية في تنمية مدينة حرض. وفي العصور السابقة لم تكن مدينة حرض إلاَّ واحة للرعاة والبدو وكان جزء كبير منها يمثل صحراء مهجورة. وفي خلال خمسين عاماً قام بتحويل هذه المدينة إلى مخزن غلال السعودية. ففي هذه المرحلة الأولى لاستصلاح "حرض" قام إبراهيم بإنجاز غيّر مجرى الحياة فقام بحفر الآبار الإرتوازية وتوصيل شبكة مياه،وأدخل الكهرباء وكذلك المكننة الزراعية.

ثم أضاف بارو: واليوم أصبحت "حرض" مركزاً زراعياً غنياً يزرعه المستأجرون. وما زال الأمير يملك جزءاً كبيراً من المنطقة. وأنت تعرف معدل ارتفاع سعر الأرض في السنوات الأخيرة، لقد بلغت حقاً أرقاماً فلكية.

بعد عدة دقائق صرنا على مقربة من مقر الأمير إبراهيم فاندهشت للمنطقة المحيطة والخالية من أي ملامح مميزة

فعلى النقيض من المساحات الخضراء المهذبة بعناية والتي تحيط غالباً بالقصور، كان هذا القصر محاطاً بمجموعة بالية متساقطة من البيوت الطينية اما الزبالة فكانت في كل مكان ولم توجد شوارع تؤدي من أو إلى هذه الأكواخ، اللهم إلا طريق غير معبدة تتلوى على الطريق الحجري الصلب.

أما الناس الذين رأيتهم فكانت تبدو عليهم علامات الفقر، لم تكن هذه حال البيئة التي يتخيلها المرء مقرونة بإغنى رجل في السعودية.

ثم عرفت بعد ذلك ان بعض الناس يسكنون الأكواخ الطينية القذرة كانوا عبيداً للأمير إبراهيم، تركوا القصر عام 1926 (عندما تم إلقاء الرق في السعودية).

كان الفقر المحيط بالقصر يمثل إنذاراً للعبيد السابقين الذين قرروا البقاء في خدمة الأمير والذين يعيشون داخل القصر مستريحين البال نسبياًن راضين عن نصيبهم في مرتباته الضئيلة. وعلى ما يبدو لم يكن الأمير رجلاً رحيماً.

أما القصر نفسه فكان محاطاً بجدار حجري عال يترك إنطباعاً في النفس.

وعندما صعدنا إلى أعلى فتح لنا خادمان في لباس الحراس بوابة حديدية غنية بالزخارف ليدخل بارو بالسيارة ببطء إلى الفناء كان القصر عتيقاً جداً وكان حجمه عظيماً يماثل حجم أكبر القلاع في أوربا وفي حرم القصر كان يوجد مسكن خاص بالخدم وجناح خاص بنساء الأمير الأربع وفيلتان صغيرتان لسكرتيرة وطبيبة وكذلك مسجد خاص حيث يؤدي الأمير الورع صلاته.

وبالرغم أن الحجم الكبير للقصر يطبع في النفس أثراً إلا أن حالته لم تكن هكذا. ففي السعودية تتهدم القصور بسرعة وكذلك لم تبذل العناية الكافية للحفاظ على هذا القصر.

فكانت هناك شقوق في الجدران، أما اركان المباني في مواقع مختلفة فقد بدأت في التفتت وأما أحواض الزهور التي كانت تحيط بالقصر فكانت مهملة وغير معتنى بها وبدت وكأنها من عصر آخر. وعلى كل فقد بدى القصر قديماً آيلاً للسقوط وذكرني بالمقار الكبيرة والعتيقة والمهجورة في الجنوب والتي كانت تخص زعماءنا بعد الحرب الأهلية الأميركية، وقد ذكرني منظر القصر بفيلم "ذهب مع الريح" أدى الخدم التحية لبارو، والذي لم يكن هنا لأول مرة. وقام واحد منهم

بتوصيلنا إلى داخل القصر بينما كن واحد آخر يدخل سيارتنا في الجراج. كان القصر من الداخل يظهر الطريقة السعودية في البناء، سقوف عالية لكي تساعد على تلطيف الجو ولون الجدران يحتفظ باللون الإسلامي الأخضر، بحيث يراه المرء في كل مكان.

أما الطلاء فكان باهتاً جداً ليؤكد مرة أخرى على الجو الكالح القديم لهذا المكان. وقد خلت الجدران من الحلى والزخرف طبقاً لتعاليم الدين.

أما الأثاث الذي كان على الطراز الفرنسي المبالغ فيه فكان فخماً متشابهاً لا يشد الانتباه. وكان جو القصر مقفراً خالياً.

بعد ذلك مباشرة دخل علينا سكرتير الأمير إبراهيم والذي كان يتحدث الإنجليزية بطلاقة تشوبها لكنة إنجليزية واضحة.

وترك عندي إنطباعاً بأنه واحد من أكثر السعوديين نشاطاً من الذين قابلتهم. بعد ذلك عرفت أنه ليس مجرد سكرتير وإنما مدير أعمال مهمته رعاية كل أملاك وأعمال الأمير. بعد دقائق وصل ايضاً دكتور غندور، فهو يسكن في القصر وكان طبيب القصر الخاص، يعالج النساء والأطفال والخدم، أي حوالي خمسمائة شخص.

وقد لاحظ كل من الدكتور والسكرتير تغيراً على الأمير ليس أنه أصبح ينسى أكثر فحسب ولكنه أصبح لا يقوى على التعبير أيضاً: وقد طرأت هذه الصعوبة في الكلام منذ وقت قصير وسببت قلقاً بالغاً للأمير وأسرته. وعلى ما يبدو فإنه كان يدرك ما يريد قوله إلا أنه لا يستطيع التعبير عنه بالكلام أو بالكتابة. ومع أنه كان لا يزال قادراً على الحركة وإنجاز الواجبات الضرورية إلا أنه كان مضطراً للتفاهم مع الآخرين عن طريق الإشارة وكانت طريقة حديثة قد أصبحت غير مفهومة تقريباً.

وأضاف دكتور غندور: إن ضغط دم الأمير أعلى من العادي.

أما الأمير فكان يرفض الإنتقال للمستشفى لإجراء الفحوص الطبية ولما كان هو أقرب المستشارين للملك في النواحي العائلية والسياسية للعائلة السعودية قد أمر الملك أن تنتقل المستشفى إلى الأمير .

****

كنت قد أحضرت معي تقريراً عن مرض الأمير من المستشفى، فقد كان قد تم فحصه قبل ستة أشهر من قبل طبيب الأمراض التناسلية وقد كان كل ما يشكو منه هذا المريض البالغ التسعين عاماً من عمره: الضعف في القدرة الجنسية وحسب التقرير فإن الأمير توقف عن الإنجاب منذ أن بلغ الخامسة والثمانين وهو يريد أن يفعل شيئاً تجاه هذا الأمر. وبينما كنا نتحدث عن الحالة الصحية للأمير دخل علينا في الحجرة رجل قصير مسن يلبس نظارة فوقفنا جميعاً فقد كان: "الأمير إبراهيم". كان الأمير إبراهيم يلبس الثوب السعودي التقليدي ذا اللون الأبيض وجاكتاً إنجليزياً من التويد لا يتناسب مع الثوب ــ اللهمَّ إلاَّ في حالات نادرة. كان أقصر مما توقعت في معظم أعضاء الأسرة المالكة الذين كانوا يبلغون مائة وثمانين سنتيمتراً أما الأمير فلا يزيد طوله عن مائة وسبعة وستين سنتيمتراً. بعد ذلك خرجت بنتيجة: إن الأمير يعاني من قصر الحجم، متلازماً مع سمات شخصية عدوانية استبدادية والتي يستطيع المرء الربط بينها وبين أناس يحسون بانزعاج تجاه قصر حجمهم ولهذا لم أفاجأ بإعجاب الأمير بجون بارو فجون أقصر منه.
قدمني دكتور غندور لسموه الملكي، جلس الأمير على مقعد عالي بعد ذلك مباشرة ظهر خادم وبيده "كنكة" قهوة بالحبهان. قدم بعدها الشاي المألوف.
جلس الأمير صامتاً ينظر إلى قدح القهوة كما لو كان وجودنا لا يعنيه في شيء.
فسأله بارو مترددا عن صحته ورد عليه الأمير بهزة من كتفه وبإشارة من يده.حاول أن يتكلم ولكن كلماته كانت في غير سياق واحد فسكتنا جميعاً وقد تملكتنا الحيرة، فجلسنا صامتين نشرب الشاي.
وأخيراً توجهت إلى السكرتير وقلت له إنني أريد فحصه فأخبر السكرتير الأمير بذلك في خنوع. فهز الأخير رأسه ثم وقف واتجه إلى الباب خارجاً بينما طلب مني السكرتير بإشارة من يده أن أتبعه. عبرنا الممر الطويل حتى وصلنا إلى مصعد مذهب غني بالزخارف. بدا على الأمير أنه يتباهى بهذه التجهيزات الحديثة في قصره العتيق فقد نظر اليَّ ليرى ان كان ذلك قد ترك علي أثراً.
ذكرني المصعد على نحو ما بمصعد آخر مذهب شبيهاً بالقفص كان يوجد في فندق بلندن.
تمتمت: مصعد فخم. فقام بارو بترجمة العبارة راسماً على وجهه إبتسامة واسعة فبدا السرور على وجه الأمير. عندما وصلنا الطابق الأول مضينا في ممر طويل مظلم ثم دخلنا حجرة واسعة مغطاة بسجاد صيني غاية في الجمال وقام السكرتير بترجمة تعليماتي بأن يخلع الأمير ثيابه ثم انسحب متحفظاً إلى حجرة جانبية. وأثناء ما كان الأمير يخلع جاكتته التويد وثوبه الأبيض. كنت أنا أتجول في الحجرة بهوادة ناظراً بدقة إلى الأثاث العتيق، الذي كان بعضه مطعماً بالذهب

وكانت الحجرة تبدو وكانها متحف وليست حجرة نوم إذا استثنينا سريراُ ضخماً غني بالزخرف يجعل من الرجل القصير المسن الراقد فوقه صغيراً وضعيفاً على نحو يدعو للشفقة.
وبعون دكتور غندور كمترجم شرعت في فحص الأمير آخذاً في إعتباري سنه وضغط دمه المرتفع وصعوبة كلامه التي تجعل من خطر إصابته بالسكتة واقعاً ممكن حدوثه. استسلم الأمير للفحص كارهاً وبعد أن انتهيت من ذلك ناديت السكرتير وحدثته ودكتور غندور عن تشخيص الحالة :

أنه من لممكن أن تعود صعوبة كلامه إلى فقدانه القدرة على التعبير نتج عن جرح أو سكتة خفيفة في منطقة الكلام بالمخ .

فالمريض يفهم الكلام المكتوب والمقال ويعرف ما يريد أن يقوله ولكنه لا يستطيع أن يخرج الالفاظ قلت في النهاية: إننا لم نثبت وجود ضعف في البنية كما أن رد فعله طبيعي وأنا أشك في إصابته بجلطة خطرة ولكن هناك مؤشر على ذلك بلا ريبة.
فسألني السكرتير: وبماذا تنصحنا؟
فقلت بصراحة: أنصح بإدخاله المستشفى، فلابد من إجراء فحوص دقيقة عليه منها صور بالأشعة على المخ حتى نستطيع معرفة سبب مشكلته مع الكلام.
هز السكرتير كتفيه في حيرة، معلناً بذلك أن القرار في هذا الموضع بيد الأمير وحده.
وبعد إلحاحي رجا السكرتير الأمير بالذهاب إلى المستشفى. ولكن الأمير العنيد يهز رأسه ويرفض الإقتراح بإشرات حادة وزئير فظ.
فنصحه قائلاً: إن كان مصمماً على عدم دخول للمستشفى فلابد له من ان يحد من نشاطه ويخلد للراحة الطويلة.
ثم سألت: ما هي خططه للوقت القادم؟
فرد السكرتير: سيحضر إجتماعاً عند الملك مساء اليوم، وجلسة للوزراء غداً ثم سيحضر المجلس في العصر، ثم اجتماع مع قيادات الحكومة.
فنظرت إليه وهززت رأسي وقلت. إنه لا يستطيع إنجاز ذلك ابداً وقل له ان لم يحد من نشاطه فإن جسمه سيجبره على ذلك.
ولكن السكرتير لم يقل شيئاً.

عندما خرجنا أرانا الأمير بستانه واشار صامتاً إلى زهور وأشجار معينة وعلى حد قول السكرتير فإن هذه الزهور قد استوردت خصيصاً من أجل الأمير. وفي نهاية الطريق مدَّ الأمير يده لنا ومضى للصلاة في مسجده الخاص الواقع في الجهة الشرقية من القصر.
وبينما كنا نتجه إلى سيارتنا اخبرت السكرتير بأنني سوف ارسل له خطة غذاء وبعض الدواء الذي سيساعد الأمير خفض ضغط دمه .

***

ثم غادرت القصر وأنا أشعر بالإحباط الذي يحس به كل طبيب عندما يرفض مريضه نصيحته الطبية المعقولة. فقد كنت واثقاً من أن الأمير سيذهب إلى المستشفى ولكن عندما يكون الأمر قد صار معقداً.

أما الأدهى من ذلك هو أنني كنت أحس أن زيارة الأمير القادمة للمستشفى ستكون أيضاً الأخيرة وذلك بسبب تقدمه في السن.

بعد خمسة أيام وأثناء ما كنت أقوم بعيادتي للمرضى جائني الإتصال الهاتفي الذي كنت أتوقعه وأخشاه: لقد سقط الأمير إبراهيم بسبب جلطة شديدة ولقد فقد قدرته على الكلام كلية وأصيب النصف الأيمن من جسمه بالشلل. أما الشيء الذي كان لا يمكن تصوره هو أن الأمير كان لا يزال يرفض دخول المستشفى ولم يعلن عن إستعداده للزيارة القصيرة إلى المستشفى لعمل بعض التحليلات والفحص بالأشعة إلا بعد أن اصر الملك على ذلك.

وصل الأمير إبراهيم في التاسعة مساء في سيارة إسعاف خاصة بصحبة الدكتور غندور وثلاث سيرات ليموزين سوداء تقل حاشيته.

وقد كان الأمير ثائراً فظاً وأخذ يعلن عن طريق الزئير الغضب والتلويح الحاد عن أنه أحضر إلى المستشفى رغماً عنه وانه يريد العودة حالاً إلى القصر وكانت ثورته حادة لدرجة اضطرتني إلى إعطائه حقنة مهدئة.

ثم نقلناه إلى قسم الأشعة والمعمل حيث كشفت الأشعة على المخ أن أحد الأوعية الدموية المهمة في المخ كان مسدوداً.

لقد أصبح واضحاً أن الأمير لن يستطيع مغادرة المستشفى. فقمت بالتشاور مع طبيب الأعصاب وجراح الأعصاب وقررنا تحويله إلى المستشفى فتم حجز جزء من الطابق الثاني للأمير وتحويله إلى جناح يكفي أغنى رجل في العالم. وتم إحضار الأثاث الذي يعكس حب الأمير للديكور الفرنساوي ووضعت المقاعد المكسورة لزائريه في الممر.

كانت الزهور التي تصل إليه كل يوم تفوق كمية الزهور التي أرسلت إلى الأميرة سلطانة.

ولما سمحنا له بالزيارة، وصل عدد زائريه بسرعة إلى حجم اضطرنا إلى إغلاق الممر أمام غرفته كما كانت قطعة شهيرة في متحف.

وكان الأمير خالد والأمير فهد من ضمن الذين يحرصون على زيارته يومياً. وكانا يصلان في العادة قبل صلاة الظهر ويقضيان وقتاً قصيراً مع الأمير ثم يجلسان للمسامرة مع أفراد العائلة والذين كان معظمهم أبناء عم ولما امتد علاج الأمير إبراهيم لعدة أسابيع صار الملك وولي العهد يتبادلان زيارته على أن يكون واحد منهما عنده كل يوم.

وكان يلازمه اثنان أو أكثر من ابنائه الثلاثة والعشرين بصفة دائمة.
أما الشيء الغريب هو أن النساء لم يزرن الأمير قط حتى زوجاته.
وعندما استفسرت عن ذلك قال لي ابناؤه ببساطة إنه غير مسموح للنساء بزيارته. وعندما زاد عدد أفواج زائريه حاولت الحد من عدد الزوار ومن وقت الزيارة آملاً في تسهيل الأمور على الأمير.
ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل لأن أعظم رجالات المملكة كانوا ضمن زوار الأمير. وبطريقة مهذبة، ولكن بأسلوب حاد أيضاً جعلني أفراد الأسرة الملكية أعرف أن المستشفى هو مستشفاهم وأنه لا يوجد من يمنعهم عن زيارة الأمير.
ولكنهم أعلنوا أيضاً عن استعدادهم للحد من زياراتهم والقيام بها في ساعات معينة. ولكنني اعتقدت أنهم يأتون للمستشفى في المقام الأول ليلتقوا ببعضهم البعض وليظهروا وفاءهم للأسرة.
وبسبب عدم مقدرة الأمير على الكلام كانوا لا يقضون معه أكثر من خمس دقائق في معظم الأحيان.
وبسبب إهتمامه الحقيقي بصحة الأمير طلب منا الملك إحضار مستشارين متخصصين من الخارج للتأكد من أننا فعلنا كل شيء بمقدورنا. فاختار طبيب الأعصاب أشهر طبيب في لندن فجاء هذا في طائرة خاصة. وقام بفحص صور الأشعة وتشخيصات التحليل ثم فحص الأمير بدقة متناهية وأجاز تشخيصي وطريقة علاجي. أما أنا فاخترت طبيباً متخصصاً في الجلطات من المستشفى العام ببوسطن "متساشوستس" فجهزت له السفارة السعودية في واشنطن تأشيرة الدخول ليصل الأخصائي وهو أحد أصدقائي إلى السعودية بعد رحلة طويلة مجهدة لينام يومين ثم يمضي اليوم الثالث بكامله في فحص الأمير ومطالعة التقارير.
ثم قضى يوماً آخر يؤكد فيه للأسرة أنه موافق على التشخيص والعلاج وليس بيده عمل أكثر من ذلك.
وبالرغم من التكاليف الباهظة لهذا "الكونصولتو" إلا أن الأمير كان يستحق فقد شعرت العائلة المالكة بالإطمئنان لهذا المستشفى الجديد والثقة فيه.
إستحالت الأسابيع تدريجياً إلى شهور وبدت بوادر التحسن تظهر على الأمير.
بالرغم من بقاء نصف جسمه الأيمن مشلولاً إلا أنه اصبح يتحدث بطريقة غير واضحة وأخذ يتفاهم مع الآخرين في نطاق محدود.
وصارت صحة الأمير تتحسن شيئاً فشيئاً لدرجة جعلته يتحدث معي أثناء عيادتي اليومية له.

وصاحب تحسن قدرته على الكلام اختفاء غروره السابق، فصار الرجل العجوز الحانق أكثر رقة بعد مروره بهذه التجربة. وكان يحاول أحياناً الرد على اسئلتي بلغة عربية مفهومة وعندما يدرك صعوبة ذلك كان يكتفي بالإبتسام ويضغط على يدي.

وقد شعر بالقلق بعد تحسن صحته وأراد أن يعود إلى القصر. ثم استطاع أن يقوم بجولات قصيرة خارج المستشفى جالساً على كرسي متحرك ويلازمه اثنان من أولاده وأحد الممرضين. ولكنه لم يستطع بنحو أو بآخر العودة إلى قصره.

صارت حراسة الأسرة للأمير أكثر صعوبة بسبب تحسن صحته مما أعطى له فرصة أكبر للحركة يستطيع بها في النهاية كتابة وصيته.

فأخذ أولاده ــ واحداً بعد الآخر ــ يجيئون الي ويسألونني، بعد التأكيد على الكتمان، إن كان أهم أبوهم ما زال على قدرته العقلية. فكنت أؤكد لهم أنه يتمتع حتى هذا الوقت بالقدرة العقلية فكانت هذه إجابة لا تشفي غليلهم.

بعد ذلك عرفت أنهم طرحوا نفس السؤال على طبيب الأعصاب الأمريكي. بعد إنقضاء ستة أشهر أخبرت الأسرة بأنني أرى أن الأمير سيكون سعيداً لو غادر المستشفى وعاد إلى القصر. وهو يستطيع إصطحاب الممرضات معه إلى هناك ونستطيع إحضار إختبارات التحليل إلى المستشفى كل يوم بالسيارة الليموزين.

وبخلاف ذلك فإن علاجه بالمستشفى يقتصر أساساً على العلاج "بالحرارة والضوء والماء" وشراب ضد الجلطة.

ومن الممكن استمرار هذا العلاج بالمنزل بسهولة تماماً كما في المستشفى. أما أبناءه فأظهروا الانزعاج من إقتراحي هذا وصمموا عل بقاء أبيهم في المستشفى. وكان غرضهم الواضح من وراء ذلك هو فرض الحراسة الدائمة على الأمير العجوز

سبب هذا الأمر قلقاً لي فأخذت أستفسر بحذر من مديري المستشفى إن كان من صلاحياتي أن أأمر على مسؤوليتي الشخصية بمغادرة الأمير للمستشفى.ولكن إجاباتهم كانت مترددة وغير محددة:

فمرة تكون لدي هذه الصلاحية ومرة أخرى لا تكون من حقي.

وككل شيء آخر في السعودية كانت سياسة المستشفى تابعة لإدارة الأسرة المالكة. وعلى هذا فقد قررت إدارة المستشفى عدم مغادرة الأمير للمستشفى مهما طالت إقامته به إلا بموافقة صريحة من الأسرة المالكة،ذلك أن الأمير لا يزال بحاجة إلى الرعاية الصحية المتوفرة في المستشفى.

****

ومضى عام والأمير ما زال في المستشفى وذات يوم سألت أحد أبناءه ويدعى أحمد ــ وكانت العلاقة قد توثقت بيننا ــ إن كانت الأسرة تتوخى الأمانة في معاملة أبيها على هذا النحو.
فقال: أنت تعرف أن السعوديين يفضلون الموت في فراشهم، يتساوى في ذلك البدو مع الأسرة المالكة.
فقلت له: إن والدك يتوق إلى العودة إلى منزله وهو رجل عجوز وقد مضى عليه هنا أكثر من عام، هل تريد أن يموت هنا في المستشفى، بعيداً عن قصره. فحاول أحمد شرح الأمور العائلية المتداخلة وكذلك السبب الذي يجعلهم يبقون على الأمير في المستشفى قال: إن زوجاته ستجعلنه يفقد صوابه إذا عاد إلى المنزل، وسوف يتشاجرن حول الميراث، ولن يتركنه لحظة ينعم بالسلام. وزوجته الأخيرة في حوالي الخامسة والثلاثين من عمرها وسيكون لها حق أكثر من الأخريات، إنه موقف صعب للغاية نحن نفعل ذلك من أجله هو.ولكنه بدا لي بلا شك أنه يهتم هو الأخر ــ مثل إخوته ــ بإبعاد الأمير عن زوجاته وعن الآخرين الذين يطالبون الأب بمستحقاتهم المالية ولذلك لم أستطع منع نفسي من إبداء ملاحظة أن الوحدة السطحية التي كانوا يتظاهرون بها كانت زائفة بل بدت وكأنها حراسة ضربت على الأمير. وقد توقعت أن ينفي أحمد هذا ولكنه بدلاً من ذلك هز رأسه في أسى. ثم هز كتفيه وقال: نعم، فصحيح أنه يوجد شك وغيرة بين أفراد الأسرة. وقد حاول أبونا أن يعلمنا عكس ذلك إلا أنه لم يفلح في هذا تماماً.
فهناك أشياء لا يستطيع رجل عظيم بمفرده أن ينجزها طيلة حياته. طالت إقامة الأمير إبراهيم في المستشفى حتى وصلت إلى اربعة عشر شهراً وبالرغم من خروجه للنزهة عدة مرات إلا أنه لم يرجع قط إلى منزله .

****

وذات صباح مشمس من شهر نوفمبر أصيب الأمير بجلطة شديدة في المخ توفي على أثرها بسرعة وهدوء في المستشفى الذي صار بيته الثاني:

مات في المستشفى الذي كان يكرهه ويخشاه.

وقد حضر أفراد أسرته، الرجال فقط بالطبع، ليشهدوا وفاة الأمير.

اعتقدت أن موت الأمير إبراهيم سيكون مناسبة للحداد الوطني والاحتفالات العظيمة لتكريم رجل في مقامه، ساهم بالكثير في تأسيس الدولة.

ولكن ذلك لا يتسق مع التقاليد العربية:فالموت هو مرحلة عابرة فإذا مات الإنسان فإن جسده يفقد الأهمية.

أعدت الجنازة بسرعة وكانت بسيطة المظهر. ولم يوجد مقبرة ولا شاهد. ولم يكن هناك فرق بين قبر هذا الأمير وبين قبر بدوي بسيط.

اللهم إلا حجارة غير مرتفعة وضعت عند رأسه وقدميه طمرها الرمل بعد ذلك بقليل.

الفصْل التاسِع عشر

مشكلة النساء

إن الخدمة الليلية في المستشفى مهمة مزعجة ويكلف بها عادة الأطباء الشبان أما في مستشفانا فكنا جميعاً ملتزمين بتأديتها. ولما كان اللاسلكي لم يصل بعد فقط كان التليفون هو الأمكانية الوحيدة للإتصال بالطبيب. وكان هذا يسبب مشكلة لان أطباء الخدمة الليلية كانوا متفرقين في جميع أنحاء الرياض وأحياناً ما يكون هناك تليفون واحد لكل سكان المنزل. وكان غالباً ما يضيع كثير من القوت فيما بين وصول المريض إلى قسم الحالات الطارئة وبين حضور الطبيب.. ولهذا السبب أعددنا جدول عمل يتواجد بمقتضاه طبيب في المستشفى فيما بين الساعة السابعة مساء والسابعة صباحاً. في البداية كان كل طبيب يؤدي الخدمة الليلية كل سبعة أو ثمانية أيام.. أما بعد وصول اللاسلكي فأصبح متيسراً لكل طبيب يسكن في جرين أو في الفيلات في حرم المستشفى أن يبقى في بيته على أن يكون على إستعداد لأداء الخدمة. أما الآخرون الذين لا يسكنون في هاتين المنطقتين فكانوا ينامون في المستشفى. وبعد التوسع في الأقسام وتطوير البرنامج بالنسبة للأطباء المساعدين والأطباء المقيمين في المستشفى أصبح الطبيب يؤدي "النوبتجية" ما بين مرة وثلاث مرات في الشهر. أما أنا فقد كنت أعتبر الخدمة الليلية في المستشفى إستراحة أفكر أثناءها في الكثير، في أشياء مررت بها وفي أشياء سوف تأتي. كنت أتمتع بالسكون العميق، بانسجام البشر الذين ينامون ملء أجفانهم. حتى برائحة المواد المطهرة، أتمتع بمنظر الممرات بضوئها الخافت، بمنظر الممرضات المنحنيات على الجداول. أو التمرجية الذين يختبرون عهدتهم من المؤن في صمت.

إن المستشفى يمثل جهازاً حياً.. وللمستشفى جوها الخاص في الليل فهو ينبض في هدوء وسلام ويستريح من العمل العصبي خلال النهار بينما يتأهب للصباح الجديد.. وإذا أجتهد المرء ونظر إلى ما تحت السطح برأي المستشفى يضم الدفء والحب. إنه مسرح تمثل عليه التراجيدياً الإنسانية كلها. فرح بالمولود. حزن على الميت، تجديد الآلام والمعاناة والشعور بالرضا. إنه لا

يوجد جزاء يرضينا إلا شفاء المريض. ان الطب نسيج من الفن والعلم والتضحية والجهد والإيمان.

أما الطبيب فهو الراعي الأكبر. خصصنا غرفة في القسم الطبي محجوزة للطبيب "النوبتجي" وكنت في بعض الأحيان في الليل ازيح الستائر وأنظر من نافذتي إلى الصحراء. لأرى الرمل يلمع كالثلج الأبيض في نور القمر المكتمل وتبدو النجوم قريبة المنال.

وبالإضافة إلى إستراحة التأمل التي كانت تمنحني إياها الخدمة الليلية فإنما كانت تعطيني الفرصة أيضاً لكتابة الخطابات.

فلما كنت أكتب إلى أهلي كان يسعدني أن أكتب لهم عن بلد به أقل معدل من الجريمة في العالم.. أي النقيض الحاد من هذه الفوضى التي تركتها في الولايات المتحدة. وكنت دائماً ما أروي قصة تدور حول حافظة نقود جميلة جداً من جلد التمساح كنت فقدتها منذ وقت ليس بالبعيد في مطار جدة.. وكانت تحتوي على جواز سفري وعدة بطاقات قروض ومائة وخمسين دولاراً نقداً.وبعد وصولي إلى الرياض ذهبت إلى موسى في قسم السفر وقلت له:

أنا حزين للغاية، وبينما كان هو ينظر مفزوعاً من فوق الأوراق الموضوعة على مكتبه، استطردت أنا لابد أن أكون فقدت "محفظتي" أثناء مروري بالجمرك وإنتظاري لأمتعتي، وقد كان الزحام فظيعاً في المطار بسبب الحج .. هل يمكن فعل شيء؟ هل أعلن عن مكافأة؟

أمسك موسى بالتلفون وقال: لا تنزعج وليس هناك داع للمكافأة ولسوف أتصل بالجمرك في جدة واطلب منهم إعادة محفظتك وقد يستغرق ذلك بضعة أيام، قال ذلك وكأنه يعتذر.

فقلت: أنت تسخر. لقد ازدحم هناك آلاف مؤلفة من الحجاج، لقد كانت الفوضى بعينه وأنت تقول لي إنني سأسترد محفظتي خلال بضعة أيام.

ولما كنت أنا وموسى اصدقاء قدامى فقد قال لي مبتسماً: إنها هذه مشكلتكم أيها الكفار.. فدينكم ليس قوياً بالدرجة الكافية، ينبغي أن تدخل الإسلام بالطبع ستعود اليك حافظة نقودك. هززت رأسي غير مصدق.

بعد حوالي عشرة أيام اتصل بي موسى وقال: تستطيع أن تتسلم شيئاً عندنا. وفي مكتبه سلمني الحافظة المفقودة. لم اصدق عيناي عندما رأيت أنه لم ينقص منها شيء ولا حتى الاوراق الجديدة ذات العشرة والعشرين دولاراً.

فقال لي: هل رأيت، إن هذا هو ما يحدث في السعودية. ولو كنا في مصر لنشلوا منك محفظتك وسرقوا أمتعتك. وبل قميصك الذي على جسدك.

وعندما كنت انتهيت من خطابي إلى أهلي في حوالي التاسعة نادتني الممرضة من غرفة الفحص وطلبت مني الكشف على مريضة تشكو من آلام في الربع الأسفل في الجهة اليمنى من بطنها. ثم قالت لي من الجائز أن يكون إلتهاب في المصران الأعور.

كانت المريضة ممرضة مصرية اسمها ناصرة. وتعاني من فترة طويلة من الآم في الجهة اليمنى من بطنها. والغريب أن هذه الآلام تظهر دائماً عندما تتسلم "ورديتها" الليلية. ولم يحدث أن أصيبت بارتفاع في درجة الحرارة وفي كل مرة تعود معافية عندما كانت تقضي الليل كله نائمة في غرفة الفحص. فقمت بفحصها لم أجد شيئاً غير عادي. وكانت نتيجة الإختبارات المعملية طبيعية ..كالعادة ولا تعاني من ارتفاع درجة الحرارة.سألتها إن كانت عندها "وردية". فردت بالإيجاب..

وأخرجت إستمارة من حقيبتها أرادت أن أوقع عليها حتى تكون اعتذاراً عن عدم قيامها "بالوردية".

خرجت من الغرفة وعدت بالممرضة وهي تحمل في يدها جهازاً لامعاً يسمى "سيجموید وسكوب".

تعرفت ناصرة فوراً على الجهاز. فأوضحت لها الأمر قائلاً: قبل أن أوقع على الإستمارة فإنني أريد إجراء فحص، فسوف أقوم مثلاُ بإدخال هذه الآلة الحادة ذات الثلاثين سنتيمتراً في المستقيم وفي الأمعاء الغليظة السفلى، فصور الأشعة كانت سليمة حتى الآن ــ قلت لها ذلك بينما كنت أهز الآلة الخطرة في الهواء مهدداً ــ وهذا الفحص سوف يحدد أسباب الآلام التي تصابين بها قبل تسلمك نوبة الليل.

نظرت إلى الجهاز.. ثم إليّ .. ثم أخذت الإستمارة من يدي وقالت: لقد ذهبت الآلام.

بعد أن ارتدت ملابسها جلست إليها .. وبينت لها أنها في كل مرة تتخلى فيها ن نوبة الليل فإنها تحمل الممرضات الأخريات أعباء عمل أكثر.. ثم قلت لها إنها بخلاف ذلك تكون غير أمينة تجاه نفسها،فإنه من الممكن أن تصاب يوماً ما بإلتهاب المصران الأعور بالفعل ولن تجد أحداً يصدقها. شرعت ناصرة في البكاء وروت لي مدى تعاستها في السعودية فهي تحس أنها سجينة. فالممرضات المسلمات ليست لديهن حرية التحرك مثل زميلاتهن الأمريكيات أو الإنجليزيات، وهي تشعر بالاضطهاد لتخصيص الأماكن السيئة والمنعزلة لإقامة الممرضات المثريات.. ولا يسمح لهن بالذهاب كزميلاتهن الغربيات الى مركز الإستجمام لأنه محرم على المسلمات السباحة مع الرجال فهن ممنوعات من إستخدام حمام السباحة كما أنه محرم عليهن الخروج مع غير المسلمين.

ثم استطردت: إن الحياة بالنسبة للممرضات الغربيات شاقة بما فيه الكفاية، ولكنها بالنسبة لنا لا تحتمل. فأنا أفتقد أهلي وأصدقائي ولست أدري إن كنت سأتحمل السنتين القادمتين؟

سألتها: ولماذا أتيت إلى هنا؟

فردت بصراحة: من أجل المال.. ثم قالت وهي ما تزال تبكي:

إن أهلي فقراء جداً وأنا مسؤولة عنهم مادياً.

ــ لابد أن يحدث شيء لضمان المساواة في الحقوق والفروض بين كل الممرضات وربما يكون وضعك السيء هذا نتيجة لتصرفات المظيفين السعوديين فإنه يريدون حماية المسلمات من التأثير الأجنبي..وأنت تعرفين كم يهتمون بشدة بعزل نسائهم والتضييق عليهن عندما يكون رجال غربيون على مقربة منهن.

ثم اقترحت عليها أن تقوم هي وزميلاتها المصريات بكتابة شكوى أقدمها أنا باسمهن إلى مجلس الأطباء.. وعدتها أن أبحث الموضوع مع مكتب الممرضات ومدير قسم الشؤون الطبية.

شكرتني وذهبت وهي تحمل في عينها بصيصاً من الأمل .

***

كنا في منتصف الليل عندما كنت أستغرق تماماً في النوم. فإذا بالتليفون يدق. كانت الممرضة المختصة بتحويل الحالات الطارئة لتخبرني أن مريضة سوف تصل في حوالي الساعة إلى المطار، إنها واحدة من العائلة المالكة آتية مع طبيبها بالطائرة من جدة ولم تعرف أكثر من ذلك.. فالممرضة كانت قد أعطت تعليمات إلى قسم النقل بإرسال سيارة إسعاف إلى المطار.
وعندما تأخرت السيارة عشر دقائق قام السائق السعودي بتعويضها بأن قاد السيارة بسرعة مائة وثلاثين كيلو متراً في السعة بينما كانت "السرينة" تمزق سكون الليل. كنت أجلس بجواره ورأيت بوضوح أنه يتمتع بكل ثانية،خاصة عندما تسير العربة في المنحنى على اثنتين رجوته باللهجة السعودية قائلاً: "شوي" ثم أغلقت عينيَّ وقد حثه رد فعلي هذا على أن يسير بسرعة أكبر.
قلت إلى الممرضين الجالسين في المؤخرة: إن كل سائقي سيارات الإسعاف متشابهين فعندما كنت طبيب امتياز كان سائق سيارة الإسعاف يقود السيارة كالمجنون. سيان كانت حالة المريض خطرة أم لا.
وصلنا بمعجزة سالمين إلى المطار. وبعد أن قمنا ببعض الإستفسارات انتقلنا إلى منطقة الشحن. وهناك رأينا طائرة عسكرية ضخمة.. مموهة مكتوباً عليها "السلاح الجوي الملكي السعودي".
تعرَّف جيم، أحد الممرضين اللذين كانا معي، في الحال على نوع الطائرة وقال: ــ إنها لو كهيد هرقل هــ س 130 وهي طائرة شحن.
دخلنا إلى بطن الطائرة الهائل وفي ضوء مصباح وحيد وصغير رأينا شبحين يرتديان الحجاب والقفطان.. ويقومان برعاية شبح ثالث راقداً على الأرض ثم أتى إلينا رجل لم نستطع تحديد ملامحه وقدم نفسه لنا:
كان الطبيب المصري المعالج للأميرة لولوا، إحدى زوجات الملك سعود الكثيرات السابقات والتي طلقها من سنين طويلة. كان سنها قد تقدم إلى الثانية والثمانين كما أخبرنا الطبيب وكانت تعاني من مرض السكر والتهاب رئوي. وأعطاني الطبيب تقريراً عن مرضها.
في هذا الضوء الضعيف لم أستطع رؤية الأميرة فقد كانت محجبة تماماً برداء أسود وقد حاول الطبيب تعريفها بشخصي ولكنها لم تبدِ أي اهتمام بذلك ــ ثم قام جيم ومساعده بوضعها على المحفة ونقلاها إلى سيارة الإسعاف. شكرنا الطبيب مرة أخرى ثم ودعنا وقال إنه يجب أن يعود إلى جدة في الصباح التالي.

وعندما وصلنا المستشفى أبت "لولوا" بكل قوة أن تنزع الحجاب عن وجهها كما رفضت الفحص وكانت النساء، اللائي اصطحبنها في سيارة الإسعاف قد أصابهن الجرح مثلها. ولما كانت لولوا تذهب لأول مرة إلى المستشفى فقد أعربت عن خوفها العظيم من خلال ضربها لكل من يقترب منها.. ولكنها عندما عضت الممرضة التي حاولت قياس حرارتها، قررت أن أتبع معها أسلوباً آخر.. فطلبت من ناصرة، والتي كنت قد فحصتها في نفس الليلة بسبب التهاب المصران الأعور، أن تقوم بالترجمة بيني وبين الأميرة. فجلست أنا وناصرة بجوار الأميرة وحاولنا أن نشرح لها أنها مريضة جداً وأننا لن نستطيع شفاءها إذا لم تساعدنا هي في ذلك.

ووعدتها أن لا يشترك رجل غيري في فحصها وأنها لن تخلع حجابها حتى عندما تقيس لها الممرضة درجة الحرارة.

ثم أخبرتها بأهمية عمل اختبارات الدم وصور الأشعة . ووعدت بإعطائها الدواء حالما تنهي مقاومتها.

ثم نهضت واقفاً وانحنيت عليها وقلت إذا لم تتبعي التعليمات فإنه من الممكن أن تموتي.. وهذا ما لا نرغب فيه.

ثم كررت على مسامعها: نحن لا نريد أن تموتي، بل نود أن تعودي معافية.. هل عندك سؤال؟

فقالت بصوت مكتوم بسبب الحجاب.. نعم متى أستطيع العودة إلى البيت؟

ــ عندما تصبحين معافية. إحتمال في خلال أسبوعين أو ثلاثة.

فسمحت لي بفحصها وهي كارهة على أن تحتفظ بحجابها، أخذت من ذراعها عينة دم لتحديد ترسب السكر في الدم، وأخبرتها بأن أخصائية المعمل سوف تقوم بهذا لفترة ما كل يوم، حتى نستطيع التحكم في السكر والإلتهاب الرئوي ولما كانت قد فقدت الكثير من الماء فإنني قمت بحقنها بالسوائل .

***

بدأت صحة الأميرة تتحسن تدريجياً وأخذت تتجاوب مع البنسلين والأنسولين..كما عادت كليتها تؤدي وظيفتها العادية بعد أن عاد التوازن إلى التركيب الكيميائي ونسبة السوائل في جسمها.
كنت أقوم بعيادتها مرة أو مرتين في كل يوم.. وكان من الواضح أنها تجهل القراءة والكتابة ولم تكن تعرف أي شيء عمَّا يدور حولها في العالم. أما أن يهتم رجل بها وهي في هذا العمر المتقدم فكان شيئاً لا تستطيع فهمه. وشيئاً فشيئاً بدأت أكتسب ثقة الأميرة وأخذت تتجاذب أطراف الأحاديث البسيطة معي أثناء فترة نقاهتها. ثم حدث ذات يوم أن منحتني الأميرة شرفاً كبيراً للغاية فقامت بإزاحة الحجاب عن وجهها بملء إرادتها، ثم ابتسمت لي فظهر فمها خالياً من الأسنان إلاَّ من نابين علويين. لم تبدو لولوا لأول وهلة جميلة ولكن ابتسامتها كانت تضفي عليها مسحة من الجمال. وكنت كلما دخلت عليها الحجرة، كانت تنزع حجابها بسرعة وتبتسم لي إبتسامة عريضة.
وصار هذا الأمر إحدى علامات الثقة، وكان يسبب لها متعة غير محدودة.
وبعد أن غادرت المستشفى بقيت عدة شهور عند عائلتها في الرياض وكانت كل مرة ــ اتي فيها إلى المستشفى للاستشارة كانت تعيد طقوس نزع الحجاب وسط قهقهاتنا.
أما في حالة عدم وجودي في العيادة الخارجية فإنها كانت تأبى الحديث مع أي طبيب آخر، لتنتظر عودتي في صبر. لقد منحت ثقتها لرجل وليس لكل الرجال.
في ليلة أخرى استدعيت إلى غرفة الفحص لكي أكشف على فتاة حاولت أن تنتحر بتناول جرعات كبيرة من الحبوب المنومة. كانت الفتاة ترقد فاقدة الوعي تماماً... وقد تصلب جسدها وانخفضت حرارته. ومال لونه إلى الزرقة. كان ضغط الدم غير قابل تقريباً للقياس ونبضها سريع وضعيف. وقد قال أبوها إنها كانت تعاني من الاكتئاب في الفترة الأخيرة.. ثم أراني زجاجة الحبوب الفارغة التي وجدها بجوار سريرها.
ولحسن حظها فإنها لم تأخذ جرعة قاتلة من الحبوب. وبمساعدة المنشطات والحقن المقوية استطاعت أن تستعيد قواها تدريجياً.
كانت تدعى سميرة.. وتبلغ من العمر اثنين وعشرين عاماً.
وكانت بنت أحد أثرياء التجار السعوديين.. كما أنها كانت جذابة جداً.
واثناء فترة نقاهتها في المستشفى روت لي أنها درست لمدة ثلاث سنوات في جامعة كاليفورنيا وكانت تنوي أن تصير مدرسة وكانت تريد العودة إلى جنوب كاليفورنيا لإنهاء دراستها، عندما صدر مرسوم ملكي يمنع كل نساء السعودية من السفر إلى الخارج بغرض الدراسة حتى لو صحبها أقرب أفراد عائلتها أو زوجها.

فسألتها: ولماذا فعلوا هذا؟
ــ الزعماء الدينيون (العلماء) يمارسون ضغطاً قوياً ويفرضون على النساء قيوداً جديدة. إنه الصراع المعتاد بين التحديث والتقاليد الإسلامية. فالملك خالد ليس تقدمياً كالملك فيصل.
ــ ألا تستطيعين إستكمال دراستك في جامعة الرياض حيث ثلث الستة عشر آلاف دارس من النساء؟
ــ لا، لأن نساء هذه البلاد يدرسن في إطار التقاليد الإسلامية وتعاليم الأخلاق القديمة.. والكلمة هنا للزعماء الدينيين. كما أنهم يخصصون جزءاً كبيراً من الوقت لتلقين القرآن للنساء ــ ويوجد مدرسات فقط ــ وليس للفتيات أي علاقة مطلقاً مع الرجال أو العالم الخارجي.
ولكني نبهتها إلى أن النساء قد أحرزن تقدماً كبيراً في السنوات العشرين الأخيرة واصبح عدد التلميذات الآن خمسمائة ألف في المدارس الأساسية والعالية. كما توجد جامعة للنساء في الرياض وأخرى في جدة ستفتح قريباً.
اقتربت بمقعدي منها وسألتها بصوت خفيض:
سميرة ــ ما هو السبب الحقيقي الذي جعلك تأخذين هذه الحبوب؟
فانفجرت في البكاء.
لقد كانت تحب ــ على حد قولها ــ أحد الأمريكيين وكان كلاهما يعرف أنه ليس لهما أي فرصة، فعائلتها لن توافق عليه ابداً. ولما كانت تحب عائلتها فإنها لم ترغب في أن تجلب لها العار. وفوق ذلك فإن الحكومة قد قررت حديثاً أن مثل هذه الزيجات غير شرعية.
ثم أردفت باكية: والآن لن أراه أبداً.
ــ إنك إمرأة جذابة جداً ومن المحتمل أن تتعرفي على شخص آخر.
فهزت رأسها.
لقد عثرت عائلتها على أبن عم لها سوف يتزوجها. ولكنها قررت أن تقف ضد هذا الزواج لأنها لا تعرف هذا الرجل وترفض أن تتزوج رجلاً لا تعرفه.
ثم استطردت: بخلاف ذلك كان خجولاً جداً ولم تسنح لي الفرصة قط لكي أتحدث معه.
ــ ما هي حكاية التليفون؟ فقد سمعت أنه يتم التعارف في السعودية أساساً من خلال التليفون.
ــ لم يحدث هذا عندنا في الماضي.. ولكن في أيامنا هذه يتصل عدد كبير من النساء السعوديات برجال ليسوا من نفس الأسرة ــ هل تعرف أن التحدث إلى مثل هؤلاء الرجال ممنوع ولكن ذلك يتم عن طريق التليفون وأحياناً يتصلن عشوائياً برجال لم يعرفوهم من قبل.. فكل ما لديهن هو رقم تليفون.

قلت لها محاولاً إبداء التفاؤل: ــ ألا رأيتي؟ إن الجيل الجديد أكثر حرية. فلديك الحق في رفض الرجل الذي اختاروه لك، وقد قرر الزعماء الدينيون السماح للرجل بالنظر إلى وجه عروسه قبل الزواج، وهذا بلا شك تقدم كبير.

فقالت سميرة وهي تبتسم: قد يكون ذلك مصيبة بالنسبة لبعض النساء.

نهضت استعداداً للذهاب وقلت: يبدو لي أن حالتك أصبحت أفضل فقد عادت اليك روح المرح. إلى اللقاء غداً.

وفي اليوم التالي جاءت فتاتان لزيارة سميرة. أختها وسيسة، والتي كنت قد تعرفت عليها، وبسامة بنت عمها. وعندما كنت أدق الباب على سميرة التقطت الفتاتان حجابهما.. ولكنهما وضعتها جانباً أثناء حديثنا.

كانت وسيسة تكبر سميرة ست سنوات كما كانت متزوجة ولها أربعة أطفال وكانت تستطيع القراءة والكتابة وأنهت دراستها في المدرسة المتوسطة وكانت نظرتها للأمور تقليدية.. أما زوجها فكان يملك محلاً.

كان يبدو أنها تختلف عن سميرة كثيراً.

أما بسامة فكانت أيضاً أكبر من سميرة بعام واحد وكانت تعمل في الحكومة كأخصائية اجتماعية.. وقد درست في جامعة الرياض وكانت متزوجة وليس لها أولاد.

كانت بسامة تعمل في مكتب لرعاية شؤون الأيتام والأطفال غير الشرعيين وقد روت لي أنه إذا ولد طفل غير شرعي في المستشفى فإنهم يقومون بإبلاغ الشرطة ويتم جلد الأم في العلن حسب الشريعة الإسلامية ونتيجة لهذا فإن الأمهات يتركن أطفالهن. . غالباً في الجوامع.

فقلت لبسامة: إنني لم اقابل حتى الآن امرأة سعودية عاملة، لان مستشفانا لا يوظف ممرضات أو مساعدات فنيات أو سكرتيرات سعوديات بالرغم، من أننا كلفنا نساء مسلمات من مصر ولبنان بهذه المهمات.

فأوضحت بسامة لي: إن النساء السعوديات يعملن في المجال الاجتماعي والتدريس والطب والتمريض. ولكن في مؤسسات تدار من خلال النساء ومن أجل النساء فقط.

ثم قالت: وعلى سبيل المثال فإنه يوجد بنك في جدة للنساء فقط حتى البواب امرأة، وإذا أدير بوتيك أو مطعم بواسطة النساء ودخله الرجال فإن أعضاء" جمعية حماية الفضيلة والقضاء على الرذيلة" يقومون بإغلاق هذا المحل.

ثم هزت رأسها في حزن بينما كانت تمسح بيدها على الحجاب جانبها.

فقلت أنا: إن هناك اثنين مليون أجنبي بين القوى العاملة في بلدكم. فإذا عمل النساء فإن السعودية سوف تعتمد بصورة أقل على العمالة الأجنبية. هل تعتقدين إن ذلك سيحدث في يوم ما؟

فقالت بسامة: ليس في المستقبل القريب.. فالرجال لا يريدون لنا العمل ويقولون إن النساء العاملات يهملن أولادهن وأزواجهن ويضعفن البناء الأسري. ثم وقفت وأخذت تذرع غرفة سميرة الصغيرة جيئة وذهاباً ثم قالت:

إن زوجي يقول إن النساء المثقفات يبحثن عن الشجار ولا يهتمن بأداء واجباتهن المنزلية.. وفي الحقيقة فإنه يخاف من أن نتعلم لنبني لأنفسنا آراءنا الشخصية. وبمرور الوقت سوف تأخذ نساء أكثر حظهن من التعليم العالي ولسوف يفكرن مثلي. ولكن ذلك سيستغرق وقتاً طويلاً.

ثم سكتت وظهر عليها أنها غالباً ما تتصارع في بيتها بهذه الحجج.

تطاير الشرر من عيني سميرة وهي تقول: إن حقوق المرأة في هذا البلد ضئيلة جداً فاقل من 10% من النساء يمارسن العمل ولا تستطيع المرأة فتح محل إلاَّ بموافقة كتابية من زوجها أو أحد رجال عائلتها.

والقانون يعتبر المرأة السعودية نصف إنسان فهي ترث النصف فقط مما يرثه الرجل وشهادة الرجل أمام المحاكم تعادل شهادة امرأتين. وحتى الدية التي تدفع للمرأة التي تموت ضحية حادث طريق تبلغ نصف ما يدفع للرجل.

جلست بسامة عند مؤخرة سرير سميرة ــ كما لو كانت تعلن تضامنها مع إبنة عمها الصغيرة أما وسيسة فقد غاصت أكثر في مقعدها وبدا عليها أنها تفضل أن تلبس حجابها.

ثم أضافت سميرة: إن الحجاب يحمي جسدنا ولكن لا يستطيع أن يقيد روحنا. إن المحور المهم والخطير في مسألة المساواة بين الجنسين ليس هو الحجاب ولكن الذي يختفي وراءه. واهتمام النساء السعوديات من جيلنا بالمساواة باستمرار، كما أننا في ثورة حضارية ونقع بين شقي الرحى بين تراث ماضينا والعالم الحديث خارج حدودنا، وعندما ذكرت تعبير العالم الحديث..نعمت ملامح وجهها واعتقدت أنها ستجهش بالبكاء ولكنها كانت غاضبة لدرجة تمنعها من البكاء. أخذت وسيسة ــ والتي كانت تتبع حديثنا بانتباه ــ طرف الحديث وقد بدا عليها الغضب بينما كانت يداها تعالجان إطار الحجاب: ــ إن البحث عن مساواة الرجل بالمرأة ليس له جدوى. إنه نفس الشيء كما لو كنا نتحدث عن مساواة الورد والياسمين فلكل زهرة منهما عطرها الخاص ولونها الخاص وملامحها الشخصية وكذلك يختلف الرجل عن المرأة.

حاولت بسامة أن تقاطعها ولكن وسيسة ــ باعتبارها أكبر الثلاث سناً ــ أشارت لها أن تسكت وأضافت:

إن المرأة ليست على قدم المساواة مع الرجل ونفس الوضع بالنسبة للرجل أيضاً فهو لا يتساوى مع المرأة ولكن هذا لا يخلق مشكلة لأنهما لا يتصارعان، بل إنهما يكملان بعضهما البعض كما يقول الإسلام.

فالرجل مسؤول عن الإنفاق على أسرته حتى ولو كانت زوجته غنية، وفي المجتمع الإسلامي الأصيل لا تضطر المرأة للعمل لكي تنفق على نفسها.

وإذا هجرها زوجها فإن مكانها في العائلة محفوظ.. والزوج في الغالب لا ينفق على زوجته فحسب بل على اقاربها أيضاً إذا أعوزتهم الحاجة.

فلماذا ينبغي أن تعمل المرأة ثم فردت يديها وانها تستغني عن الإجابة.

كان الاستماع إلى هؤلاء النساء وهن يتناظرن أمراً شائقاً وذكرني ذلك بأن سلطانة كان لها نفس الرأي.

ثم قالت بسامة لوسيسة: لا أريد أن أكون "ست بيت" فقط. ثم التفتت ألليَّ وقالت: إني أنتظر أكثر من الحياة.

فاحتجت وسيسة: ــ وما هو الضرر في أن أكون ست بيت وأهتم بشؤون أسرتي فأنا مسؤولة عن بيتي وأولادي. ولا يهمني الحرب والسياسة إنها أشياء لا ينبغي للنساء أن تعلم بها.. فواجبي الوحيد هو واجبي نحو بيتي وأولادي واسرتي، إنهم عالمي.

ثم اعتدلت وكانها تتأهب للذهاب،بينما كانت بسامة تهز رأسها فقط.

قلت لوسيسة محاولاً تهدئة النفوس المتأججة: وبالعكس فالسعوديون يقدسون أمهاتهم، وقد أخبرني الكثيرون أنهم لا يتركون يوماً يمر دون أن يتحدثوا مع أمهاتهم.. ويبدو أن أفراد الأسرة المالكة على وجه الخصوص يأخذون هذه المسألة بعين الاعتبار.

ثم قالت وسيسة: كمعظم الزيجات في السعودية كان زواجي أيضاً قد تم عن طريق الأهل. وهو زواج سعيد.. فأنا لا أحتاج أن أبيع نفسي أو ارضها من أجل الحصول على زوج، ولم أدخل ايضاً "بار العزاب" أو سجلت نفسي في كمبيوتر "خدمات الزواج" ولم اقع في غرام متعب أوفي زواج التجارب، ولم أجهد نفسي للبحث عن زوج ولم أحس أنني أضعت الفرصة لأنني لم اقم بمغامرة غرامية أو لعدم مشاركتي لرجل في حياته، غير زوجي.

إن نظام إختيار شريك الحياة المتبع في الغرب نظام همجي فالزواج الذي يؤسس على شعور اللحظة يحكم علي بالفشل مسبقاً.

أعجبت بسياق وسيسة للحجج أنني كنت أختلف معها في الرأي،أثناء ذلك كانت سميرة تفكر في صديقها، والذي من المحتمل.
أنها كانت على علاقة حب معه، وتركته وحيداً في أمريكا.
فقد كانت تغلق عينيها أثناء ما كانت وسيسة مستمرة في حديثها.
وعائلتنا تتروى كثيراً في أتخاذ القرار بهاذ الشأن. والمرأة السعودية تستطيع أن تنتظر في بيتها حتى يرتب الأهل موضوع الزواج والأهل لهم بالطبع خبرة أكبر في هذا الشأن، وغالباً ما تكون مثل هذه الزيجات سعيدة.
فقالت بسامة بصوت خفيض: ــ ولكنني لست متأكدة من هذا.
ولقد رتب أهلي أيضاً زواجي وهو من وجهة نظري ليس زواجاً سعيداً بهذه الدرجة. ولكني أجتهد في هذا الشأن، والحياة التي توصفينها تبدو وكأنها مملة جداً للمرأة. فهي لا تستطيع عمل أي شيء اللهمَّ الاَّ مشاهدة برامج التليفزيون أو الفيديو.. هذا إن استطاعت شراءه، أو أنها تتقابل من حين لآخر مع نساء اخريات من العائلة إذا قام زوجها أو ابنها بتوصيلها، إن ذلك يعتبر حياة بلا مضمون.
لمست بسامة أعماقي بصراحتها هذه التي وضحت بها حياتها الزوجية أمام ابنة عمها وأمامي أنا الغريب عنها. وبالرغم أن الفرق في العمر بينها وبين وسيسة كان ضئيلاً إلاَّ أنها كانت تسبقها..بنظرتها هذه للأمور بجيل كامل..
سكتنا للحظات، ثم حاولت تصفية الجو المعكر برواية أحد الأحداث التي مررت بها وقلت:
سوف أحكي لكم مدى العمل الملل الذي يمكن أن تصاب به النساء في هذه البلاد.
ثم أخبرتهم أنه في عصر أحد الأيام من شهر ديسمبر أي بعد وصولي بقليل أخبرتني عاملة التليفون في الخامسة عصراً أن الأميرة "فاطمة" قد اتصلت.. وسألتني ان كنت استطيع أن أذهب إليها في فندق "انتركونتنتال" لأعالج آلام الصداع الفظيعة التي أصابتها.
وكان فندقها يقع في الطريق إلى الفندق الذي أنزل فيه. فأخذت حقيبتي السوداء التي بها كل ما أحتاج اليه في مثل هذه الحالات.
وانطلقت بسيارة المستشفى إليها. حينذاك لم أكن قد عرفت أن الزيارات المنزلية تمنعها لوائح المستشفى.
وعندما وصلت هناك وجدت نفسي أمام امرأتين جميلتين في الثلاثين من عمرهما تقريباً كانتا ترتديان الملابس الطويلة الانيقة المزركشة.

أما المرأة المصابة بالصداع فكانت تتمدد في وضع خلاب عل ديوان، وقد استغرقت في قراءة جريدة..وأما المرأة الأخرى فكانت أختها. كانت الاثنتان تعيشان في الجهة الشرقية.. كما كانتا متزوجتين من أميرين سعوديين شهيرين جداً.

وقد أخبرتاني أنهما في زيارة لأهلهما في الرياض. أما الحجاب فكان لا وجود له.

قمت بقياس ضغط الدم للأميرة فاطمة، الفتاة الراقدة على الديوان، وتفحصت عينيها واختبرت رد الفعل، فوجدت كل شيء عادياً.

ثم اقتربت أختها مني وقالت: إنها أيضاً تعاني من آلام الصداع وسألتني أن أقيس لها الضغط.

ومرة أخرى وجدت كل شيء عادياً.. وأطلقت الأختان تأوهاً مبالغاً بعد عدة دقائق دق الباب لتظهر إحدى بنات عمها محجبة تماماً وتضع عباءة على فستانها الطويل الجميل.. كان تكبر الفتاتين الأخريين وكانت ممتلئة الجسد بعض الشيء، أما زوجها.. الذي كان ايضاً أميراً، فكان أحد مرضاي.. وأثناء ما كنت أعيد أجهزتي إلى الحقيبة نزعت هي حجابها وانضمت إلى المجموعة وزعمت أيضاً إصابتها بالصداع وسألتني أن أقيس لها ايضاً ضغط الدم.. وعندما كانت تمد ذراعها نحوي، كانت خواتمها تبرق في الضوء الخافت.. وفجأة خطر ببالي أن حكاية الصداع ما هي إلاَّ خدعة.

فهؤلاء النسوة يشعرن بالملل ويبغين التسلية بوجه جديد.. على سبيل المثال طبيب أمريكي.. ولا يمثل وجوده خرقاً لتعاليم الإسلام.

بعدما أخطرتهن أنه لا يوجد داع للقلق فدعونني للبقاء من أجل شرب الشاي واستدعين الخدم بالفعل قبل أن أستطيع الرفض.

وأثناء ما كنا نشرب الشاي سألتني مرة أخرى عن أسباب الصداع؟

فنظرت حولي لأرى الأسراف في تجهيزات جناحهم والثياب الجميلة المطروحة بلا عناية على السرير والمجوهرات على المنضدة وأحدث مجلات "الموضة" الملقاة على الأرض.. وقلت لهن بصراحة: ــ إنه الملل. فليس لديكن ما تفعلنه يا سيداتي.

فقالت الأميرة فاطمة تطلب المساعدة: وماذا ينبغي أن نفعل؟

فقلت: نحن نحتاج في المستشفى إلى مترجم فلِمَ لا تتطوعين بذلك؟

فسألت وقد اتسعت عيناها: ومتى يبدأ العمل عندكم؟

فقلت: في الثامنة صباحاً.

فقالت أختها الراقدة في الديوان: ولكننا لا نستيقظ قبل الظهر.

وقد كنت أعرف أنه لن يسمح لهن بالعمل بالمستشفى بين الرجال فمكان المرأة هو بيتها على حد قول وسيسة. فالمرأة ملتزمة برعاية زوجها وأسرتها أما بنفسها فلا .

بعد ان أنهيت حكايتي قالت بسامة: صداع.

فضحكنا جميعاً..

بعد ذلك بقليل وضعت هي وسيسة الحجاب على وجهيهما وودعتا مريضتي. كانت سميرة على حق فمشكلة المرأة ليست في الحجاب ولكنها في أسلوب الحياة الذي يختبئ وراءه .

الفصل العشرون

الموت في الإسلام

إن الإنسان يمتلك الغريزة الفطرية لحب البقاء على قيد الحياة.
وهذه الغريزة لازمة للحفاظ على النوع وهي تنتشر في مملكة الحيوان كلها وبالرغم من أن الإنسان قد طور هذه الغريزة في العصور الحديثة حيث استطاع أن يختار بين الحياة والموت إلاَّ أن الطبيب ملتزم بالحفاظ على الحياة بأي ثمن بغض النظر عن تدهور حالتها. وهو يفعل ذلك بكل ما يملك من غريزة. وإن كان يقوم بذلك عن تبصر ومن خلال التوقع والخبرة إنه هو المقاتل الصامد أمام الموت.
الموت الذي يقابله الطبيب مرات عديدة أثناء حياته العملية والذي يصبح شيئاً فشيئاً عدوه الحميم.
كنت طبيب امتياز، في الرابعة والعشرين من عمري، عندما مات أول مريض بين يدي كنت أتولى علاجه وكانت هذه هي أول مرة أرى فيها إنساناً تفيض روحه. كان مريضي هذا صبياً جميلاً في السادسة، ذا عيون زرقاء وشعر أشقر مجعد. وكان مصاباً بالتهاب رئوي، ضاعفه تسمم في الدم.
وقد قمت أنا الطبيب المشرف على علاجه، والذي كان طبيب أطفال من الدرجة الأولى، بالسهر على علاج هذا المريض طوال الليل لحقنه بمصل خاص لم يظهر أي فاعلية. أما البنسلين فلم يكن في متناول اليد في ذلك الوقت.
وبسبب الألم الذي غرقت فيه وخيبة الأمل التي أصبت بها، اعتقدت أنه من الممكن ألاَّ يكون الله قد خلق مثل هذه الأشياء. بعد ذلك عرفت أن هذه النظرة تبعد كل البعد عن تعاليم الإسلام.
جرى الوقت بسرعة في السعودية. وها هو صديقي الحميم فيليب ويستبروك قد غادر المستشفى وعاد إلى لندن وكان عليَّ أن أتبعه.
كانت حياتنا أنا وفيليب مشتركة. وها أنا ذا أشعر بالفراغ من بعده فعندما يلتقي شخصان، لم تكن بينهما علاقة من قبل،ثم تنشأ لديهما نفس الاهتمامات في مجتمع غريب على كليهما، فيتعلقان ببعضهما البعض، ويخلق هذا اللقاء صداقة أبدية بينهما.

***

أصبح المستشفى الآن يمتلئ عن آخره بالمرضى بصفة دائمة.
اللهمَّ إلاَّ في العطلات. فقد كان الأبطاء يتنافسون في تحويل المرضى إلى المستشفى.أما أكثر الأمراض انتشاراً فكانت الأمراض الطفيلية والمعدية والسل والسرطان وأمراض السكر والأميبا والدوسنتاريا.
أما سبب انتشار هذه الأمراض فكان سوء حالة الأدوات الصحية، وانتشار الذباب، واستخدام مخلفات الإنسان في السماد. وغالباً ما تساهم نفس هذه العوالم في الإصابة بالإلتهاب الكبدي وهي عدوى خطرة تصيب الكبد وغالباً ما تؤدي إلى التليف والسرطان.
إلاَّ أن التيفوس والحمى المالطية فلا تنتشر بصورة كبيرة في هذه البلاد كما كنا نتوقع وهي أمراض تنشأ بسبب تلوث المياه أو الطعام.
وكان عدد كبير من المرضى في العيادة الخارجية مصابين على نحو بسيط بالسكر واحتمال أن يكون زواج الأقارب هو السبب في انتشار مثل هذا المرض.
أمّا الأمراض التناسلية فلم نصادفها إلاّ نادراً.
وكان الكثيرون من مرضى السكر يأتون إلينا من جميع أنحاء المملكة بسبب الوسائل الحديثة التي يستخدمها مستشفانا في العلاج. وكان ينتشر بينهم السرطان الذي يصيب القناة الهضمية والكبد والدم والأمعاء الدقيقة. ولقد اندهشنا جميعاً من ان السعوديين كان من النادر جداً ان يصابوا بارتفاع ضغط الدم أو أمراض الشرايين التاجية أو القرحة.
ونحن لا نعرف إن كان هذا نتيجة عدم إصابتهم بالتوتر وقلة استخدامهم للملح في الطعام.
أما المصريون واللبنانيون والفلسطينيون والذين يستخدمون الملح بكمية كبيرة ويقعون فريسة للتوتر، مثل الشعوب في غرب أوروبا، فإن هذا الأمراض تنتشر بينهم تماماً مثلما تنتشر في الغرب.
وسألت نفسي يا ترى ما هي النتائج التي نراها بعد عشر سنوات لأثر المد الحضاري على الشعب السعودي.
بينما كنت أتناول طعامي في صالة الطعام، طلب مني أن ألتقي بستة اطباء سعوديين أتوا لزيارتنا، كانوا جميعاً يرتدون نفس الملابس، الثوب الأبيض التقليدي والغطرة.
وأثناء تناولنا للحلويات بعد الطعام اعترتهم الدهشة لما أشرت على اثنين منهم وقلت: لا يمكن أن تكونا سعوديين، أصيب الطبيبان بالحيرة ثم أقرا أنهما مصريان، اكتسبا الجنسية السعودية، وهما في الخامسة والثلاثين من عمرهما تقريباً. ثم سألني أحدهما: وكيف عرفت ذلك؟
ــ لأنكما الوحيدان اللذان وضعا ملحاً على طعامهما، أنتما وأنا.

وفي السعودية تسود حقيقة أن المرض هو قضاء الله لا يمكن رده.
وإذا سلمنا بهذا فلا نجد معنى لأن ندافع عن أنفسنا تجاه ما كتبه الله علينا كمثال لهذا الخضوع الكامل للقضاء والقدر كانت هذه الأميرة السعودية التي في الخمسين، والتي جاءت من جدة مع طبيبها المصري وعدد من الخدم إلى مستشفانا وكانت تعاني من اليرقان وارتفاع درجة الحرارة وآلام شديدة. وقد كشفت الفحوص عن حصوات صفراوية، كانت تسد بعض قنوات المرارة مما أدى إلى المغص واليرقان ولقد ساءت حالتها الصحية أكثر بسبب إصابتها بعدوى شديدة في كيس الصفراء. ثم اندفعت البكتريا إلى الدم لتحدث تسمماً فيه.
وبعد وصولها بقليل أصيبت الأميرة بصدمة وكادت أن تموت.
أعطيتها حقنة في الوريد تحتوي على مضاد حيوي خاص اسمه "جنتاميسين" والذي كان مناسباً تماماً لنوع العدوى المصابة بها الأميرة.
وبعد عدة أسابيع كانت قد استعادت قواها. وأخبرتها أنه من الضروري إزالة كيس الصفراء المصاب لانه من المحتمل ظهور اليرقان والمغص الصفراوي مرة أخرى لو بقي الكيس، وكذلك التسمم في الدم يؤدي إلى الوفاة.
فقالت لي بالعربية: العبد في التفكير والرب في التدبير، أنا اريد العودة إلى المنزل، توكلنا على الله .

****

وبعد ثلاثة شهور اتصل بي الطبيب المصري مساء يوم أحد وأخبرني أن الأميرة مريضة جداً وأهلها يودون حضورك إليها. وهي مريضة بدرجة تمنعها من السفر إنه أمر مُلِحَ للغاية. فقلت له: سوف آخذ أول طائرة، في ظهر اليوم التالي وبعد الثانية عشرة كنت قد وصلت إلى جدة، وكان طبيب الأميرة في انتظاري بالمطار وبادرني قائلاً: لفظت الأميرة انفاسها الأخيرة صباح اليوم، وقد وافتها المنية فجأة، وعائلتها في حيرة كبيرة وخاصة النساء.

بعد ذلك اكتشفت أن ما قاله الطبيب كان تعبيراً متواضعاً للغاية فعندما وصلنا أمام الفيلا إذا بي اسمع صرخات عالية تنم عن الحزن والألم كان حوالي عشرون امرأة قد تجمعن في إحدى الغرف وقد أخذهن الحزن وكن يلبسن الملابس البيضاء من الرأس حتى القدم، فاللون الأبيض هو لون الحداد في السعودية.

حتى رؤوسهن ووجوههن كانت مغطاة بالحجاب الأبيض كان البعض منهن يبكي والآخر يصرخ زيضرب على صدره والجميع ينوح في الغرفة.

وقد أصيب بعضهن بتقلصات تشنجية.

كان سببها المحتمل هو الشهق الناتج عن الألم أو الهستيريا، وكانت هناك طبيبة هندية ترتدي الساري تنتقل من واحدة إلى الأخرى لتضع ملعقة في فمها حتى تمنعهن من ابتلاع ألسنتهن أو من الاختناق.

وكانت تعطي البعض منهن حقن مهدئة حتى يستطعن السيطرة على حالات التشنج.

ثم انهارت اثنتان منهن فحملهما الخدم خارج الحجرة. وكان يوجد بينهن أمير طويل القامة، وأخذ أعضاء الحكومة المهمين. كان الأمير يحرك ذراعيه تحت العباءة كما لو كان طائراً كبيراً وكان يحاول إعادة الهدوء إلى المكان مرة أخرى قائلاً: "إهدئي... إهدئي".

وقد أراد بعض الخدم أن يعبروا عن حزنهم فأخذوا يشدون شعورهم ويخبطون على رؤوسهم.

وقد عرفت بعد ذلك أن الإحترام للمرأة الحزينة يزداد كلما ازداد إظهار الألم.

كان جزء من هذا المشهد صادقاً بينما بدا الجزء الآخر مفتعلاً أو هستيرياً ولقد كنت آمل لو أنهن اشتركن بمجهودهن هذا في إقناع الأميرة بإجراء العملية التي كان من المحتل أن تنقذ حياتها.

والشيء الغريب أن هذه الطريقة للتعبير عن الألم تنتشر في الحجاز على امتداد ساحل البحر الإحمر حيث تقع مكة والمدينة وجدة. ولكنها كانت ممنوعة في نجد قلب البلد، حيث تقع الرياض أيضاً.

وفي نجد تنسحب النساء منزوين. بينما في الحجاز تلتزم الأسرة المنكوبة بفتح بيتها للأصدقاء ليأتوا ويبدوا مشاطرتهم للأحزان، ويبدأ البكاء والحزن من جديد.

وفي حجرة كالحة جرداء لا يوجد بها إلاَّ السجاد، كان يتم تقديم المشروبات وكان يوجد هناك مقرئ واعظ.

وقد رأيت نفس ما رأيت عند وفاة الأمير إبراهيم، فالحزن على الميت وطريقة التعبير عن الحزن كانا يخالفان تعاليم الوهابية المتشددة.

ولا أحد يعرف لماذا سارت منطقة الحجاز شيئاً فشيئاً في هذا المجال وفي كل مكان من البلد يتم غسل الميت ولفه في كفن أبيض ودفنه بكل سرعة ممكنة كما أن شواهد القبور ممنوعة في كل مكان وكذلك الحال بالنسبة للأضرحة.

كان "ساتام" والأميرة مثالين واضحين لتسليم السعوديين بالقدر وقبول كل ما يقضي به أعتقاداً انه قضاء الله لا راد له.

على أن السلبية والتواكل تجاه المرض ليست صفة عامة بين المسلمين. وكما في كل الأحيان يوجد أيضاً في الإسلام درجات وطبقات في الإيمان، فاللبنانيون والفلسطينيون وكذلك السعوديون المثقفون والمتدينون أصبحوا يثقون في الطب الحديث أكثر من ذي قبل، خاصة بعد التعود على التجهيزات الطبية وبعد ثبات مفعولها.

وهكذا يكون رد فعل السعودي غير المتشدد ضد المرض الذي يصيبه فهو يناضل من أجل حياته على إيمانه المتيقن بالله.

وقد ضربت إحدى المريضات مثالاً على ذلك، كان اسمها رديفة وتبلغ من العمر خمسة وثلاثين عاماً ولها ثلاثة أطفال وكانت سعودية أصيلة، أما زوجها فكان فلسطينياً يعمل في بنك بالرياض وقد أجريت لرديفة عملية في المستشفى لاستئصال ورم خبيث في الأمعاء الدقيقة.

وهو نوع من السرطان ينتشر في هذه المنطقة من العالم.

وبعد العملية لم تكن قادرة على الاكل بالطريقة الطبيعية بسبب استئصال جزء كبير من أمعاءها.

وعندما رأيتها أول مرة كان وزنها خمسة وثلاثون كيلو جراماً وبدت وكانها هيكل من العظام.

وطلب مني الجراح الذي أجرى لها العملية أن أقوم بفحصها، فقد كان يرى أنه بالرغم من نجاح العملية فإنها لن تعيش طويلاً بسبب نقص الغذاء مع أن شهيتها للطعام كانت لا بأس بها.

وقد حل اليأس برديفة وزوجها. قالت رديفة لي: لابد ان تساعدني فأنا عندي زوج وثلاثة أطفال صغار يحتاجون الى وجودي وأنا أفقد شيئاً من وزني كل يوم مع أنني آكل بصورة عادية.

فذكرت لها اسم مكمل خاص للتغذية، كان عبارة عن مسحوق يمتصه الجسم بسهولة بعد إذابته في الماء.

ثم قلت لها: إنه الدواء الصحيح لحالتك فإذا شربت كل يوم ستة أكواب من هذا المزيج فإن وزنك لابد أن يزيد وشربه يتطلب منك شيئاً من التحمل لأن مذاقه ليس طيباً فقالت: ومتى استطيع البدء في هذا . فقمت بالاتصال بالصيدلي، فعرف هذا الدواء، ولكن لم يكن متوفراً عنده.

فشرحت له المصاعب التي تواجهها رديفة ورجوته أن يتصل بالولايات المتحدة ويطلب إرسال الدواء على الخطوط السعودية إلى الرياض.

وفي خلال أسبوع كان المسحوق قد وصل في وعاء معدني مبرشم.

كانت رديفة متشوقة إلى بدء العلاج لدرجة أنها أخذت من المسحوق أكثر من اللازم مما أضطرها إلى القيئ وما أن حافظت على النظام الغذائي حتى استطاع جسمها امتصاص1500 وحدة شعرية، وفي خلال أربعة شهور كان وزنها قد ازداد عشرة كيلو جرامات، بعد ذلك صارت تاتي مع زوجها كل اسبوعين إلى العيادة الخارجية للاستشارة وفي إحدى زياراتها للمستشفى أحضرت معها طفلين لكي اتعرف عليهما ثم أخذت تبكي من فرط السعادة.

ثم حاول زوجها أن يشكرني بينما كان يحاول تهدئة زوجته. ولكنه لم يستطع هو أيضاً منع نفسه من البكاء فقلت لها: إنه العلاج هو الذي ساعدك فلست بحاجة إلى تقديم الشكر لي. وعندما ذهبوا كان كل الأربعة يلوحون بأيديهم مودعين. ثم فكرت، أن رديفة ستحمد الله أيضاً على موقفها الإيجابي هذا لأنه ساعدها بلا شك على البقاء على قيد الحياة .

****

وكمعظم المسلمين فإن السعوديين يريدون الموت في بيوتهم.
مروان الحماد، بدوي من المحافظة الشرقية يبلغ من العمر الثمانية والستين، طويل ونحيف،ذو ملامح حادة وعيون سوداء نافذة، لأول وهلة بدت لي بشرته وكان الشمس قد لوحتها وقد غطت البقع كف يده، وكان بياض عينيه بيناً ضارباً إلى الصفار.
أما الوهلة الثانية فكشفت عن كل شيء. مروان مصاب بيرقان شديد. كان مروان يجلس مطمئناً في مقعد مريح في غرفة المرضى. بينما كان يجلس أمامه رجلان آخران.
وكان الثلاثة يرتدون الثياب البيضاء، مما أظهر بجلاء بشرة مروان الصفراء وكانت لحاهم مهذبة وسوداء كالليل البهيم إلاَّ أن مروان كان قد ظهر عليه الشيب، وكانت بشرة الثلاثة مجعدة وجافة. وكانوا يتحادثون بجدية وهدوء بينما كان ينظر كل منهما بتأمل في عين الآخر.
وعندما دخلت أنا والممرضة ــ المكلفة بالترجمة ــ إلى الحجرة نهض ثلاثتهم واقفين . وقام مروان بتعريفي على أخيه وابنه اللذين كانا أكبر أفراد أسرته وقد أتيا ليتحدثان معي عن مرضه.
سألني أخوه: ما هي نتيجة التحاليل والفحص.
فقلت لهم نفس ما أخبرت به مروان وهو أنه يعاني من سرطان الكبد، الذي امتد إلى مناطق أخرى من جسده، كان هذا أيضاً هو السبب في إصابته باليرقان والآلام التي كان يعانيها. كما أن حالته خطرة وقد تخفف العملية من حدة اليرقان ولكنها لن تقضي على المرض فالسرطان لا يمكن استئصاله.
فسألني ابنه وهو ينظر بثبات في عيني والذي كان ينصت اليَّ بانتباه:
وهل يمكن للدواء أن يساعده؟
فقلت له: علاجه ببعض المستحضرات الكيماوية أو بالأشعة يمكن أن يحد من سرعة انتشار السرطان ولكنه لا يوقفه، وهذا العلاج يستطيع على كل حال أن يطيل عمره.
فسألني أخوه: إلى أي حد؟
ــ احتمال لعدة شهور، ولكني لا أستطيع تحديد ذلك على وجه الدقة فعاد يسألني: هل سيسبب له العلاج مضايقات؟
فتدخل مروان الجالس على مقعده في المناقشة وسال: وكم سأعيش بدون علاج؟
ــ فقلت بعد أن التفت إليه: حقيقة، لا اعرف، محتمل أن تعيش ستة أشهر أو أكثر، هذا شيء يصعب تحديده بالتأكيد.
فقال مروان بهدوء: الله كريم.
أخذ الرجال الثلاثة ينظرون إلى بعضهم البعض ويهزون رؤوسهم.

فعرفت أن الحديث قد انتهى.

أسرني الإعجاب بطريقتهم التي ألقوا بها هذه الأسئلة الصعبة ثم نهضت وصافحت الثلاثة.

وعندما كنت أشد على يد مروان قال لي في بساطة وكرم: شكراً إني أود الموت على فراشي إنها إرادة الله، إنا لله وإنا إليه راجعون.

كانت هذه هي المرة الأخيرة التي رأيت فيها مروان، وكما تنص تعاليم الإسلام، خضع مروان لمشيئة الله وكذلك ارتضاها وتفهمها أخوه وابنه.

كان مروان يقابل الموت بصلابة وكرم. فقد كان بين يدي الله وهو يمني النفس بنعيم الفردوس. وقد استطاع إيمانه بالقضاء، الذي لا رد له والذي يسميه العرب "قسمة" ونعرفه في بلادنا "بقسمت" أن يحده بالسكينة وثبات الجأش وربما كان قراره بالموت في البيت قراراً حكيماً.فلا يوجد علاج فعال لمرضه، ولو وجد أقل احتمال لشفائه لكنت أقنعت مروان بالبقاء في المستشفى ولكنه كان سيطول عمره في أفضل الحالات لعدة شهور فقط وكان في مقابل ذلك سيتالم كثيراً والعلاج في بعض الأحيان يكون أشد وطأة من المرض ذاته وهكذا فإن العناية في كثير من الحالات لا تبرر الوسيلة .

****

عندما يموت مروان فإنه سيوضع في القبر على جانبه وسييمم وجهه شطر مكة ولن تغلق عينيه كالحال في الغرب، لانهما سينظران إلى الجنة. حيث يسود الربيع الدائم وحيث الخضرة الوفيرة في الصيف والشتاء.

حيث تسيل الماء بغزارة حيث لا يوجد مرض أو جوع بل وفرة في الغذاء وهذا النعيم أبدي.

ويستطيع الرجل أن يحظى بكثير من الحور العين تلك الفتيات العذارى الجميلات إلى الأبد.

وكان أهل العشيرة سيعيشون معاً مع أصدقائهم واقاربهم في الجنة الخضراء. لا أحد منهم يبلغه الكبر ولا أحد منهم يموت.

وإذا كان لامرأة اطفال ماتوا في هذه الدنيا، فإنها ستقابلهم مرة أخرى في الجنة سيكونون في نفس عمرهم عندما ماتوا. وسيقابل الأبناء والديهم بالترحاب كما لو كانوا قد عادوا من رحلة بعيدة وستسطع الشمس ويضيء القمر والنجوم على الدوام.

وسيبقى الله على اتصال وثيق بأهل الجنة سيسمح أحياناً لأحبائهم الذين ما زالوا يعيشون على الأرض، بأن يزوروهم في الأحلام. أما الجحيم فهو على النقيض تماماً. فالصيف اليابس الحار يسود هناك: فلا يوجد حشائش خضراء ولا ينابيع ماء.

ولا توجد مراع كافية للإبل والأغنام والغذاء قليل.

وأهل النار سيكلون من حمل الماء من الآبار الغائرة أكثر من أي بئر في العالم، ليسقوا أهلهم وقطعانهم العطشى.

وسيظلون إلى الأبد أرقاء وعبيد عشيرة وضيعة عديمة الكرامة.

"كنت على يقين من أن مروان سيدخل الجنة" .

****

كنت أحاول إلاَّ يتجاوز تعاطفي مع المرضى حده حتى أبقى على موضوعيتي كاملة أثناء علاجي لهم.
ولكني لم أنجح في ذلك، مثلما حدث مع الدكتور غندور، الطبيب البالغ الخمسة والسبعين من عمره، والذي تعرفت عليه في قصر الأمير إبراهيم حيث كان الأمير قد أصيب بسكتة بسيطة.
كان دكتور غندور يعمل لسنين طويلة كأستاذ في كلية الطب بمصر.
ثم رحل إلى السعودية للعمل في خدمة الأمير الأسطوري إبراهيم.
ولقد أعجبت بهذا الطبيب، الطويل والملتحي والذي كان يرتدي الجلباب السعودي ويتكلم الإنجليزية والفرنسية والعربية وقد اثر فيَّ بأسلوبه المتحضر وعقله المتقد.
وأثناء الإقامة الطويلة للأمير إبراهيم في المستشفى التقيت به كثيراً وصرنا صديقين حميمين.
وبعد عام أصابني الفزع لما بدا دكتور غندور يسعل واكتشفنا أنه مصاب بسرطان رئوي لا شفاء منه، وقد أثبت فحص عينة من الأنسجة أن نوعية هذا السرطان لا تتجاوب مع العلاج بالأشعة.
وقد حاول أخصائي السرطان معالجته بالأشعة ولكنه قال إنها لا تؤثر فيه وان المعالجة بالكيماويات لا طائل من ورائها.
كنت أقوم بزيارته مرتين يومياً في المستشفى. وأقابله هو وعائلته في الخامسة كل عصر لنشرب الشاي سوياً.
أما زوجته والتي تصغره بعشرين سنة فقد كانت ايضاً مصرية الجنسية ولقد تعرف عليها في القاهرة، بينما كانت هي تحضر رسالتها تحت إشرافه في الجامعة.
وحسب معلوماتي فإن الدكتور غندور ولد في مارسيليا في فرنسا ودخل هناك أيضاً المدرسة وهو ينتمي إلى أسرة مسلمة عريقة وغنية.
ولقد عاش خمسة وعشرين عاماً في الرياض وحصل على الجنسية السعودية.
ولقد كان أسلوب دكتور غندور وزوجته في الحياة يتماشى مع الأسلوب الأوروبي وكواحد من أبناء السعودية كان يرتدي الثوب و"الغطرة" بينما هي ترتدي الحجاب ولكنهما كانا يعيشان حياتهما معاً.
وقد حكت لي زوجة الدكتور غندور، إن صديقاتها السعوديات ومن بينهن زوجات الأمير يحسدنها على العلاقة الوثيقة بينها وبين زوجها. ثم أضافت إنني حزينة من أجلهن، فهن يعشن وحيدات للغاية.

فقال دكتور غندور: إن السبب في ذلك أن أزواج هؤلاء النساء لا يعاملوهن مثلما أعامل أنا زوجتي.

فقالت زوجته: ولكن انت متزوج من واحدة فقط فلا ينبغي أن تنسى ذلك فضحكنا جميعاً.

كان الدكتور غندور وزوجته يسبحان بسعادة في ذكريات أيامهم الماضية في الرياض. وهما يريان أن التغيير الذي حدث في الخمسة وعشرين عاماً الأخيرة لم يحدث مثله في خلال مائتي عام، أي منذ سيطرة الوهابيين على البلاد.

وقد قال لي دكتور غندور: إن إلغاء الرق في عام 1962 أثر تأثيراً عظيماً على الحياة في السعودية. أما اكتشاف البترول فقد غير هذه البلاد تغييراً تاماً.

ولما سألتهما: هل كان عندكم عبيداً ذات يوم؟

فحكت لي زوجة الدكتور غندور إنهما ذهبا مرة إلى سوق العبيد لشراء خادمة. ثم استدركت قائلة: ولكني أبيت، لأنني كنت أريد جارية لتخدمني لا لتخدم زوجي، والجارية التي لا تكون حديثة السن ولا تكون جميلة يبلغ ثمنها حوالي ستة آلاف دولار. أما الشابة الجميلة فكانت غالية جداً، حوالي عشرة آلاف دولار. فالشابات منهن يعملن أساساً كسراري.

ثم هزت رأسها وبدا عليها الحزن وهي تقول:

عن الحياة كانت في هذا الزمن بسيطة وسعيدة والزوجات يعرفن أن أزواجهن يمارسن الجنس مع جواريهم. ولكنهن ــ أي الزوجات ــ كن يسيطرن على الأمور على نحو ما.

أما اليوم فالرجال يدفعون المال من أجل إرضاء غرائزهم حيث يجدون ذلك سواء في الرياض أو في أي مكان آخر. ولم يصبح للنساء أي تأثير بعد، ومعظم صديقاتي من السعودية، وهن غير سعيدات في حياتهن بسبب أزواجهن.

وقد كان لغندور ابنان. كانا عادة ما يشربان الشاي معنا.

أحدهما كان في التاسعة عشرة ويدرس في الجامعة بالرياض.

أما الآخر ــ دلال ــ فكان مقاولاً، يسافر في الغالب إلى جدة ويعود ليحكي لوالده عن المبالغ التي كسبها.

كان دلال في الثانية والعشرين وكان على حداثة سنه ناضجاً جداً وله خبرة واسعة بالدنيا وشؤونها.

وقد أخبرني أن الرق في السعودية لم يمثل قط مشكلة عرقية كالتي في الولايات المتحدة.

فقد كان العبيد مسلمين من الشرق الأوسط وكان غالباً ما تبيعهم أسرهم البائسة.

وبعض الأحيان كان تجار الرقيق يخطفون فتيات في العاشرة من عمرهن ويقومون بتربيتهن ويعلموهن الخدمة ثم يبيعوهن لما يبلغن الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة ويحصلون من وراء ذلك على ربح فحتم. ثم أردف دلال: لقد كان ذلك ببساطة "صفقة" وكان العبيد يأتون من جميع البلاد من سوريا، والسودان واليمن واثيوبيا وإيران وأفغانستان أو من العراق ولم يكن السعوديون يجدون عاراً في زواجهم من الجواري، إذا منحن لهم البنين، حتى أمراء العائلة الملكية تزوجوا منهن.

وهكذا كما ترى فقد كان ذلك مشكلة اقتصادية وليس مشكلة عرقية أو اجتماعية .

****

أثناء ما كنا نشرب الشاي كل عصر، كما نحاول بكل قوتنا من خلال أحاديثنا أن نبعد دكتور غندور عن التفكير في موته القريب. وكنا نجتهد لنبدو سعداء ولكنها كانت سعادة مغتصبة.
ثم بدأ دكتور غندور يبصق دماً، فقد قربت نهايته وهو يعرف كل شيء، وكان كل ما أستطيع القيام به من أجله هو أن أوفر له أسباب الراحة بقدر الامكان، لننتظر القضاء الذي لا رد له.
وكنا نواصل علاج دكتور غندور بالأشعة لكي نعطيه ــ في المقام الأول ــ بصيصاً من الأمل.
وذات مساء اتصل بي وابلغني أنه يريد أن يتحدث معي على انفراد.
وعندما وصلت اليه، كان يسعل بحدة فاتصلت بالإخصائي الذي جاء وعالجه بالاستنشاق وبعد قليل كان سعاله قد هدأ حدته فقال لي بوجه منقبض وشاحب: أريد الذهاب إلى باريس، فإن لي صديقاً هناك وهو أخصائي في السرطان، ويطبق طريقة جديدة في العلاج ربما تساعدني.
فقلت له: إنه خبر سعيد. (لأنني كنت أريد أن أصدقه). فأنا أؤمن بأنه طالما ما زلت أتنفس فإنه لا يزال عندي أمل كانت هذه العبارة مثلاُ ولكنه صحيح ولعله يوجد هنا طريقة علاج جديدة في فرنسا، ولقد قرأت من وقت قصير عن نظائر مشعة، تستطيع أن تتكثف في أنسجة السرطان.
ثم قال لي دكتور غندور ولكنني لن أذهب إلاَّ في صحبتك لانه من الخطر أن أذهب وحدي فإنني أبصق دماً بعد السعال. فأخبرته إنني سوف أستأذن دكتور كومبيتون غداً ليسمح لي بالسفر لبضعة أيام.
فتنهد بارتياح وقال: أشكرك، كنت أعرف أنني أستطيع الاعتماد عليك.
في منتصف الليل كنا نغادر الرياض. وقبل أن نترك المستشفى كنت قد اعطيت دكتور غنور مهدئاً خفيفاً.
وقد لاحظت أنا ودلال أنَّ سعاله قد أصبح أقل منه في أي ليلة مضت بالرغم من أن المهدئ وكل الأدوية الأخرى كانت هي ذاتها التي كان يتناولها.
نام قليلاً ثم ظلَّ مستيقظاً، أثناء ما كان قائد الطائرة يعلن عن الطيران والمضيفات يعطين تعليماتهن.
بقينا بجواره حتى نكون على مقربة منه عندما يريد الحديث.
وقد قال إنه سعيد بعودته إلى وطنه، فلقد كانت هذه أول مرة منذ أربعين عاماً.
كان دلال ينحني على أبيه ويقوم بمسح العرق عن جبينه بحنان بالغ ويهتم برعايته رعاية الأب لابنه، فكان يطعمه ويحضر له عصير الفاكهة وزجاجة البول، ثم يغسل له يديه بعد ذلك.

وبقي طوال الليل ساهراً وكان يسأله بالفرنسية في خوف مهموماً بين الحين والآخر: "سافا؟ سافا؟"[18].

إني أحب أبي، إنه يسافر إلى وطنه ليموت هناك.

فحاولت أن أبعده عن هذه الأفكار وأن أهدئه من خلال طرح الأسئلة.

ــ هل تتكلم دائماً بالفرنسية مع أبيك؟

ــ لما نكون معاً بمفردنا، فإننا نتحدث الفرنسية، هل تعرف، إن أبي قد عاش حياة زوجية تعيسة في مارسليا، ولهذا غادر فرنسا إلى القاهرة، حيث تعرف بعد عدة سنوات على أمي وأصبح معها سعيداً دائماً.

ولقد كان الأمير، الذي كان يعمل أبي لديه، يحسده بشدة على حياته السعيدة.

ومع أن للأمير زوجات وجوار كثيرات إلاَّ أنه كان يحسد ابي، الذي كان متزوجاً من واحدة فقط.

فقلت: أأمل أن تتذكر هذا يا دلال، عدما تعود إلى الرياض لتواصل حياتك هناك.

ــ إن معظم الرجال في سني لهم زوجة واحدة، فالأثرياء فقط هم الذين يستطيعون من أكثر من واحدة .

***

[18] هل الحال أفضل (المترجم).

وصلنا بادريس في صباح اليوم التالي وكانت زوجة الدكتور غندور في انتظارنا بسيارة إسعاف، وقد كانت قد سافرت قبلنا، ثم اتجهنا مباشرة إلى المستشفى، الذي كان عبارة عن "كلينيك" صغير خاص لعلاج السرطان.

عند المدخل حيانا بحرارة المدير صديق الدكتور غندور.

أحسست لسبب ما أن هذا المستشفى لن يستطيع الإتيان بالمعجزات لشفاء السرطان،فلقد كانيبدو كمستشفى "الروح القدس" في بوسطن الذي كان يستضيف المرضى المقبلين على الموت.

بعد نقل د. غندور إلى غرفته، التي كانت قديمة ونظيفة، ذهبت إلى مكتب المدير لأعرض عليه تقرير مرض د. غندور وصور الأشعة التي أخذت له.

وبعد أن دقق فيها أخبرني بأنه لا يستطيع إلاَّ مواصلة علاجه بالأشعة. ثم قال لي:

بصراحة.. إن د. غندور قد أتى إلى هنا ليكون على مقربة من مرسليا، وطنه. وإنني لسعيد لأنني أوفر له ذلك.

شكرته على صراحته وقلت له: إنه يبدو أحسن حالاً.

وعندما عدت إلى غرفة د. غندور وجدته يتناول طعامه. وبالرغم من أنه كان يسعل إلاّ! إن السعادة البالغة كانت بادية عليه.

وبادرني قائلاً: إنه شيء جميل أن يكون المرء في وطنه.

ثم نظر بحب إلى زوجته وابنيه وتنهد قائلاً: إنني رجل سعيد .

****

وفي النهاية آن الأوان لعودتي إلى الرياض فذهبت إلى د. غندور أودعه. فوجدت زوجته وابنيه عنده.

بعد أن تحادثنا عن أشياء غير هامة وقفت متأهباً للذهاب وقبل أن نتعانق تقابلت نظراتنا في تفاهم صامت وقبل أن استدير كان د. غندور يقبلني على خدي بينما كان يجهش بالبكاء.

لقد عرفت أنني لن أراه مرة أخرى.. وهو أيضاً .

الفصل الحادي والعشرون

حكايات من القصر

بعد شهر أتى دلال وشاب آخر معه إلى مكتبي وقال دلال: عندما كنا في باريش كان والدي يتحدث عنك كثيراً وقد عرف أنك ستؤلف كتاباً عن بلادنا يوماً ما ولقد رجاني أن أساعدك في ذلك بكل طريقة ممكنة وهو كان يحبك كثيراً. وها أنا ذا وصديقي جميل، لقد أتينا لنحكي لك كل شيء..

ثم قام بتعريفي على جميل فوجدته، رجلاً طويلاً رشيقاً وجيهاً ذات عينين سوداوين لهما بريق، وشارب أسود وأسنان ناصعة البياض.

قال دلال: لقد نشأنا أنا وجميل سوياً. وكنا نسكن تقريباً طيلة حياتنا في حرم القصر وقد كان والد جميل رئيس الأفراد العاملين في خدمة الأمير إبراهيم وكان مسؤولاً عن الأراضي الشاسعة في نجد والمنطقة حول مدينة حَرَضْ.

ــ هل تعرف أن الأمير كان يريد أن يكون بجواره مباشرة كل من طبيبه ومدير أراضيه.

وقاطعت دلال قائلاً: أحكي لي أولاً عن أبيك. لقد كانت آخر مرة رأيته فيها في مستشفى باريس.

فأخبرني دلال أن أباه قد غادر المستشفى بعد ذلك بعدة أسابيع وانتقل إلى بيت والديه في مرسيليا حيث مات هناك، وتمَّ دفنه في مقبرة الأسرة لقد كان يريد العودة إلى بلده ليموت فيه.

قالها دلال في نبرة خفيضة. لقد كان رجلاً رائعاً وأسرتنا ممتنة لكل شيء فعلته من اجله.

فقلت: أتمنى لو كنت استطعت أن أفعل أكثر من ذلك له لقد كان قريباً مني للغاية. لابد أن تكون وفاته ضربة قاصمة لوالدتك. هل تستطيع أن تتحمل متطلبات الحياة المادية. لقد قام والدك بالرعاية الصحية للأمير إبراهيم واسرته طيلة عشرين عاماً. وأنا آمل أن يكون الأمير قد أخذه في الاعتبار في وصيته.

فحكى دلال أن الأمير إبراهيم ورث تركته كلها والمُقدَّرة بحالي 32 مليار دولار لأقرب أفراد عائلته ولم يوجد ورثة آخرون أو تبرعات للهيئات الخيرة.

ثم قال: لم يتقاضَ والدي معاشاً أو تأميناً ولكن الملك تكفل بكل شيء بدفع حساب المستشفى في الرياض، بشراء تذاكر الطيران إلى باريس وكل تكاليف المستشفى في فرنسا، ومنح أمي معاشاً شهرياً كبيراً طوال الحياة.

ونفس المبلغ سنتقاضاه أنا وأخي حتى نبلغ السادسة والعشرين من عمرنا ونحن ممتنون لكل ما فعله الملك من أجلنا.

اعتدل دلال في مقعده وقال: ألا فتحت جهاز التسجيل مرة أخرى.

ولسوف نتحدث كما تحدثنا ذات يوم في حجرة أبي بالمستشفى أثناء ما كنا نشرب الشاي. ولقد قمت بتسجيل هذه الأحاديث.

ثم قدمت لجميل مقعداً وفتحت جهاز التسجيل.

انتظر دلال برهة كما لو كان سيشرع في إلقاء كلمة جاهزة ثم قال:

كان البعض منا يظن أن تحرير العبيد والجواري من خمسة عشر عاماً سوف يفتح الباب أمام ثورة الجنس في هذا البلد ثم اضاف بنبرة معبرة: للرجل والمرأة.

قبل ذلك كان الرجل يعيش تماماً مثل أيام الرسول فكان له زوجاته وجواريه وكانت ممارسة الجنس تقتصر على البيت كما تقضي الشريعة الإسلامية. فلم يوجد حينئذٍ عاهرات. أما الآن فيوجد الكثيرات.

ثم أضاف: إن العلاقة اليوم بين الرجل والمرأة سيئة للغاية والجميع يشكو منها. وفي الأغلب النساء. ولما كان عندنا جواري كان الحال أفضل، فالحياة كانت تجري حينذاك طبقاً للتقاليد الإسلامية.

فقلت: لقد تمَّ إلغاء الرق منذ أكثر من عشر سنوات بقليل وأنا لا استطيع أن أصدق أنك تحبذ العبودية الآن.

فأوضح دلال: لقد كان ذلك نوعاً من العبودية، كنا نضاجع جوارينا وكنَّ لا يتقاضين مالاً مقابل ذلك ولم يكنَّ عاهرات وكنَّ يستطعن الإنجاب وفي بعض الأحيان يتزوجهن الرجال أو يعتقن. والنساء كن يفضلن هذا النظام لانهن كنَّ يستطعن ممارسة نوعاً ما من الرقابة.

والآن يوجد مومسات وعاهرات كثيرات، ويسبب هذا التعاسة الشديدة للزوجات، لان أزواجهن يجرون دائماً وراء هؤلاء العاهرات.

أحست بالصدمة لتكرار دلال كلمة "عاهرة" فسألته: فمن هي إذن العاهرة؟

فتولى جميل الرد: إنها تلك المرأة الفاسقة أو المرأة المنحلّة، التي يمارس الرجل معها الجنس ولكنها لا تطلب مقابلاً لذلك. أما المومس فهي التي تقبل المال والهدايا الغالية، والنوعان موجودان في هذا البلد.

نهض دلال واقفاً وبدا عليه الاضطراب وكأنه مقبل على إفضاء سر عظيم ومؤلم:

لابد أن أعترف لك أن هناك نساء تجري خلفنا، أنا وجميل، وبعضهن من الأميرات.

فأضاف جميل: نحن الإثنان نعاني من هذه المشكلة، إنهن تلك العاهرات أو النساء المنحلة، اللاتي يجرين خلفنا من أجل المتعة فقط.

إنهن لا يفعلن ذلك من أجل المال أو الحب، لكن من أجل الجنس فقط والكثيرات منهن ثريات ثراءً عريضاً.

قلت: من الأفضل أن أغلق جهاز التسجيل. فأنتما معرضان للخطر وقد يكلفكما ذلك حياتكما.

فقال دلال: لا ،لا، دعه يسجل،فلن نذكر أسماء.

سالت: هل هنَّ فتيات؟

فرد جميل:لا.هن متزوجات أو مطلقات. وبعضهن لهنَّ أطفال، أكبر منا في السن. وهنَّ ببساطة تعيسات في حياتهن الزوجية ويبغين فعل ما يفعله أزواجهن. وليس بينهن فتيات.

ــ وكيف يجدون الطريق إليكما؟

ــ بالتليفون، أو عن طريق رسول كتوم، أو سائق، على كل شخص لا يستطيع القراءة.

ثم قصّا عليَّ أن معظم هؤلاء النسوة كنَّ نساء سعوديات "مودرن" درسن في الغرب ويجدن صعوبة في التسامح مع مغامرات أزواجهن.

ولأن الطلاق في الغالب يكون صعباً فإنهن لا يشعرن بالذنب في إقامة علاقات مع الشباب.

ــ ولكن إذا ضبطت المرأة وهي تزني فقد تعدم لأنها تجلب العار على أهلها. ألا يكون ذلك مغامرة خطرة من جانب تلك النسوة؟

ــ لا، إذا فعلن ذلك بمهارة. فلا بد من وجود أربعة شهود رأوا الجماع حتى يمكن اتهام امرأة بالزنا. ومن الواضح أن ذلك صعب للغاية.

استطرد جميل قائلاً: من وقت قريب ضبطوا واحدة من نساء الأمير إبراهيم مع عشيقها في القصر. فقاموا بضربة علقة ساخنة ولكنهم لم يقتلوه لانه كان ينتسب لقبيلة معروفة. ثم إن عائلته أشارت مهددة إلى قانون: العين بالعين والسن بالسن، فلم يقدم الأمير العجوز على قتل عشيق زوجته لانه خشي أن يلقى أحد ابنائه نفس المصير: وأنكر كل من الرجل والمرأة واقعة الزنا

بالرغم من أنهم ضبطوا في حجرة النوم بالقصر ولم تعاقب الزوجة لانه لم يوجد شهود، فلابد من وجود أربعة شهود أثناء الجماع وليس بعده. فالقرائن لا تكفي.

ثم أوضح دلال: إن الإسلام متشدداً جداً فيما يخص الشهادة فإذا ثبت أن التهمة ظالمة فإن الشهود أنفسهم يعاقبون بثمانين جلدة.

ــ إن ذلك يشبه إحدى وصايانا العشر: لا تشهد بالزور.

ولسبب خفي، كان دلال يعود إلى مسألة الرق والجواري وكما قال كان اباه يرى أن إلغاء الرق ونظام الجواري والذي تم قبل وقت قصير سوف يسبب انقلاباً جنسياً وأخلاقياً.

فعندما كان الرق مشروعاً كان للأمير إبراهيم إلى جانب زوجاته الأربع ــ حوالي ثلاثين جارية فإذا أنجبت الجارية فإن القانون كان يلزم الأمير بالاعتراف ببنوة الأطفال ويصير الولد أميراً والبنت أميرة ولا يسمح ببيع الأم.

وطبقاً لمعلوماته فإن الأمير كان يفضل الأجنبيات، فآخر زوجاته كانت فارسية. كان الأمير قد اشتراها بمائتي قطعة ذهب ثم تزوجها بعدما أنجبت له أولاداً ثم قال: كانت أحب نساءه إلى نفسه كما أن امرأتين من زوجاته الأربع واللاتي عشن بعد وفاته، كانتا جاريتين فيما قبل، وورثت كل واحدة منهما حوالي مليار دولار.

شهقت قائلاً: ألف مليون دولار، هل انت متأكد من ذلك؟

فقال دلال: نعم إني أعرف ذلك جيداً.

فقال دلال: نعم أني أعرف ذلك جيداً.

ثم قال جميل : عندما كان الأمير إبراهيم شاباً قامت عائلته بإهدائه بعض الجواري اللواتي كانت العائلة تقوم على تربيتهن حتى بلغن، عادة بين الرابعة عشرة والخامسة عشرة ثم قامت بإهداءهن له؟

سألت: وماذا كانت الجواري تفعل فيما عدا ذلك؟

فرد جميل: كن يقمن على خدمة الأمير، يقدمن له طعام الفطور، يقمن بكي ملابسه، لم يكن يفعلن شيئاً تقريباً، فيما عدا إمتاع الأمير في مخدعه. وقد كان كل من يعيش في القصر يتمتع بحياة هانئة.

فصرخت: إنها لا تكون حياة هانئة لفتاة صغيرة اختطفت من بين أهلها وبيعت في سوق النخاسة. ولكنه لم يتأثر بما قلته.

ــ إنني أتذكر جيداً عندما كنت صغيراً إنني كنت أرى الجواري الصغيرات الحسناوات وهن يقفن في البساتين كالأزهار الرقيقة. وقد كن من جميع أنحاء العالم الإسلامي وكان لون بشرتهن

مختلفاً: زنجيات من اثيوبيا، خمريات وسمراوات فاتنات من مصر ومن إيران، ذوات بشرة بيضاء من المغرب وسوريا ولقد كان الأمير إبراهيم سيد القصر، فالكل يبجله ويخشاه وكان الرجال في القرية يقفون ويحيونه أثناء مروره بهم في الشارع.

لقد كان قصير الحجم عظيم الهيبة.

وإذا لم يحضر شخص ما للصلاة فإنه كان يعاقب أو يطرد من القصر وإذا رجع واحد من أبنائه إلى البيت في وقت متأخر فإنه كان يضرب علقة ساخنة وكانت أبواب القصر تغلق في العاشرة.

ثم استطرد دلال قائلاً: لقد كان الأمير يقبض على التقاليد القديمة يائساً فقد بلغ عدد سكان القصر خمسمائة فرد، إذا حسبنا كل زوجات وأطفال الخدم، كان يتكفل هو بغذائهم وكسائهم ويعطيهم فوق ذلك شيئاً من المال.

ولقد كانت مائدته مبسوطة لأي إنسان. فكان أهل القرية يأتون إلى القصر بالصحون والجرادل ليأخذوا الطعام وكان مسموحاً للجميع بالجلوس إلى مائدة الطعام. اما هو فكان ينظر غير راضٍ إلى مائدة غير مكتملة العدد.

فسألت: هل كان يأكل مع الأسرة؟

فرد دلال: لم يأكل قط مع زوجاته أو أولاده، بل كان يأكل مع الملك في قصر الملك أو الوزراء أو الأعيان في بيته وكان عادة ما يتناول طعام فطوره لوحده. وعلى حد قول دلال فإن الأمير كان يتمسك بأن يتناول كل نسائه وأطفاله الطعام سوياً حتى يتكون إحساس عائلي.

ــ ولقد كان يقارب التطرف في تدينه، كان سلفياً من أنصار دعوة الوهابيين المتزمتة.

وكان لا يرغب في السفر لأنه كان يخشى أن تؤثر العقائد الأجنبية في إيمانه وولائه لبلاده. لقد كان "دقّة قديمة" وموته الذي وقع من وقت قريب، يعني نهاية عهد من تاريخ السعودية.

ــ إن ذاك يذكرني بما حدث بعد الحرب الأهلية في بلادنا عندما سقطت مملكة الأقطاع العظيمة وتحرر العبيد.

ــ كثيراً من العبيد فضل أن يبقى عند الأمير وخاصة الرجال فقد كانت حياتهم هانئة كعبيد ولكن كل النساء تقريباً فررن منه.

ــ من الجائز أنه لم يكن من رأي الجواري أنهن يتمتعن بحياة هانئة حيث كنَّ لا يفعلن غير إمتاع الأمير.

ثم سألت نفسي،إن كان دلال يفهم ما اعترف به الان، ولكنه هزَّ كتفيه.

ــ وبما أننا نتحدث عن النساء، ولأن بعض نساء الامير إبراهيم كن أصغر منه سناً، ولقد حكيت لي عن عشيق، فهل يوجد عشيق آخر؟

خيم السكون برهة، برهة طويلة محرجة ثم قال جميل بهدوء: أنا عشيق أصغر زوجات الأمير،الجارية الفارسية، التي اشتراها بمائتي قطعة ذهب إنها تدعى فيلوا.

****

بعد أن انتهيت في اليوم التالي من عيادتي الصباحية للمرضى في المستشفى ذهبت إلى العيادة الخارجية حيث كان ينتظرني جميل وفيلوا في صحبت وصيفتها.

كانت فيلوا محجبة تماماً ويلفها عبير عطر غريب.

كان جميل متيقظاً جداً وعرفني بها على الفور وبمجرد أن دخلت الحجر خلعت فيلوا حجابها بحركة ملوكية وعباءتها السوداء وأعطتهما لجميل الذي طواهما بعناية ووضعهما على مقعد.

كانت ترتدي فستاناً أنيقاً حريراً مزركشاً يصل إلى كعبيها وحذاء أسمراً لامعاً أنيقاً.

كانت فيلوا طويلة ورشيقة القعد. وكان شعرها مصبوغاً بحناء كستنائية لتناسب عيونها السوداء، أما بشرتها فكانت بيضاء لدرجة غريبة تقترب من الشحوب.

وكانت تستخدم أحمر شفاه بلون طلاء أظافرها. أما عطرها فقد كان سيلف رأسي. اعتقدت أن الإغراء الساكن في هذه المرأة هو الذي نقلها من جارية إلى أم أمراء، ومليارديرة كل هذا وهي في الخامسة والثلاثين أما جميل فقد قام بالترجمة بيننا.

كانت فيلوا تشتكي بصورة رئيسية من الإرهاق والأرق. وقالت إنها تشعر بالتوعك منذ وفاة زوجها كانت تتكلم عن الأمير إبراهيم بكل تبجيل: ــ كانت حياتي صعبة فقد اختطفت من بين أهلي في إيران وأنا في العاشرة وأحضرت إلى القصر وأنا في الخامسة عشرة.

وقد روى لي جميل أن قصر الأمير إبراهيم قد بيع بعد موته وأن فيلدوا ما زالت تسكن هي وأولادها وخدمها في قصرها الخاص على مقربة من مقبرة الأمير وقال:

ــ إنه قصر قديم وهو بطبيعة الحال أصغر كثيراً من القصر المباع ولقد أهداه الأمير إلى أصغر وأحب نسائه إليه "فيلوا".

ثم استطرد: أما بقية زوجاته فقد انتقلن من القصر ويعشن في فيلات جديدة خاصة بهن!. ولديهن أسر وأولاد يهتمون بأمورهن أما أولاد فلوا فما زالوا صغاراً، وأنت لا تعرف كيف يحترم السعوديون أمهاتهم وكم من الحنان يبذلونه وهم يقومون على خدمتهم، وإذا أساءت إحدى الزوجات إلى حماتها فإنه من الممكن لأن يقوم زوجها بطردها على الفور.

لما كان وقت الفحص دخلت الممرضة الحجرة فخرجنا أنا وجميل،أما الوصيفة فقد بقيت مع فيلوا لتساعد سيدتها على خلع ملابسها.

وفي الخارج سألت جميل ما إذا كان من الممكن أن تتزوج فيلوا مرة أخرى. فقال: نعم، ولكن النساء في الغالب لا يفعلن ذلك من أجل أطفالهن، وبعضهن يتخذن عشيقاً بديلاً عن الزوج. ولكني أعتقد أن فيلوا ستكون استثناء فأغلب الظن أنها ستتزوج مرة أخرى.

فقال جميل بصوت خفيض: احتمال.

بعد عدة دقائق ودعت جميل ورجعت إلى غرفة الفحص.

بمساعدة الممرضة التي كانت تقوم أيضاً بالترجمة حصلت على تقرير يعتد به بنحو ما عن المرض، ثم بدأت الفحص وفيما عدا شحوبها لم أجد شيئاً غير عادي. وأخبرت فيلوا أنها من الممكن أن تكون مصابة بأنيميا بسيطة.

وإنني سوف أمر بالاختبارات المعملية وصور الأشعة المألوفة.

بعد أن أكدت لها أن كل شيء على ما يرام طلبت منها أن تعود لتحصل على التشخيص بعد أسبوعين.

وبعد أسبوعين أتوا مرة أخرى إلى العيادة الخارجية وبالإضافة إلى جميل وفيلوا ووصيفتها كما أتى أيضاً دلال فأخبرتهم أن كل الاختبارات بما فيها صور الأشعة كانت طبيعية اللهمَّ إلاَّ الأنيميا الخفيفة التي تظهر عند النساء في عمرها غالباً ويمكن علاجها بدون صعوبة ثم أكدت لهم: إنه فيما عدا ذلك فإن فيلوا تتمتع بأحسن صحة.

خيم الصمت طويلاً ثم أخبرني دلال أخيراً بأن فيلوا كانت تريد أن تسافر إلى أوروبا ولكن الحكومة لم تشأ منحها تأشيرة وأنه قد رجا صديقاً له أن تتوسط لها لدى العائلة المالكة ولكن الملك أصر على الرفض وعلى ذلك تكون فيلوا ممنوعة من مغادرة البلاد.

فسألت: هل يخشون أن تهرب جزءاً من ثروتها خارج البلاد.

فقال دلال: لا فجزء كبير من مالها مستثمر في أراضٍ وعقارات ولكني أعتقد أنها أسباب أخلاقية ودينية، وراء هذا، فالمرأة لا تستطيع مغادرة البلاد إلاَّ بصحبة رجل، يكون من أقرب أفراد أسرتها، وفيلو ليس لها أحد.

ثم قال جميل: وبخلاف ذلك فإن الأسرة المالكة تتحمل مسؤولية ما تجاهها لأن أبناءها أمراء.

إنهم يدفعون لفيلوا 4 آلاف ريال في الشهر.

تذكرت المثل القائل:كبائع التمر في هجر. فإنني أستطيع إطعام ثمانين طفلاً جائعاً في أمريكا اللاتينية شهراً كاملاً بالراتب الذي تأخذه فيلوا من العائلة المالكة.

أعادني دلال إلى أرض الواقع عندما سألني في سفور: هل من الممكن أن ترسل فيلوا للعلاج في إنجلترا؟

لقد كان يعرف أنني أعزه جداً وأنني أود فعل أي جميل من أجله.
فأجبته قائلاً: لست أدري كيفية إنجاز ذلك لابد أن أقوم بتزوير نتيجة الكشف الخاص بها.
اتضح لي فجأة أن فيلوا استخدمتني واستغلت أيضاً جميل ودلال لكي تخرج من السعودية فلم تكن شكواها من متاعب صحية إلاَّ حجة فقط.
ثم إنني قلت لجميل: قل لفيلوا إنني أدركت أنها امرأة ذات حيلة واسعة، ولكني لا أستطيع أن أساعدها.. لقد عانت في حياتها وأنا أستطيع فهم كم هي تشعر الآن بالوحدة، ولكنها إنسانة صلبة وأنا معجب بشجاعتها في مواجهة الحياة.
بعد أن أخبر جميل فيلوا بما قلت نظرت هي اليّ بعينيها السوداوين الكحيلتين الواسعتين وابتسمت.
لقد فهم كلٌ منا الآخر .

الفصْل الثاني والعشرون

رحلة إلى المستقبل

أخذ موعد رحيلي من السعودية يقترب.
ولقد تمَّ تجديد عقدي الأصلي، ولكن هاهي ثلاث سنوات تقريباً قد مرت أما عصر الريادة فقد انتهى وأصبح المستشفى وعياداته الخارجية يعمل بوقته الكاملة. كما تمَّ وضع المقاييس التي يستطيع الآخرون أن يتبعوها.
وقد بلغ عدد الأطباء العاملين بالمستشفى تسعين طبيباً مختصاً، نصفهم من الأمريكيين والإنجليز، والنصف الآخر من واحد وعشرين بلداً مختلفاً، أما عدد المرضى، الذين يعالجون في المستشفى، فقد بلغ أكثر من مائة ألف في العام الواحد.
كما أن برنامجنا لتدريب أطباء الامتياز والأطباء الشبان كان قد أحرز تقدماً عظيماً. وكانت الحملة التي قدتها للحصول على رفع كبير للمرتبات، قد كللت أخيراً بالنجاح وتمَّ رفع مرتبات أطباء الامتياز بعد تخرجهم من الجماعة، إلى عشرة آلاف دولار في السنة الأولى وخمسة عشرة ألف دولار في السنة الثانية وقد حاز هذا الاتفاق على رضا الأطباء الجدد لان الإتفاق شمل أيضاً السكن ولأنهم كانوا يستطيعون التخرج من البرنامج التكميلي للأكاديميين. ولسوف يؤهل بعضهم ذات يوم ليكون أخصائياً وهو الشيء النادر جداً في السعودية.
وقد كانت "مصاريف الصادر" من المستشفى عالية جداً في البداية. فكانت ميزانية المستشفى في السنة تبلغ مئة مليون دولار، منها أربعون مليوناً تصرف كمرتبات وسكن لموظفي المستشفى البالغ عددهم الفين.
ولكن هذا الاستثمار كان إيجابياً. ففي خلال الثلاث سنوات الماضية أصبح المستشفى مؤسسة قومية تختص برعاية مرضى الحالات الخطرة من كل أنحاء المملكة وكذلك تأهيل وتدريب الأطباء.
وقد أعدت الخطط لمضاعفة عدد الأسرة ولبناء مركز أبحاث.
لقد كانت نهاية عهد وبداية عهد جديد.

وقبل رحيلي بقليل اقيم حفل تخريج الدفعة الأولى من الأطباء السعوديين بكلية الطب في جامعة الرياض. ولقد كانت لحظة تاريخية.

ولقد أقيم الحفل في قاعة الملك فيصل الأنيقة حيث تعقد أيضاً اجتماعات منظمة الأوبيك (منظمة البلاد المصدّرة للبترول).

وكانت مقاعدها، البالغ عددها ألف واربعمائة، مكسوَّة بالجلد الطبيعي ذي اللون البيج وجدرانها مغطاة بالسجاد.

وفي ذاك اليوم الذي يمثل علامة بارزة في تاريخ السعودية، حضر ثلاثمائة مدعو فقط، مما أظهر الحجم العظيم لهذه القاعة. وقد تمَّ توزيع نسخ لخطبة التخرج باللغتين العربية والإنجليزية.

كان الملك خالد يجلس في منتصف المنصة الضخمة وبدا عليه الضيق الشديد وبجانب الملك كان يجلس الخريجون بينما يجلس على الجانب الآخر وزير الصحة وسير "بريان وينابر" من جامعة لندن وخطيب الحفل ومجموعة من التربويين وجاء المجتمع وخلف المنصة علق شعار للسعودية كبير الحجم صنع من الذهب والملكيت [19] وكان لونه الأخضر يبرق على ستار المنصة الداكن.

افتتح عميد الكلية الحفل بالكلمات المعتادة: "بسم الله الرحمن الرحيم" ثم ألقى كلمة قصيرة ثم تبعه آخرون. أما آخر المتحدثين فكان سير "بريان" وكان يلقي كلمته وكأنه يتحدث في إحدى المستعمرات الإنجليزية.

فأبلغ الحاضرين تهاني الملكة وأم الملكة ورئيس جامعة لندن ورئيس الوزراء وجميع أعضاء البرلمان تقريباً الذين خطروا بباله. ثم انتقل للاطراء بالثناء على جهود جامعة لندن الكثيرة في الخرطوم وفي أفريقيا.

وفي الواقع فإن سير "بريان" لم يقل شيئاً ولكنه قال ما قاله في خلال خمس عشرة دقيقة على نحو مؤثر جداً.

ولكني أثنيت عليه فيما بعد لجملة وحيدة وردت في خطبته: إن السماح أخيراً للنساء بدراسة الطب كان أمراً ذا أهمية حقيقية.

ولا بد أن أعترف بأنني أعجب بالإنجليز. فمن الواضح أنهم لا ييأسون أبداً. وهم ما زالوا يحاولون ممارسة الاستعمار في كل مكان وزمان يسمح لهم بذلك وقد أدركت ذلك على نحو قوي أثناء مدة أقامتي الآن في السعودية وما زال البعض منهم يرى أن الولايات المتحدة نفسها واحدة من مستمراتهم.

---

[19] الملكيت: حجر ذي لون زمردي ويستخدم في الحلي. (المترجم)

بعد ان انتهت الخطب وقف الملك بعد إشارة من العميد. ثم أخذ يسلم كل واحد من الخريجين السبعة عشر شهادة الدبلوم وحقيبة أطباء سوداء.

وقد أصبت بخيبة أمل شديدة لان الملك لم يبالِ بالابتسام أو بتهنئة هؤلاء الشبان الرائعين. هؤلاء هم السعوديون الذين سيمهدون الطريق لغيرهم والذين عملوا طويلاً بجلد وتغلبوا على حاجز اللغة وعوائق أخرى لا حضر لها.

بعد أنتهاء الحفل قمت بتهنئة صديقي عبد الطاليم والذي أنهى حديثاً فترة الامتياز في المستشفى. فقد صرنا صديقين حميمين منذ المغامرة التي قمنا بها سوياً في الصحراء. وتجمع حولي الخريجون الآخرون، وكنت أعرف معظمهم شخصياً، ليصافحوني. فكانوا يرون في شخصي واحداً من الذين شجعوهم، لأنني كمدير للقسم الطبي، كنت أساعد في تجهيزهم ليكونا أطباء مساعدين في هذا المستشفى وفي أماكن أخرى وكانوا غالباً ما يأتون إليَّ بمشاكلهم الشخصية. ولما سألت عبد الطاليم عن محتوى الشنطة السوداء حملها تجاهي وقال ضاحكاً: إنها مليئة على عينها بقطع الذهب. ففتحت الحقيبة لأجدها خالية إلاَّ من ساعة رخيصة للغاية. ثم دعوني إلى حفلة بمناسبة تخرجهم، تقام في شقة أحد الخريجين.

***

كان حوالي نصف الأطباء متزوجين وقد أحضروا زوجاهم معهم.

ولم تكن واحدة بينهم محجبة وفوجئت عندما عرفت أن اثنتين منهن درستا في ألمانيا وتخرجتا هناك في كلية الطب. وتعملان في إحدى مستشفيات النساء القريبة. وأخبرني عبد الطاليم أنه كان هناك ثمانية نساء معه في السنة النهائية بجامعة الرياض ولكنه لم يكن من اللائق أن يظهرن على الملأ. ولم يكن لهن أي علاقة بزملائهن الرجال.

وكان يقوم على تعليمهن طبيبات مصريات أو باكستانيات أو أطباء ولكن من خلال شاشة تليفزيونية.

أما الـــ "صديقي" فكان يسيل أنهاراً وتحولت الأمسية إلى مجتمع رجالي "دقة قديمة" تعمه الإثارة. واستمر الحفل حتى الساعات الأولى من الصباح.

كنا نشعر جميعاً بالود بيننا وكنا نتكلم جميعاً في صراحة مطلقة.

وتحدثنا عن التغييرات الكثيرة التي طرأت على السعودية أثناء سنوات إقامتي فيها.

ورويت لهم كيف كان الأمر مثيراً لما رأيت مباني حديثة عالية شيدت على تراب وأنقاض هذه المدينة العتيقة. وبين عشية وضحاها تقريباً حلت الشوارع العريضة والطرق السريعة محل الشوارع القديمة الغير ممهدة.

وكان وجه الرياض الذي يتغير بلا انقطاع مصدر اندهاشي الدائم. وفي أنحاء من المدينة بنيت مدن كاملة، "بلوك" تلو الآخر.

وقال عبد الطاليم في الماضي كانت هذه المنطقة عبارة عن واحة كبيرة. ولهذا السب سميت بالرياض[20]. وفي نهاية القرن صارت مدينة محاطة بسور وكانت بيوتها من الطوب اللبن وسكانها يبلغون عشرة آلاف نسمة.

أما اليوم فيهم أكثر من نصف مليون. فقد زاد العدد في الثلاث سنوات الأخيرة بنسبة 75% وأخبرني أيضاً أن عدد العمال الاجانب قد ارتفع إلى مليونين (في مقابل أقل من عشرة ملايين سعودي). وانه في السنوات الأخيرة تم استيراد عمال من كوريا والفلبين وباكستان. وأن هناك خمسة وثلاثين ألف أمريكي يقيمون في البلاد.وآلاف آخرين من الإنجليز والبلجيك والسويديين والألمان الغربيين. وقد لاحظ واحد من الأساتذة بحق، أثناء الحديث أن التعليم قد أحرز تقدماً هائلاً في كل المستويات. وقال إن هناك مليوناً ونصف مليون تلميذاً في المدارس العامة وأكثر من أربعين ألف طالباً مسجلون في الجامعات أي أن عددهم تضاعف ثلاث مرات عمَّا كان عليه منذ عشر سنوات وقد انتشرت المدارس الابتدائية والمدارس ذات المراحل الأعلى منها في القرى النائية إلاَّ انه في بعض الأحيان كان الدرس يعقد في الخيام ثم أردف مضيفنا: إنه تم بناء ألفي مدرسة في أنحاء البلاد المختلفة في خلال سنوات قليلة. إنه برنامج فوري التطبيق.

ومن سنوات ليست بعيدة كان 70% من الشعب يجهل القراءة والكتابة من بينهم كثيرون من العائلات الكبيرة. أما التعليم العالي للنساء فكان أمراً غير وارد.

وذات مرة هدد الملك فيصل باستخدام الجيش ليفتتح مدرسة للبنات، قاومها الزعماء الدينيون بضراوة. والان يوجد نصف مليون فتاة يدرسن في المدارس في إطار التقاليد الإسلامية. أما في جامعة الرياض فيوجد خمسة آلاف طالبة، كما تشيد جامعة جيدة في جدة تستوعب ألفاً ومائتين من الطالبات.

ثم علق بفخر: لقد تقدمنا في ذلك وقد خصصت الخطة الخمسية الثانية والتي بدأت في عام 1975 مبلغ 144 مليار دولار لتحسين أحوال الشعب. وهذا المبلغ يختص تطوير المجالات الصحية والتربوية فقط ولا يعلو هذا المبلغ إلاَّ ميزانية الدفاع.

ولا يوجد أي شك في أن حكومتنا تبغي توفير أفضل وسائل التعليم والصحة لكل مواطن وبالمجان. وفي هذه الفترة نقوم بإنشاء عدة كليات للطلب منها كليات لتأهيل الطبيبات. وهذا

---

[20] اكتسبت الرياض أهميتها لوقوعها في ملتقى القوافل التجارية، ونظراً لأهميتها اتخذها "ابن سعود" عاصمة للسعودية. وقد كانت تحاط بالأسوار حتى عام 1949،وافتتح مطارها في عام 1952. (المترجم).

شيء مؤثر حقاً، إذا عرفنا أنه لم يوجد في تاريخ السعودية كله إلاَّ أقل من مائة وخمسين طبيباً اضطروا جميعاً للدراسة في الخارج لانه لم يوجد هنا التجهيزات المناسبة. فقالت نادية، واحدة من الزوجات السعوديات: مثلي أنا، فأنا درست في ألمانيا الغربية ثم قالت إن وضع المرأة قد تحسن وإن عدداً كبيراً منهن ذهب إلى الخارج طالباً العلم. ومنذ زمن قليل أصبح الزعماء الدينيون يخشون من زيادة تأثير الغرب والأفكار الجديدة. فقضوا بقيود أكثر تشدداً وخفضوا من عدد الفتيات السعوديات اللاتي يذهبن إلى الغرب للدراسة تخفيضاً ملموساً. فتم إلغاء المنح التي كانت تمكن الفتيات السعوديات من الدراسة في الخارج وحرم عليهن مغادرة البلاد إلاَّ بصحبة الرجال. وكجزء من هذه الإجراءات المتزمتة قرر الملك خالد معاقبة النساء اللائي لا يلتزمن بتعاليم الإسلام فيما يخص الملابس.

وقد قامت الشرطة الدينية بترحيل نساء غربيات لأنهن لم يلتزمن بتعاليم الإسلام القاطعة بالنسبة للملابس. وبخلاف ذلك فإنهم يصعبون بوضوح الدخول للسعودية بالنسبة للنساء الغربيات. ثم أنهت نادية حديثها بمرارة قائلة بيد يربوننا وباليد الأخرى يستعبدوننا. أثناء ذلك تقدم بنا الوقت إلى الساعة الثانية صباحاً. فشكرت مضيفي على هذه الأمسية المثيرة وصافحت الأطباء الجدد مرة أخرى.

أثناء ما كان عبد الطاليم يقودني إلى المنزل تذكرنا ما حدث في ساحة القضاء في العام الماضي فأخبرني بأن عدد الرؤوس التي تقطع قد انخفض الآن وكذلك بالنسبة لقطع اليد. إلاَّ إذا كان الأمر يتعلق بمجرم عريق ولكن بالنسبة للسرقات الصغيرة أو بيع الخمور فيتم الجلد في العلن. ولقد شاهدت أحد اليمنيين المساكين وهو يجلد علناً في الميدان الرئيسي بسبب سرقة صغيرة. وقد قامت الشرطة بوضع ملاءة بيضاء على ظهره العاري ووضعت قطعة منها في فمه ليعض عليها ويكتم آلامه، أثناء ما كانت اربعون جلدة تهوي على الجزء الأسفل من ظهره. وكانت التقلصات التي تبدو على عضلات وجهه بفعل الألم تقول كل شيء.

وقد بدا لي أن الرقابة الحكومية قد أصبحت أقل تشدداً. فعلى سبيل المثال ما يخص وجود إسرائيل، كانت الرقابة قد رفعت في عام 1976 عندما نشرت "أنترناشيونال هيرالد تريبيون" تحقيقاً عن عملية عتيبي والتي تمَّ فيها تحرير أكثر من مائة شخص كان قد اختطفهم إرهابيون[21] فلسطينيون في أوغندا. ففي الماضي كانت الرقابة السعودية تمحو كلما أشير إلى إسرائيل في الجرائد. والان تطبع التحقيقات بكاملها.

---

[21] ذكرها صاحب المذكرات هكذا. (المترجم).

وبعد ذلك في عام1977 نشرت "عرب نيوز" ــ الجريدة الناطقة بالإنجليزية خبر زيارة السادات لإسرائيل.

هذا يمثل الى حد ما نقطة تحول وتغيير في الخط السياسي فيما يخص حرية الصحافة في نشر أخبار السياسة الخارجية.

وفيما عدا ذلك بقيت الرقابة على وضعها فعلى سبيل المثال: ما زالت تطمس صور النساء باللون الأسود.

وعند الوداع تصافحنا أنا وعبد الطاليم بحرارة. كان هذا أحد الأيام الطويلة والمليئة بالأحداث في تاريخ الطب في السعودية الجديدة.

وبعض هؤلاء الشباب والفتيات، الذين قضيت معهم هذه الليلة، سوف يتسلمون يوماً ما مسؤولية رعاية الصحة في بلادهم، ولسوف يتفوقون في عملهم .

****

مرَّ الوقت بسرعة كبيرة. ولقد كنت سعيداً لأنني سوف أقضي هنا مدة من الزمن تسمح لي بالاحتفال بشهر رمضان فقد كان أحب الاحتفالات إلى قلبي. الذي كان حسب التقويم الجريجوري[22] يبدأ في نهاية أغسطس، ورمضان هو الشهر التاسع حس التقويم الإسلامي ويعتبره كل المسلمين شهر التوبة والغفران وصوم رمضان هو أحد أركان الإسلام الخمسة. إنه شهر مر وحلو: نهاره صوم وليله بهجة.

ويعم السعودية اضطراب عظيم وفرحة مسبقة حتى يتم رؤية الهلال وهم يطلقون المدافع للإعلان عن بدء رمضان.

وبعد ذلك ينطلق المدفع يومياً مرة في الفجر ومرة عند غروب الشمس واثناء تسعة وعشرين يوماً. هي أيام شهر رمضان، يحرم الأكل والشرب من الشروق حتى الغروب.

ولابد أن يكون الصوم مطلقاً فشرب الماء حرام بغض النظر عن ارتفاع درجة الحرارة.

وصوم رمضان يذكرني دائماً بالأمير يوسف، المريض الذي عالجته بعد وصولي إلى السعودية. فبالرغم، من أنني أوضحت له أكثر من مرة أن حالته ستزداد سوءاً بسبب الصوم إلاَّ أنه كان يبتسم فقط ويعتبر أن ملاحظاتي ليست إلاَّ "كلام فارغ" صادر من كافر.

ويحل القرآن الإفطار للمرضى فعلى المرضى الذين لا يستطيعون الصوم في رمضان أن يعوضوا أيام إفطارهم في وقت لاحق.وفي الليل تستمر الاحتفالات:فبعد انطلاق مدفع الإفطار عند الغروب يبدأ السعوديون إفطارهم بالبلح والقهوة قبل أن يؤدوا صلاتهم في الجامع أو في بيوتهم. وبعد ذلك تعد وليمة الافطار وتبدأ بعصير الفواكه أو الحساء ثم الوجبة الأساسية.

أما النساء فتخبزن الفطائر ويجهزن الحلويات لبعد الإفطار من الثمار المجففة من الجوز والعسل.

وفيما بين منتصف الليل والثانية والثالثة صباحاً يعد السعوديون أنفهم لاستقبال صوم يوم جديد بتناول وجبة أخرى هي السحور.

وغالباً ما تتزاور العائلات وتسهر حتى الساعات الأولى من الصباح.

وبعض الأسر تسهر طوال الليل خاصة في الليلة الأخيرة من رمضان. وأثناء وقت الصوم لا يعمل الخدم. والعاملون المسلمون في المستشفى لا يعملون إلاَّ نصف الوقت فقط.

---

[22] نسبة إلى البابا جريجور الثالث عشر، والذي وضع التقويم الميلادي المعروف الآن في عام 1582 (المترجم).

ويقول مثل عربي: في رمضان تفتح أبواب السماء. وهو الوقت المناسب للتبرع للفقراء بالغذاء والكساء والمال. ومن دواعي الصيام أيضاً هو الحرمان من الطعام والشراب لكسب شعور التعاطف مع الفقراء.

وينتهي رمضان مع بداية عيد الفطر الذي يستمر ثلاثة أيام، يأكلون فيه ويشربون ويلهون. والعيد عطلة رسمية ومناسبة أيضاً لتبادل الهدايا خاصة الأطفال وهو يماثل أعياد الميلاد عندنا.

وعندما عملت الأميرة سلطانة أنني مسافر من السعودية قريباً اتصلت بي وقالت: لابد أن تأتي وتحتفل معنا بالعيد، وسوف يحضر إليك أخي سلطان.

بعد المغرب أتى سلطان ومنصور وقاداني إلى مقر عائلة الداووق حيث احتفلنا بزواج سلطانة منذ عامين. وعند وصولنا كانت الأرض الفضاء قد أمتلأت بالسيارات والبشر معظمهم على حد قول منصور من أفراد الأسرة أبناء وبنات عم وخالات وأخوال وأعمام وعدد كبير من الأطفال.

ثم قادني إلى المنزل الذي قضت فيه سلطانة شهر العسل حيث كنت التقطت للعروسين عدة صور. كانت سلطانة مازالت على جمالها، وربما يكون قد بدا عليها الإمارات التي تبدوا على النساء المتزوجات. أما محمود فقط زاد وزنه وبدت عليه الرزانة. وقد رحب بي الاثنان بحرارة ثم قدما لي ابنهما الصغير وهما يبديان الفخر بذلك.

بعد ذلك قالت سلطانة إنها سافرت أثناء شهر العسل إلى جميع انحاء العالم وسافرت أيضاً إلى كاليفورنيا لزيارة والدتها التي تزوجت مرة أخرى.

قلت لها: لديَّ سؤالان يا سلطانة: هل أنت سعيدة في زواجك؟

وهل ندمت ذات مرة على تنازلك عن الجنسية الأمريكية.

ــ أنت تعرف أن زواجي الذي قرره الآباء صار زواجاً طيباً. كما أن محمود يراعي مشاعري ويعاملني معاملة طيبة. وأنا أشعر بالأمان والإلفة بين عائلته الكبيرة.

ثم استطردت سلطانة:إن العائلة أهم من الفرد. ثم سألت في إصرار: وجنسيتك الأمريكية؟

ــ إنني أميرة وأنتمي إلى عائلة سعودية عريقة ولقد قررت التنازل عن حريتي وبعض حقوقي أثناء إقامتي في السعودية ولكنني أعتزم السفر إلى أمريكا وأوروبا مع محمود على قدر الإمكان ولقد وعدني أن يدرس في جامعة كاليفورنيا.

أخذ الحفل العائلي يزداد حجماً. وفي منتصف الليل تمَّ تقديم السحور وبعده بساعات غادرت الحفل وقال محمود وسلطانة إنهما سوف تتصلان بي في أول زيارة لهما للولايات المتحدة، "من الجائز في العام القادم". ثم حملني سلطان ومنصور إلى البيت وعندما ذاع خبر مغادرتي للسعودية أتى مرضى كثيرون ليودعوني، من بينهم كان الأمير يوسف، جاء إلى المستشفى مع

ولديه، وأخبرني بإعجابه باللوحة التي أهديناها له، وبقائه على موقفه من أن زوجتي هي التي رسمتها. ثم قال لي بابتسامة مرة أخرى: أنت الذي صنعتها. قال ذلك آملاً أن أعترف أنني الذي رسمتها ولكني بقيت على موقفي.

ثم قلت له: إن النساء يستطعن إجادة الكثير مثل الرجال بل يكنَّ افضل في بعض المجالات.

ــ في إنجاب الأطفال فقط.

وعند وداعي له نظر في عيني ثم أعطاني مسبحة رائعة من الملكيت ذات سلسلة ذهبية. لقد كانت لمحة ذات أهمية.

كان هذا الرجل واحداً من الأمراء الكبار القلائل المؤسسين والذين أصبحوا الآن جزاءً من الماضي. وقد كان يملك وقاراً جليلاً لا مثيل له.

ثم قال لي وهو يمضي: كان الله معك.

وفي النهاية كان الأوان قد آن: في الحادية عشر من يوم الوداع ذهبنا إلى المطار لنقول للمرة الأخيرة: وداعاً. كانت لحظة صعبة فسوف نهجر أصدقاءنا الذين أحببناهم والبعض منهم لن نراه مرة أخرى.

وأننا ما كنا أنا وروث ننتظر النداء على رحلتنا بدأت أفكر في السنوات التي قضيتها في السعودية، سنوات منحتني الفرصة لكي أتعرف عن قريب على مجتمع احتفظ بكيانه من خلال انعزاله عن باقي العالم لأكثر من ألف سنة.

ولكني لم أملك إلا أن أسأل نفسي عما إذا كانت حركة التطوير المحمومة تعني نهاية القيم الموروثة وتؤدي في النهاية إلى تدمير سلامة النية الاجتماعية لهذا البلد. والسعوديون متيقنون من أن دينهم سوف يحميهم من مثل هذه التبعات. ولكن الإنسان لا يستطيع أن يعبد الله والمادة في وقت واحد.

ولقد خلق الثراء الهائل بالفعل جشعاً وفساداً بلا حدود. وقد انتشرت أمراض نفسانية ذات أعراض جسدية وقرحات في المعدة لم نسمع بها إلا من سنوات قليلة فقط وقد نشأت بالشك من خلال التوتر الاجتماعي. وهل ستمر السعودية بنفس الإنهيار في الاخلاق ونفس النمو الوبائي للجريمة الذي حدث عندنا في المجتمع الغربي كنتيجة للنمو المحموم للصناعة والتنمية؟ ومما لا شك فيه أن التطور الحديث في هذه المجالات قد ادى إلى وجود عدد هائل من التناقضات ولما كان المسرح والسينما والأشكال الحديثة من التسلية العامة غير مسموح بها فإن تجارة الأفلام الخليعة، التي تشاهد من خلال أجهزة الفيديو في المنازل، قد ازدهرت في السوق السوداء.

إن المرأة المحجبة تماماً وزوجها السعودي، الذي يكنز الإفلام الخليعة في بيته، سوف يموت خجلاً لو أن مجرد كعب زوجته ظهر على الملأ.

والخمر ممنوع ولكنه يسيل أنهاراً في بيوت الأغنياء. وسعر اللتر من السكوتش في السوق السوداء يبلغ حوالي أربعمائة مارك.

ومع أن بعض السعوديين لا يشربون في بلادهم فإنهم لما يسافرون إلى الخارج ينغمسون في ملذات الخمر والجنس أكثر مما ينبغي.

وعلى جانب يقف الوهابيون المتزمتون المحافظون الذين يكافحون من أجل الحفاظ على القيم الدينية والاجتماعية الموروثة ومن أجل تطبيق الشريعة الإسلامية العتيقة والتي بليغ عمرها أربعة عشر قرناً من الزمن.وعلى الجانب الآخر يقف الشباب السعودي الحديث والتقدمي والذي يرى أن حضارته نوع من الفولكلور غني بالروايات،وهم يتوقون لتحطيم التقاليد ، وتقف الجبهتان في مواجهة بعضهما البعض. والحكومة تتأرجح بين التقدم بأي ثمن وبين الحفاظ على التعاليم القديمة.

وعندما تحصل النساء على تعليم عال فسوف يطالبن أيضاً بالتحرر والمساواة. وبعضهن يقف بالفعل على عتبة الثورة الاجتماعية فالجرائد السعودية تنشر مناقشات ساخنة حول الدور الحقيقي للمرأة .

وتطلب الكثيرات منهن حقوقهن بينما يلمح الزعماء الدينيون على قيود جيدة أقسى من ذي قبل، حجاب أكثر إحكاماً وأكمام أطول.

ولأن ثلاثة أرباع الشعب السعودي لا يزال تحت الثلاثين فإنه من المحتمل أن العنصر التقدمي في النهاية هو الذي سيحوز قصبة السبق .

ولكني أتذكر تحذير الملك خالد من أن الأصوليين سيقاومون بقوة كل تغير مباغت للتقاليد الإسلامية ومن الإستهانة بنفوذهم. وهو لم يكن يعرف حينذاك أن مجموعة من المتحمسين المسلمين سوف تقوم في نفس السنة باحتلال الجامع الكبير في مكة بقوة السلاح[23].

وقد كنت غالباً ما أندهش باستقرار المملكة، وقال لي الأمير خليل ذات مرة :

إن جذورنا تمتد لألف سنة.وقد قام الملك ابن سعود وخلفاءه لأجيال عديدة بتعيين الملوك وأولياء العهد والمحافظين والوزراء الذين يحكمون البلاد. ويمكن مقارنة العائلة المالكة بمجلس الأشراف لإحدى الشركات المساهمة الضخمة حيث أنها أرسلت مجموعات مختارة منها إلى جميع أنحاء البلاد.

---

[23] وقعت أحداث الحرم يوم الثلاثاء الموافق 1979/11/20 (المترجم).

وبالرغم من أن المملكة تلتزم بصالح الشعب وتخصص مليارات من الدولارات كل سنة منن أجل التربية والصحة، فإن الطبقة الوسطى، التي تتمتع من وقت قصير بتعليم عال تتقرب من الأمل في وجود حكومة برلمانية وأن يكون لها معه دور أكبر في صنع القرار.

إن القوة الاقتصادية المؤثرة سلاح ذو حدين. فالثراء المفاجئ والغير عادي من خلال البترول كان يمثل لبعض أفراد الأسرة المالكة تربة خصبة للفساد والخلاعة السافرة.

وهل تستطيع المملكة أن تتغلب على تحديات هذا الثراء الهائل؟

أعتقد أنها سوف تفعل ذلك ولكنها على صورة أخرى ولكن بشرط أن يكون المستفيد في النهاية هو المجتمع.

وقبل إقلاعنا بقليل كان هناك رجل يسرع تجاهي حاملاً في يده قرطاساً بني اللون. لقد كان نزار الحارس الذي اصطحبني أنا وفيليب وعبد الطاليم في رحلتنا إلى الصحراء من زمن بعيد.

"لقد أتيت لأودعك ومن أجل إحضار بعض التمر الطازج لك من النخلة أمام المستشفى". فذكرته قائلاً: لقد تم تعارفنا أيضاً بنفس الطريقة وقد حركت أعماقي هذه اللفتة الكريمة ثم خطر ببالي منظره من سنوات وهو يتسلق النخلة كالقرد في يده قرطاس من الورق ثم سألته:

كيف استطعت عبور البوابة؟ 0كان ممنوع دخول المكان الذي توجد فيه على غير المسافرين).

فقال وهو يمد يده لي بقرطاس التمر: إن الزي الذي أرتديته ساعدني في ذلك.

تصافحنا ثم قال لي بالعربية: حماك الله. ثم ذهب.

بعد ذلك بقليل كنا نطير فوق الصحراء. فتذكرت مغامرتي مع البدو وتذكرت كرمهم الحار والعلاقة التي نشأت بيننا وكانت صادقة بدرجة غريبة فاعترفت بسعادتي مرة أخرى لكوني طبيباً. فإن وظيفتي هي التي سمحت لي ان أدخل إلى مجتمع غريب وإلى افكار وأحاسيس اناس من مختلف الطبقات في المجتمع. ولا يوجد من يستطيع أن ينفذ خلف هذه الصبغة الاجتماعية كالطبيب، فهو الذي يقف الناس جميعاً أمامه وهم عرايا.

فالفناء الذي يساوي بين الجميع، لا يفرق بين الأمير والشحاذ وبين القوي والمستضعف فلكهم في النهاية لابد وأن يخضعوا للفناء الإنساني.

ولقد أحببت هؤلاء السعوديين، حياتهم أفكارهم وأملهم في المستقبل.

لقد أحببت هؤلاء الناس وتذكرت ما قال "هيبوقراطس" عن الطبيب: حيث يوجد حب الناس يوجد أيضاً حب الشفاء.

مرت الساعات بسرعة، وحين دخلنا مجال لندن الجوي وقفت امرأة غير واضحة المعالم متشحة بالسواد كانت تجلس في الجزء الأمامي من الطائرة ثم مرت بنا متجهة الى دورة المياه. وبسبب

حجابها السميك، الذي كان يغطي رأسها ووجهها لم نستطع التعرف على ملامحها. وبعد حوالي خمسة عشرة دقيقة كانت تعود وهي ترتدي فستاناً بيج أنيقاً. كانت امرأة هيفاء جميلة بدرجة ملفتة للنظر.

ولكن الذي أعجبني أكثر كان ابتسامتها الساطعة التي بدت وكأنها تضيء الكابينة عندما عادت لمرافقيها السعوديين.

ذكرني ذلك بالموقف المشابه للفراشة أثناء رحلتي الأولى إلى السعودية. إنها تتحول الآن من دمية الى فراشة. من المحتمل أن يكون هذا رمز على أنها تطير الآن إلى عالم الحرية في الخارج.

تذكرت سلطانة التي قررت الاحتفاظ بالقيم التقليدية للشرق علماً بأنها تستطيع أن تخرج من شرنقتها عندما تريد.

كانت شمس الصباح ترسل اشعتها على اسطح لندن والتي كانت تتوج بمداخن ومنارات كنائس فخمة لا حصر لها.

وكانت مياه نهر "التيمز" المتلألئة تشرف على الطبيعة الغنية بالخضرة ثم تمر في دعة بين القرى النائمة. وفي هذه اللحظة كانت خضرة الحدائق وأوراق شجر الغابات تعني الإسراف بالنسبة لي .

لمحة تاريخية

عن المملكة العربية السعودية

قامت الدولة السعودية، بمراحلها الثلاث، على أكتاف رجلين مثَّلاً فيما مثَّلا التزاوج والارتباط بين الدين والدولة، بين حكمة الواعظ وقوة الحاكم.

كان بداية اللقاء هناك في الصحراء العربية بين عملاقين جبارين:

أحدهما شيخ داعية والآخر قائد طموح داهية كان كل منهما بحاجة إلى الآخر لتحقيق أحلامه.

وكان لهما أما رادا، فكان ثمرة لقائهما هو ما نعرفه اليوم بالمملكة السعودية ونتيجة اللقاء معروفة لنا جميعاً ولسنا بحاجة إلا إلى طرحها والتأمل فها ومناقشة إيجابية وسلبية لهذه التجربة: فهي تجربة فريدة حقاً تستحق منا الأهتمام.

ولد الشيخ محمد بن عبد الوهاب والذي ينتمي إلى قبلة تميم. عام 1703 في العيينة في نجد.

وينتهي نسب أبن عبد الوهاب إلى نزار بن معد بن عدنان.

وكان أبوه عالماً وجده قاضياً. نشأ ابن عبد الوهاب في دار علم، يحضّ أهله على طلبة وتلقينه.

فلم يكن محمد بن عبد الوهاب قد بلغ العاشرة حتى كان يحفظ القرآن عن ظهر قلب، ثم أخذ يطوف بالبلدان يتلقى العلم حتى وصل إلى العراق.

وقد درس ابن عبد الوهاب فقه الإمام أحمد بن حنبل ، الذي يأخذ بالحديث وليس بالرأي. وقد أهتم كثيراً بدراسة الإمام أحمد بن تيمية الذي أحيا تعاليم الإمام ابن حنبل.

كان محمد بن عبد الوهاب يحرم تقديس الرسل والأولياء ويأخذ مريديه بالصلاة الجادة الصارمة، وكان ينهى عن الزينة في الملبس كما حرم لبس الحرير وتزيين المساجد والأضرحة.

وبعد أن عظم نفوذ ابن الوهاب وزاد اتباعه اخرجه والي عيينة من مسقط رأسه ليلجأ إلى الدرعية عام 1745 حيث يقال هناك شيخ عشيرة عنزة الأمير محمد بن سعود، وحاكم الدرعية منذ عام 1726 الذي يلقاه بترحاب كبير ويشد من أزره ويؤمن بمبادئه.

ويجتمع علم ابن عبد الوهاب بطموح ابن سعود في الزمن المناسب والظروف المناسبة حيث عمت الفوضى السياسية والدينية أرجاء الجزيرة العربية وانتشرت الفتن والحروب بين القبائل.

وبعد أن أشتد ساعد محمد بن عبد الوهاب وبانت خطورته خرج إليه خليفة أمير الإحساء، الذي أخرجه ذات يوم من عيينة. ولكنه يهزمه في عام 1757 ويستولي الوهابيون على إمارته.

في عام 1765 يتوفى محمد بن سعود ليخلفه إبنه عبد العزيز الذي لمع اسمه خلال الحروب، فواصل الغزوات والفتوحات التي كان ابوه قد بدأها. واستطاع أن يمد نفوذه خارج نجد فاحتل الإحساء والقطيف وهاجم العراق ولم يأت عام 1788 إلا وكان عبد العزيز قد تقدم حتى الكويت وقبل ذلك بعام (1787) قام عبد العزيز بتثبيت ابنه سعود خليفة له.

وسرى نفس الوضع على ابن محمد بن عبد الوهاب فقد تم تثبيته هو أيضاً في المنصب الديني وهو الإفتاء بعد وفاة أبيه عام 1792... أخذت قوة الوهابيين تتعاظم وباتت تهدد سلطان الشريف حسين "العلوي" وكانت أسرته تحكم مكة منذ القرن العاشر. فارسل إليهم جيشاً الى نجد في عام 1790 ولكنه هزم هزيمة نكراء على يد ابن سعود.

وعندما واصل الوهابيين زحفهم ناحية الشمال هب باشا بغداد ليردهم على أعقابهم، بل ويهاجم الإحساء عام 1797. وبعد أن دارت سجال بين الطرفين تمَّ إبرام إتفاقية صلح لمدة ستة أعوام.

وفي عام 1801 يعود الوهابيون فيهاجمون العراق لتسقط كربلاء في أيديهم ويخربون ضريح الحسين. وبعد انضمام معظم القبائل في نجد إلى الوهابيين قام هؤلاء في عام 1803 بشن الهجوم على مكة.

ولم تستمر مقاومة الشريف غالباً طويلاً فاضطر للتسليم، وفر هارباً إلى جدة.

وفي ذات العام يثأر الشيعة لما فعله الوهابيون في موقعة كربلاء فيخرج واحد منهم ليقتل عبد العزيز بن سعود وهو يصلي في مسجد الدرعية. وبعد مقتل عبد العزيز بن سعود تولى ابنه سعود لتبلغ قوة الوهابيين أوجها ويتسع نفوذهم فينتصر سعود على أمير مكة ويفتح ينبع والمدية والحجاز، وزحفت قواته حتى حدود الشام والعراق واليمن.

ولم يتمكن أحد من وقف المد السعودي. ــ الوهابي إلا محمد علي والي مصر بعد ان استعداه الخليفة العثماني على الوهابيين. فهاجمت قواته شبه الجزيرة والحقت الهزيمة بالقوات الوهابية.

وقد استمرت هذه الحروب حتى عام 1818 قضى محمد علي بعدها على ما يسمى بالدولة السعودية الأولى بعد أن دخل الدرعية ذاتها.

وفي عام 1840 يضطر محمد علي بسبب الضغط الإنجليزي إلى الإنسحاب النهائي من شبه الجزيرة العربية.

وبعد ذلك بثلاث سنوات يفر فيصل بن تركي من مصر ليقيم الدولة السعودية الثانية ويصل نفوذه الى الإحساء وقطيف وعسير.

وبعد وفاة فيصل بن تركي يحدث نزاع بين أولاده، ينقلب إلى فتنة ليبادر الأمير محمد بن الرشيد حاكم حائل بإيعاز من الأتراك ويهاجم السعوديين وينتصر عليهم ويحتل الرياض وبذلك تنتهي الدولة السعودية الثانية.

بعد ذلك استطاع عبد العزيز بن عبد الرحمن بن سعود والذي كان لجأ إلى الشيخ مبارك صاحب الكويت والخاضعة للنفوذ البريطاني أن يدخل الرياض في الليل مع عدد قليل من رجاله ليستردها مرة أخرى عام1902. وفي عام 1904يهزم عبد العزيز بن سعود حملة تركية. وفي عام 1910 يتم تأسيس جماعة الإخوان لتلهب الروح الوهابية من جديد ثم يستولي ابن سعود على الاحساء عام 1913، واعترفت به الدولة التركية والياً على نجد.

في عام 1915 يعقد اتفاقاً مع بريطانيا يتلقى به مرتباً شهرياً منها نظير عدم إقامته علاقات خارجية مع أي دولة غيرها.

أثناء ذلك كان الشريف حسين يعمل على توطيد سلطانه في الحجاز منادياً بنفسه ملكاً على العرب في أكتوبر عام 1916 ويؤدي ذلك إلى أن تهاجم قوات الحسين عبد العزيز بن سعود فينتصر عليها انتصاراً حاسماً في تربة في 19 مايو 1919.

وفي عام 1921 يعلن عبد العزيز نفسه سلطاناً على نجد ويضم إقليم شمر إليها.

وفي أواخر أغسطس من عام 1924 يزحف الوهابيون على الطائف، ولوطأة الحرب يلتمس أهل مكة من الحسين أن يتنازل عن عرشه، فيتنازل لأكبر أبنائه "علي" ويفر هو إلى العقبة. لتدخل قوات ابن سعود مكة في 13 أكتوبر.

ويتخذ لنفسه لقباً ملك الحجاز وسلطان نجد وملاحقتها.

وفي 18 سبتمبر 1932 يتم الإعلان عن قيام المملكة العربية السعودية. بعد قيام الدولة السعودية تتخذ علاقاتها مع جيرانها من العرب وكذلك مع بقية بلدان العالم شكلاً آخر.

ففي عام 1943 تنضم السعودية إلى المحادثات الدائرة بين مصر وسوريا ليتم إعلان تأسيس جامعة الدول العربية في 22 مارس 1945 وفي فبراير 1945 تعلن السعودية الحر على اليابان والمانيا مشتركة بذلك في الحرب العالمية الثانية.

ومع أول صدام مع إسرائيل في عام 1948 يعلن أبن سعود عن رغبته في إرسال كتيبة واحدة لتحارب إلى جانب مصر.

أما آخر إنجازات ابن سعود فكانت مده لخط انابيب البترول الواصل إلى البحر المتوسط والذي انتهى العمل فيه عام 1950 وكذلك خط حديد الدمام ــ الرياض والذي افتتحه في أكتوبر 1951.

وفي التاسع من نوفمبر عام 1953 يتوفى عبد العزيز بن سعود عن عمر يناهز الثلاثة والسبعين، ليتولى أكبر أبنائه الملك سعود والذي ولد عام 1902 في الكويت. وكان قد أصبح نائباً للملك في نجد عام 1926 وفي عام 1933 تم تعيينه ولياً للعهد.

أخذ سعود يعزز علاقاته ويوثق صلاته بالبلاد العربية فقام عام 1955 بعقد معاهدة دفاع مشترك مع جمال عبد الناصر.

وفي عام 1956 ينشئ قيادة عسكرية موحدة بينه وبين مصر واليمن واثناء أزمة السويس يدفع بقواته إلى الأردن.

ثم يتفق مع مصر والأردن وسوريا في عام 1957 على سياسة عدم الانحياز. وبعد حرب 1956 اخذت العلاقات بين سعود وعبد الناصر تزداد سوءاً حيث أخذت الأفكار الإشتراكية تنتقل إلى السعودية مع المدرسين والفنيين المصريين العاملين في السعودية.

وقد وجدت الدعاية الناصرية في الملك سعود هدفاً سهلاً بسبب تبذيره الذي اشتهر به.

وفي عام 1958يضطر سعود لترك رئاسة الوزارة لفيصل ليقوم بإصلاحات اقتصادية ومالية ثم يظهر وعياً سياسياً حالياً عندما منع الطيران الأميركي من المرور عبر أجوائه ثم سعى لتصفية الخلافات مع جمال عبد الناصر.. ولكن فيصل ينسحب من الوزارة ويوكل وزارة المالية الى الأمير طلال بن عبد العزيز وتزداد الأحوال الإقتصادية سوءاً وتعود العلاقات مع مصر الى سابق عهدها من السوء والتردي.

وفي 17 أكتوبر 1962 يعود فيصل رئيساً للوزراء مرة أخرى، ثم يضطر الملك سعود تحت ضغط إخوته والعلماء إلى التنازل عن كل سلطاته التنفيذية إلى أخيه الأمير فيصل في الثلاثين من مارس لعام 1964، ويتم عزل سعود في2 نوفمبر ومبايعة فيصل ملكاً على السعودية.

ويعترف سعود بأخيه فيصل ملكاً في 5 يناير 1965، ثم يرحل إلى فيينا للعلاج ثم إلى اليونان.

وفي عام 1967 يتجه إلى القاهرة ثم يموت في أثينا في الثالث والعشرين من فبراير 1969 وعمره 67 عاماً.

ولد الملك فيصل في عام 1903 وقد أشتغل مبكراً بالسياسة انه قام بأول زيارة رسمية إلى إنجلترا وهو لم يبلغ بعد الخامسة عشرة من عمره وقد قام أيضاً بزيارة الاتحاد السوفييتي.

واصبح نائباً للملك في الحجاز عام 1925، ووزيراً للخارجية في عام 1930. وكما أنه ينتسب عن طريق أبيه إلى جده سعود فإنه ينتسب لامه إلى محمد بن عبد الوهاب وقد رأى الناس في فيصل المتمم الحقيقي لسياسة بن سعود.

أخذ فيصل على عاتقه تحديث السعودية فقام ببناء المستشفيات والمدارس والجامعات وقام بإلغاء الرق في عام 1963 (وكان ابن سعود قد منع دخول العبيد عام 1936) ودفع تعويضاً لذلك قدره خمسة ملايين ريال.

ولكن حدة النزاع والصراع أخذت تزداد بين مصر والسعودية لتبلغ ذروتها في مشكلة اليمن. وفي نوفمبر عام 1964 يتواصل فيصل وناصر إلى إتفاقية لوقف إطلاق النار. إلا أن السلام لم يحل بين الطرفين إلا بعد توسط السودان في أغسطس 1967 لتنسحب القوات المصرية في أكتوبر من العام نفسه. وفي حرب 1973 يعلن الملك عن خطوه الشهيرة بوقف ضخ البترول إلى أمريكا وبريطانيا، إلا أنه يعود بعد أربعة وعشرين يوماً ليعلن على لسان وزير البترول السعودي "اليماني" عن إستئناف الضخ لان وقفه يضر بالدول المنتجة ذاتها.

وفي الخامس والعشرين من مارس عام 1970 يُقتل الملك فيصل في مكتبه .

هكذا تكلم القاضي

لما كانت لي بعض الأسئلة والاستفسارت ولما تطلَّب حسم بعض المسائل المطروحة في هذا الكتاب رأي خبير فانني قررت الذهاب إلى واحد من المهتمين والمعنيين بهذا الأمر. ولم اجد افضل من القاضي..

ليرد على هذه الأسئلة وهكذا كان لقائي مع المستشار: محمد سعيد العشماوي.

وانا الآن أضع أسئلتي وإجابته أمامك بلا تعليق!!!!

☐ "إن المشكلة ليست في الحجاب ولكن في أسلوب الحياة الذي يختبئ وراءه".

ما رأيك في هذه العبارة وما مدى صحتها؟

ــ هذه العبارة صحيحة إلى حد كبير، وذلك أن الحجاب ليس مجرد زي لكنه أسلوب حياة، بمعنى أنه يفيد معان كثيرة تشكل منهجاً كاملاً في الحياة. من ذلك مثلاً ــ إن المرأة عورة، وعورة جنسية بالذات ينبغي حجبها بطريق أو بآخر سواء بالحجاب أو النقاب ــ عن الرجل حتى لا يفتتن بها.

وقد يعني ذلك أيضاً أن وضع المرأة في المجتمع يقل عن وضع الرجل فنجدها هي التي تحجب لمنع الفتنة عنه، لكنه الرجل لا يحجب لمنع الفتنة عن المرأة، وهو أمر جائز واضح ــ أي افتتان المرأة بالرجل ــ ومثال ذلك قصة يوسف الصديق في القرآن.

"وتحجيب" المرأة يمنعها من الإسهام في الحياة العقلية والعملية طالما أنه يقيدها في معنى جنسي محدد سواء صراحة أو ضمناً. وقد يكون الحجاب زياً لا يتلاءم مع بعض الأعمال ــ التي يفرضها الاقتصاد الحديث ــ في المصانع وغيرها .

****

– ما مدى شرعية ارتداء الحجاب والنقاب؟

☐ ــ الحجاب ورد في القرآن الكريم في آية يفسرها البعض على أنها تعني النقاب. وشرعية ارتداء الحجاب أو النقاب تطرح سؤالاً هاماً: هل جميع أحكام المعاملات في القرآن مطلقة تطبق في كل زمان ومكان؟، أم أن المطلق هو أحكام العبادات فقط، في حين أن أحكام المعاملات ومنها "الزي" هي أحكام وقتية تقتصر على وقت بذاته أو على مكان محدد.وفي تقديري، الذي اشرت إليه بالأدلة الشرعية في كتابي "أصول الشريعة" و "الإسلام السياسي"، أن أحكام المعاملات في القرآن ومنها الأحكام الخاصة "بالزي" هي أحكام مؤقتة يجوز للمجتمع أن يتجاوزونها إذا ما تغيرت الظروف والأحوال بما يفرض تغيرها التحول إلى أحكام جديدة، وقد قدمت في كتبي أمثلة من تاريخ الإسلام تثبت أن المسلمين، وخاصة في عهد عمر بن الخطاب، قد اتبعوا هذا المنهاج فاعتبروا أن أحكام المعاملات وقتية وغيروا فيها، منها مثلاً، أحكام زواج المتعة، وتوزيع أراضي البلاد المفتوحة على الفاتحين، ونصيب المؤتلفة قلوبهم. وليس أدل على صحة وقتية أحكام المعاملات من أن جميع البلاد الإسلامية قد الغت "الرق: أو على الأقل لا تستطيع بعض البلاد التي تجيزه سراً أن تعلن ذلك صراحة مع أن"الرق" والأحكام الخاصة بالرق ثابتة في القرآن ولم تنسخ.ومن ذلك أحكام التسري بالإماء "الجواري" فقد انتهت نهائياً مع أن الحكم وارد في القرآن خمس عشرة مرة ولم ينسخ منه. ومن المعلوم لدارس الشريعة أن الأحكام كانت تبنى دائماً على"العلل" وترتبط "بالمقاصد" فإذا انتفت العلة أو تغير القصد تعين أن يتغير الحكم.وقد ورد في الآية التي فرضت الحجاب ما يفيد أن الحجاب وضع على المؤمنات للتمييز بينهن وبين الساقطات في ذلك العهد. ذلك أن البيوت في المدينة لم يكن به دورات مياه وكانت النساء ــ شأنهن شأن الرجال ــ يخرجن إلى الخلاء لقضاء الحاجة، فيتعرض لهن الشبان بالمضايقات على أمل الاتصال بهن. ولهذا السبب فرض الحجاب على المؤمنات كما جاء في الآية (ذلك أدنى أن يعرفن فيؤذين). ومفاد ذلك أن المقصود من الحجاب هو تمييز المؤمنات عن الساقطات فلا يتعرضن لمضايقات الشبان.

☐ وفي تقديري أن هذه العلة منتفية في الوقت الحاضر. كما أن "الزي" مسألة ترتبط بالظروف والواقع دون أي شيء آخر.

☐ ما هو سر انتشار الحجاب في هذا الوقت وما احتمال تطوره؟ــ من يدرس التاريخ الإسلامي يعرف ــ مثلاً ــ أن التجار الذين بشروا بالإسلام وخاصة في وسط وغرب أفريقيا كانوا يعنون أساساً بأن يغير المسلم زيه فينتقل من المألوفة في مجتمعه إلى ارتداء

"الجلباب" وهو زي أهل مكة وليس أهل المدينة بل إن أهل المدينة كانوا يطلقون على أهل مكة لفظ "الجلابيب" للحط من شأنهم وإشارة الى أنهم ــ أي أهل المدينة ــ أكثر منهم حضارة.

وكان المسلمون في الفترات الأولى من التبشير بالإسلام يكتفون من المسلم في البلاد الأخرى بتغيير زيه دون أي شيء أخر على اعتبار أن هذا يظهر الكثرة العددية، وعلى اعتبار أن المسلم سوف ينتقل مع مرور الوقت إلى العادات فإن لم يفعل اعتزازاً بزيه الذي يجعله مفروزاً عن باقي الجماعة فسوف يفعل ذلك أولاده أو أحفاده.

وفي اعتقادي ان الدعوة إلى نشر الحجاب في الفترة الحالية تعود إلى الأسلوب السياسي الذي تعمد إليه جماعات الإسلام السياسي بغرض فرز المجمع وتفتيت أفراده إلى جماعات وتمييز الآنسات والسيدات التابعات لهذا التيار عن غيرهن. ثم يقمن هؤلاء بدعوة الأخريات إلى التمثل بهن حتى لا يتمتعن بالخروج عن الدين ويتمتعن بالتميز.

ومما ساعد على نشر فكرة الحجاب إعارة الكثير من المصريين إلى البلاد العربية حيث يعملون لفترة طويلة يصطحبون فيها زوجاتهم أو بناتهم..الخ.

فنظراً لانتشار أسلوب البداوة في البلاد النفطية وتمسك أهل هذه البلاد بالشكل دون الجوهر وبالمنظر بغض النظر عما وراءه، فإن من تعيش في هذه البلاد من النساء تضطر إلى التحجب اضطراراً، فإذا عادت إلى "مصر" لم تستطع خلع الحجاب إما بسبب التعود واما لإظهار أنها من أسرة عملت في البلاد النفطية فاكتسبت ميزة الوفرة المادية.

كما أن مما ساعد على انتصار الحجاب في تقديري أن حركة يوليو1952 قامت بنقل الريف إلى المدينة بدلاً من أن تنقل المدينة إلى الريف فامتلأت المدينة بالريفيات اللاتي اعتدن تغطية رؤوسهن. وقد وجدت هؤلاء في آراء التيار الديني السياسي تبريراً وتفسيراً لتمسكن بزيهن الريفي.

وتطور هذا الوضع المرتبط بتطور تيار الإسلام السياسي ارتفاعاً أو انخفاضاً، علواً أو دنواً. كما أنه يرتبط من ناحية أخرى بمدى تفهم أسلوب العصر وروح الحياة وطبائع التطور.

☐ "الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما انفقوا من أموالهم".. "ولهن مثل ما عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة"..

☐ هل يفرّق الإسلام بين الرجل والمرأة؟ إذا وضعنا في الاعتبار مسائل:

الشهادة أمام القضاء والميراث على سبيل المثال.

ـــ في اعتقادي أن الإسلام ـــ حسب الأصل ـــ لا يفرق بين الرجل والمرأة من حيث الإنسانية وحفظ النفس والمال والعرض.
وأي تفرقة يمكن أن يستند فيها إلى آية قرآنية أو حديث ينوي تعود إلى الظروف الاجتماعية التي كانت تعيش فيها المرأة في العصر الجاهلي وفي صدر الإسلام. وفي الوقت الحالي تغيرت الظروف وأصبح يوجد في مجتمعنا من النساء الفاضلات تزن الواحدة منهن أعداداً كبيرة، من الرجال الأميين والجهال.

****

☐ ما هو الوضع المالي للمرأة المسلمة؟

ـــ للمرأة المسلمة ذمة مالية مستقلة عن زوجها وعن أسرتها. وإن كان البعض ينادون بضرورة وجود ذمة مالية مشتركة بين الزوجين لأن نجاح بعض الأزواج يرجع أساساً إلى وجود زوجة صالحة بجواره ترعاه وتشد من إزره. وعلى هذا الأساس تكون الزوجة قد أسهمت بنحو أو بآخر في الثروة التي كوَّنها الزوج ولو كان ذلك بطريق غير مباشر.
ويقتضي وجود ذمة مالية مشتركة أن تعمل "المحكمة" على الفصل في هذه الحالة إذا ما حدث طلاق أو تطليق 0التطليق يتم عن طريق المحكمة) ومن ثمة لا يلقى إلى الشارع دون سند ومدد مالي، إنما تقضي المحكمة للمرأة بجزء من المال الذي كون الذمة المالية المشتركة للزوجين.

*****

☐ هل الخروج إلى العمل حق من حقوق المرأة المسلمة؟

ـــ كانت المرأة في العصر الجاهلي وفي صدر الإسلام تؤدي الأعمال التي كانت تسمح بها ظروف ذلك العصر، وكان النشاط حينذاك ينحصر في التجارة والزراعة أو الحرب وهي نوعية من العمل لا تسمح للمرأة بالمساهمة فيها بقسط فعال أو مباشر. فكانت النساء يمارسن هذه الاعمال عن طريق تكليف رجال بها،أما في الحروب فكانت النساء يساهمن فيها عن طريق شد أزر الرجال وتشجيعهم قبل وأثناء المعارك.
وفي الوقت الحالي تفتحت مجلات كثيرة لعمل المرأة،وفي تقديري إن الإسلام يمثل تقدماً إلى الأمام وحركة إلى المستقبل ومن وجهة نظري أقول إنه لا يوجد مانع شرعي يحول دون المرأة ودون ممارسة أي عمل شريف تصلح له وتتأهل علمياً أو مهنياً أو حرفياً لتأديته.

****

☐ هل ما زالت أسباب إباحة زواج الرجل من أربعة نساء قائمة؟ وما هو الوضع القانوني للتسري بالجواري وموقف الإسلام منه؟

ــ هي ما زالت قائمة في رأي بعض العلماء..
إلا أنني أعتقد من خلال فهم القرآن بأسلوب مقارنة الآيات جميعاً أن الأصل في الإسلام هو عدم تعدد الزوجية، أما الإباحة فلا تكون إلاَّ لضرورة وبشرط أن يضمن الزوج لنفسه ولأسرته ألاَّ يقع في الظلم.
وإذا كان الفقهاء قد أكدوا فيما سبق حق الرجل في الزواج من أربعة فإن هناك حججاً أخرى قائمة تخالف هذه الحجج التي صدرت من رجال وفي ظروف لم تكن تسمح بالمعارضة أو التفنيد أو حتى إبداء وجهة نظر مخالفة.
ولكن عندما يقول القرآن (ولن تعدلوا ولو حرصتم..) فإن ذلك يعني أن الزواج من أكثر من واحدة يؤدي يقيناً إلى ظلم النفس والأسرة.
وإذا كان الأصل في الدين هو العدل والارتقاء بالإنسان عن الظلم فإن كل من يوقع في الظلم يقيناً أو شبهة لا يكون حقاً مشروعاً، وإنما حالة من حالات الضرورة مشروطة بظروف الضرورة.
أما عن التسري بالجواري، فعلى ما سلف، ما زال أمراً مباحاً بحسب نصوص القرآن ولكنه محظور بمقتضى القوانين الوطنية والمواثيق الدولية، ولذلك فهو لم يعد قائماً إلاَّ في بعض البلاد التي تبيح الرق سراً ولا تستطيع أن تجاهر به حتى لا تكون محل احتقار من المجتمع الدولي ونبذ من الهيئات الدولية. وهذه البلاد تعتبر أن إلغاء الرق هو في الحقيقة نوعاً من الغزو الفكري الغربي.

☐ ما هي الشريعة؟

ــ من الناحية اللغوية فإن الشريعة تعني المنهج أو الطريق أو السبيل، وهذا هو المعنى الذي استعمل به اللفظ في الشعر الجاهلي وفي معاجم اللغة ونزل به القرآن.
فلفظ الشريعة في القرآن لا يعني الأحكام القانونية ولكنه يعني الطريق أو النهج.
غير أن معنى للفظ تغير عبر التاريخ وأصبح يستعمل اصطلاحاً بما يفيد الأحكام التشريعية الخاصة بالمعاملات في القرآن أو السنة وآراء العلماء من فقهاء ومفسرين ومفتين وغيرهم وقد يتخصص اللفظ فيعني الفقه فقط، وإذا كان الفقه هو علم الناس في حين أن الشريعة هو طريق الله فإن التوسع في لفظ الشريعة ليعني الفقه يكون في الحقيقة خلط بين ما نزل من الله وما صدر عن البشر. وهو أمر يتعين ــ لصالح الإسلام والمسلمين..وضع حد دقيق بينه.

أما حدود الله في القرآن فهي تعني أحكام الله في العبادات أو المعاملات ولا تعني العقوبات الجنائية وإنما اصبحت تستعمل بمعنى العقوبات الجنائية بناءً على تعبير اصطلاحي صدر عن الفقهاء ولم يرد في القرآن أو في الحديث.

أما العقوبات الجنائية الواردة في القرآن فهي أربعة: عقوبة السرقة، وقذف المحصنات والزنا (وعقوبة الزنا في الإسلام هي اللجد وليس الرجم) وأخيراً قطع الطريق (وعقوبته الإعدام أو الصلب أو النفي في الأراضي، أو السجن). وجدير بالذكر أن عقوبة قطع الطريق الواردة في القرآن هي نفس العقوبة المنصوص عليها في القانون المصري.

وفي التقدير السليم أن هذه العقوبات تبعاً لشرع الله ومنهجه لا تطبق إلاَّ بعد تحقيق العدالة السياسية والاجتماعية والاقتصادية في المجتمع.

وكذلك يجب ضمان العدالة القضائية حتى لا تطبق العقوبات لأغراض غير دينية تحت لافتة شرعية.

ونجد القرآن يشترط العدل في الشهادة فقول (واستشهدوا ذوي عدل منكم) فإذا كانت العدالة مطلوبة في الشهود فهي من باب أولى مطلوبة في القاضي والحاكم وفي المجتمع وبين كل الناس قبل توقيع أي عقوبة أو تنفيذ أي حكم.

****

☐ ما المقصود بالآية (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون)؟

ــ نزلت هذه الآية في أهل الكتاب.

ومفهوم هذه الآية في الحقيقة: إن من لم يحكم من أهل الكتاب بما أنزل عليه في كتابهم يكون منكراً للحكم الذي لم يقضِ به.

وسبب نزول هذه الآية أن اليهود كانوا قد احتكموا إلى النبي لتوقيع عقوبة على يهودي ويهودية ارتكبا جريمة الزنا ثم إنهم أخفوا عن النبي عقوبة الزنا في التوراة وهي الرجم فنزلت الآية بالمعنى السالف بيانه.

وفي رأينا أن هذه الآية تخاطب أهل الكتاب اليهود ــ فقط لا إلى المسلمين كما إنها لا تعني أن من لم يطبق حكماً من أحكام الله يصير كافراً بالله وإنما معنى كافر هنا هو المنكر للغة الحكم الذي لم يطبقه.

☐ على أي أساس اعتمد المشرع عندنا في إلغاء الرق مع عدم وجود نص في القرآن يحرمه؟

ــ اعتد المشرع في ذلك على ضغوط العالم المتحضر وعلى ما يعرف في الفقه باسم "المصالح المرسلة" أي تغيير الأحكام إذا اقتضت المصلحة ذلك. وفي نظرنا فإن هذا أبلغ تطبيق لفكرة الأحكام وإلاَّ فعلى من يرى غير ذلك أن يتمسك أولاً بضرورة إباحة الرق والتسري بالإماء لأن أحكام الرق والتسري بالإماء كثيرة في القرآن بينما يبلغ عدد العقوبات أربع منها عقوبة مطبقة فعلاً.

وإذا كانت أحكام القرآن كل لا يتجزأ ولا يجوز وقف أي حكم فيها فإن الفضائل الإسلامية والأخلاقيات الإسلامية لا تستقيم إلاَّ مع إباحة ما هو مباح في القرآن لم ينسخ مثل التسري بالإماء وزواج المتعة الذي ما زال مباحاً عند الشيعة.

****

☐ ما رأيك في الإعدام علناً؟

ــ أنا لا أوافق أبداً على الإعدام علناً وذلك انطلاقاً من مبدأ حرمة الموتى ومنعاً من إحداث لأي اضطراب في مشاعر أو أعصاب مشاهدي تنفيذ عملية الإعدام. وقد يقال في ذلك أن القرآن ينص على أن يشهد عذاب الزانين طائفة من المؤمنين فيكون رأيي في هذا النص هو ما قلته عن الرق والتسري بالإماء، ذلك أن الظروف تغيرت ومشاريع الناس أصبحت أكثر رفاهة، كما ظهرت العلل النفسية التي هي أشد خطورة من الأمراض العضوية، وواجب الدين والمجتمع أن يحمي الناس من الوقوع في آفات نفسية وعصبية محققة.

وفي العصر الحديث يستعاض عن علانية الإعدام بالإشارة إلى ذلك في الصحف ووسائل الإعلام وهو أمر كاف لذيوع الغرض منشر العقوبة على الناس.

****

☐ ما هو السبيل الذي يجب أن نسلكه حتى نستطيع اللحاق بركب الحضارة؟

ــ السبيل الحقيقي هو أن نفهم الحضارة وأن ننتبه إلى أن الإسلام في الفترة الحالية ينقسم إلى اتجاهين:

ــ إتجاه بدوي أو بدائي ينظر إلى الإسلام في مراحل البداوة وعدم التحضر فقط.

ــ وأسلوب حضاري ينظر للإسلام في فترات التوهج والتآلف الحضاري كما كان الحل في دمشق وبغداد خلال القرون الأربعة الأولى من الهجرة،وكذلك في الأندلس خلال فترة وجود العرب بها.

ويقتضي ذلك أن نتعرف عن السفاسف ونتجه إلى صميم الأشياء وأن نبعد عن الهامشيات وأن نلجأ إلى البؤر الفعالة. وبدلاً من أن نتكلم عن حل وحرمة "الخل" أو تشريح الطبيبة لميت ذكر

وجواز دفن جثة أنثى بجوار جثة رجل، بدلاً من ذلك نجعل "ألف باء" عقلية الطفل المسلم علوم الكومبيوتر والليزر ومراكب الفضاء والهندسة الوراثية.

وبعد الاستيعاب الكامل لحضارة الغرب وهي الحضارة العالمية في الوقت الحاضر يمكن أن نعيد صياغة الحضارة بإضافة قيمنا الخاصة إليها .. وهي كثيرة:

ــ أن نربط الحضارة بالإيمان بالله بدلاً من الإلحاد.

ــ أن نجعلها إنسانية شاملة غير مقصورة على أبناء الغرب.

ــ أن نبني الاقتصاد على قيم رفيعة وليس على الاستغلال.

ــ أن توجه التكنولوجيا إلى خدمة البشرية جمعاء، بدلاً من أن تحتكرها بعض الدول أو الجماعات بغرض السيطرة على مجموع الناس في العالم كله.

****

□ وما هو الأساس الفكري الذي نستطيع أن ننطلق منه؟

ــ قد يكون من الإفضل ــ في تقديري ــ أن نعمل بدلاً من أن ننظر مخافة أن يؤدي التنظير أو وضع أساس فكري إلى ارتباطنا بالنظرية والتصاقنا بالأساس الفكري وعدم الحركة والامتناع عن العمل.

ومع ذلك، فإذا أردنا أساساً فكرياً دينياً، فإن هذا الأساس ــ في يقيني ــ يكمن في لب شريعة الإسلام التي جوهرها التقدم ولحمتها الحركة.

فإذا قلنا أن أساس الإسلام هو التقدم إلى الأمام والحركة إلى الأفضل والانتشار بين الناس جميعاً وتأكيد الأخوة الإنسانية والارتباط بالمبدأ الكوني والإيمان بالله تعالى كقيمة عليا للعدالة العامة السامية الشاملة، كان هذا هو الأساس الفكري السليم.

وبقيت كلمة:

أعتقد أنك ستتفق معي أن أحداث هذه المذكرات قد طرحت موضوعاً بعينه طرحاً شديداً ألا وهو وضع المرأة في المجتمع العربي...

وقبل أن أمس هذا الموضوع الخطر لابد أن ألفت نظرك إلى أنني لا أبني نظرية ولا أجادل في نظرية ولن أحاول التطرق إلى ذلك...

بل إنني أحاول أن أفكر بصوت عال في وضع قائم بالفعل اعتبره أخطر العوامل التي تساهم بنشاط يومي في جر مجتمعنا العربي إلى قاع التخلف ومستنقع الجهل والفقر والمرض: فهناك من يطالب ويشيد في المطالبة بإسدال الحجاب على المرأة وكان هذا الستار هو الذي يفصل بين الفضيلة والرذيلة، الذي يطرد الشيطان من رؤوس (الرجال) فتنتشر العفة في مجتمعنا.

وهناك من يحتج بأن في التحجب حماية للمرأة نفسها قبل أن يكون حماية للرجل من الافتتان بها، وأني لأسأل: إلى متى سنظل ننظر إلى المرأة وكأنها خلقت فقط من اجل فتنة الرجل وغوايته بينما الدين الإسلامي يترفع عن ذلك ويختلف مع أديان أخرى تعتبر أن المرأة والشيطان تعاونا لإخراج آدم ــ أي الرجل ــ من نعيم الفردوس الأبدي فحق عليها اللعنة، وظلت تحمل على كاهلها وزر إثم لم ترتكبه، حسب نصوص القرآن الكريم...

وأسأل أيضاً: ممن تطالب حماية المرأة؟

أتطلب حماية المرأة من نفسك، أتطالب ــ أنت الرجل ــ بحماية المرأة من الرجل؟ ... أهذا منطق، إن كان فهو بلا ريب منطق مقلوب.

فعليك إن كنت ترى مصلحة المرأة وتنشدها أن تتزود أنت بالقوة والشرف والعفة والأمانة والوعي وغض البصر... ثم طالب بعد ذلك بما تشاء...

غض البصر يا رجل.. فلا ترى المحجبة من السافرة، تسلح بضبط النفس.. فلا تثيرك عين إمرأة أو شعرها أو أنفها. إرتق بشعورك وهذب غرائزك.. فلا ترى في المرأة فقط لذة حيوانية عابرة.

ارتفع بأسلوب حياتك... فلا تتحرش بها في كل مكان ولا تتلمس لنفسك الأعذار في ذلك....

لو كنت أنت الأقوى بالفعل ــ كما يتباهى معظم الرجال ــ فلتظهر ذلك في ارادتك وسمو أخلاقك.

عن كنت تبغي حماية المرأة ــ من نفسك ــ فاكبح جماح نفسك وسيطر على شهواتك وارتق بأحاسيسك ومفاهيمك فتسلم وتسلم المرأة من أذاك.

لقد وصل بنا الحال إلى اعتبار أن جسد المرأة، صوتها حركتها عورة حتى لو كانت في المسجد.

ولا زلنا نعيش في مجتمع يعتبر أن كلمة "المرأة" المجردة سبة وشتمة في حد ذاتها وما زال هناك من يخجل من ذكر اسم أمه حتى في الأوراق الرسمية... لقد نودي قبل ذلك بأن تسفر المرأة عن وجهها وقد آن الأوان للدعوة بأن تسفر المرأة عن عقلها وفعلها وهذا لن يأتي ابداً الا إذا منحنا المرأة حقوقها الاقتصادية والاجتماعية... إلخ، كاملة غير منقوصة وقبل ذلك لابد من احترامها كإنسان وتعزيز مكانتها في المجتمع كعضو عامل منتج مفكر مبدع....

فالعلم والعمل حقل لكل مواطنة ومواطن لكي يستطيع أن يؤمن لنفسه ــ بنفسه ــ حياة حرة وكريمة وشريفة...

إن العدل هو روح الإسلام وأحد مبادئه العظيمة السامية. فأي عدل هذا ونحن نسلم نسائنا ــ أي نصف مجتمعنا ــ إلى أي رجل كل مؤهلاته هو القدرة على توفير حياة اقتصادية ملاءمة ولا

يهم بعد ذلك إن كان يعرف الكثير أو القليل عن شؤون دينه ودنياه. وكلنا يعرف أننا نعيش في مجتمع أغلبيته العظمى أمية لاتعرف قراءة أو كتابة ناهيك عن الأمية الثقافية.

كيف نأمن على نصف مجتمعنا مع هؤلاء الرجال الأميين الجهال؟ إن ما يعرف عندنا الآن بمصطلح "الزواج" هو في حقيقة الأمر عملية تزويج، ليس زواجاً حراً قائماً على رضا الطريفين ورغبتهما الصحيحة...

إن هذا النوع من التزويج يندرج تحت نبذ "الصفقات التجارية" وهو جريمة ترتكب كل ساعة في حق مجتمعنا.

ولقد وضع الإسلام أساساً تقدمياً عظيماً لصحة الزواج ألا وهو شرط موافقة المرأة. وواجبنا هنا.. إن كنا نبغي رقي مجتمعنا ونسعى إلى تقدمه أن نوفر لهذه المرأة الظروف السليمة والصحيحة والصحية في جميع مناحي الحياة حتى تستطيع إبداء رأيها بحرية تامة في زواجها وحتى لا تكون مضطرة إليه إضطراراً ومدفوعة إليه دفعاً تحت وطأة وقهر ظروف مريضة..

إن مشكلة الطلاق وما يتبعها من ويلات يعرفها جميعنا ليست إلا نتيجة مباشرة لمثل هذا النوع من التزويج ولست أدري إلى متى سيظل الطلاق سيفاً مسلطاً على رقاب النساء، يشعرهن بالهوان الاسترقاق والمذلة.

فأي عرض نتشدق بحمايته واي شرف نفتخر بتسربله ونحن ننظر نسائنا تهرول منكسرة بين المحاكم تستجدي لقمة عيش بعد طلاقها..

وهي قد حرمت قبل ذلك من العلم بدعوى أنه لن ينفعها، فمصيرها هو (بيت زوجها) ثم حرمت من العمل بدعوى أن دورها ينحصر في الاهتمام بشؤون زوجها وبيتها. وبهذه الدعاوى الهشة نترك نصف مجتمعنا يواجه مستقبلاً مجهولاً مظلماً..

إن ضمير الرجل الشريف الواعي بمسؤوليته تجاه مجتمعه ووطنه يأبى أن يحيا في ظل هذا المناخ الأسري والاجتماعي الذي يهدد المرأة التي هي زوجته وشريكة حياته وأمه وأخته وابنته..

لقد استحالت المرأة وهي تحاول تأمين مستقبلها إلى عامل تدمير الاقتصاد الوطني..

فالمرأة تحت وطأة هذه الظروف تحرص على كثرة الأنجاب حتى تقيد الرجل وتسلبه مجهوده وماله فلا يتزوج بأخرى... فهي تطلق عليه سرباً من البنين والبنات يأكلون ماله كالجراد، فيعمل ليل نهار فلا تتح له الفرصة للإلتفات إلى امرأة أخرى. ويصير عبء العيال (بعبعاً) يجعل الرجل ينتفض ذعراً لو فكر ذات مرة في الزواج مرة أخرى... أن المرأة وهي تحاول تأمين

مستقبلها تتحول إلى سلاح رهيب هدام، نعرفه جميعاً في شكل إنفجار سكاني عظيم يأكل اليابس قبل الأخضر...

والجميع ينادي (ألا نظِّموا النسل) ولا من يجيب، فالمشكلة تكمن في تأمين حياة حرة كريمة للمرأة فإذا وفرنا ذلك لن نحتاج لمطالبتها بتحديد النسل..

وهناك أيضاً من يطالب بعودة المرأة إلى المنزل متذرعاً بحجج سلف ذكرها مضيفاً إلى ذلك أن المرأة تعطل سير العمل بسبب حملها لتسعة أشهر....

ومن يطالب هذا أو يستحسنه لا يعفي المرأة (الحامل) من القيام بواجباتها المنزلية كاملة..

إننا جميعاً ننظر للمرأة لحامل وهي تتسوق وهي تعمل في المنزل ولا يوجد من يطالب برفع هذا العمل عن كاهلها .

***

إن من يطالب المرأة العودة إلى المنزل عليه أن يتأسى بأعظم رجال هذه الأمة محمد بن عبد الله وهو يرى المرأة تدفع عنه أذى الرجال في ساحة الوغى. ينظر إليها وهي تنازل الفرسان المحاربين لتذود عن الرسول...

وهو لم يحقرها ول يزجهرها، بل ذكرها التاريخ في أبهى صورة، صورة المرأة العربية الجسورة القوية وهي تقتحم كل المجالات وحتى ميادين الحروب لتشارك في الدفاع عن مبادئها ووطنها..

إن المطالبة بعودة المرأة إلى البيت هو منطق مغلوط فالمُطالَب بالعودة إلى البيت ــ في عصرنا هذا ــ هو الرجل! نعم.. يجب أن يعود الرجل إلى بيته.. الذي يهجره لسبب أو لأخر..

فمن منا لا يعرف ألان مأساة تغيب الرجل عن بيته، عن زوجته وعن أولاده..

فتغيب الرجل ــ شبه المستمر ــ عن بيته يهدم المجتمع من أساسه إذا أخذنا أن الأسرة هي خلية المجتمع وأن الرجل والمرأة ــ معاً ــ هما قطباه، وأن الأبناء هم أمله ومستقبله، فإذا ما اختلت العلاقة بين هؤلاء الثلاثة اختل المجتمع وفقد توازنه.

وهناك من يقول إن الأب هو قطب القوة والصرامة في الأسرة بينما تمثل المرأة قطب الرحمة والعطف، فكيف إذن يستقيم الأمر إذا لم نوازن في ترتيبنا لأطفالنا بين هذين القطبين المختلفين والمكملين لبعضهما البعض، لنخرج طفلاً سويّ الشخصية. فالتربية السليمة لابد أن تقم من الناحيتين، لابد أن يقوم عليها الأب والأم بقسط متساو متوازن، ولذلك وجب على الأب العودة إلى منزله ليشارك في تربية أبنائه وبناته فغياب الرجل ــ شبه الدائم ــ عن منزله يتساوى في خطره مع التواجد الدائم للمرأة في البيت.

ولهذا فإنني أطالب ــ جاداً ولا هازلاً ــ بعودة الرجل إلى البيت فهذا من حقه...

arryadh@Gmail.com